

سيرة البابا يوحنا بولس الثاني

الآنجي من بلد بعيد

نقله إلى العربية

الأب نبيل الحاج

جميع الحقوق محفوظة للمطبعة الكاثوليكية

ISBN 2-7214-4517-0

التوزيع :

المكتبة الشرقية

ص . ب 1986 – بيروت ، لبنان

إهداء الترجمة إلى روح والدي

يا ابن الجبل، ألا تعزن
للحقل الذي ولدته فيه،
لغابات الصنوبر والمروج
ولجادول الفضة السائلة؟
يا ابن الجبل، ألا تعزن؟

أغنية شعبية بولونية

المحتويات

6	مقدمة المترجم
9	مقدمة المؤلف
10	اسبوع تاريخي
23	كونوا معي على الجبل الأبيض
32	الصبي لوليك
44	في الخفاء
60	التحرير
73	الأب قويتيلا
83	البرشانة البيضاء
88	المجمع الفاتيكاني الثاني
111	ما بعد المجمع
124	" رجل الرقص والسبحة "
135	هذا المجنون العظيم
144	مجامع محلية (سينودسات)
153	هذه حجارة حية
165	أصدقائي ، صلوا لأجلي
177	هناك برد على الجبل
192	بابا للعالم

مقدمة المترجم

نادراً ما ينجح كتاب، فيجدد طبعه أربع مرات في عام واحد، ويملاً الاسماع والبصائر، وتتناوله افلام والمعلقين بالثناء والاعجاب، كما نجح مؤلف الكاتبة البريطانية ماري كريغ " الآني من بلد بعيد" في سيرة البابا المالك سعيداً يوحنا بولس الثاني. فما كدت افرغ من قراءته حتى بادرت الى ترجمته، راجياً أن تشمل فوائده العالم المقدمة المؤلف

ربي بعد أن عمت مختلف بلدان العالم.

يسرد هذا الكتاب سيرة كارول فويتيلا منذ مولده حتى انتخابه حبراً أعظم وتنصيبه، ولكنه يتخطى السرد ليربط سيرة البابا الجديد بأحداث بولونيا الوطنية والسياسية والاجتماعية، وعلاقتها بأحداث أوروبا والعالم.

وغني عن البيان أن بولونيا هي البلد الكاثوليكي المعذب، البلد الشهيد، عبر الحقبين الحديثة والمعاصرة من تاريخه، كأن العناية الالهية أرادته نموذجاً للصبر المسيحي، ومثالاً للإيمان الحي، الايمان الثابت المتفاعل في غمرة الطغيان والكبت والاضطهاد، الايمان الوطيد الذي لا يعنو، ولا يموت، ولا تقوى عليه قوات الجحيم.

وحفزتني على الترجمة اعتبارات عديدة اذكر منها:

1- إن انتخاب هذا البابا هو، بحد ذاته، ظاهرة فذة، وحدث تاريخي كبير، قد يكون منعطفاً مصيرياً للإنسانية جمعاء.

2- لو كان يوحنا بولس الثاني فرنسياً، أو اسبانياً، أو من بلد ما في الكتلة الغربية، لما كان انتخابه حدثاً ذا تأثير عالمي. إنما العبرة، كل العبرة، في كونه بولونياً، في كون بولونيا بلداً يدور في فلك الاتحاد السوفياتي نفيض روما وما تمثله روما.

3- انتخابه كان زلزلاً امتدت هزاته من يولونيا إلى البلدان المجاورة الماركسية الانتماء. وه زلزال ارتدت فيه الجماهير فجأة، بسرعة البرق الخاطف، من ماركسيتها الملحدة إلى تقواها الكاثوليكية المتشبثة بإيمانها المسيحي القديم.

4- يكاد يتبادر إلى ذهني أن اليقظة البولونية التي تشهد بوادرها هذه الأيام، لا تنبثق من النقابي الوطني ليس فاليسا بقدر ما تتفجر من يوحنا بولس الثاني.

5- إن ظل البابا البولوني الجالس في الفاتيكان يزاحم ظل ماركس المهيمن على بولونيا. وليس من المستبعد أن تمتد المنافسة بين الظلين إلى البقية الباقية من بلدان أوروبا الشرقية.

6- يعلمنا التاريخ ان سيرة ما نسميه " قيماً " ومنها الحرية والعدالة والحق قد تعرضت، عبر العصور، لكوارث ونكبات كادت تقضي عليها، فما نجت واستأنفت سيرها إلا بما يشبه الاعجوبة: ظهور قائد موهوب يبعث الثقة في النفوس، يقظة مفاجئة تجعلنا نتعجب من خنوعنا الماضي، تطويب قديس، انتخاب بابا، يذوع امل جديد من الغياهب.....

والتاريخ يعلمنا أيضاً ان الايمان قد ينتقلص، ولكنه لا يموت. يرقد تحت وطأة الضغط رقاد بعض القوارض في الشتاء ثم لا يلبث ان يهب واعيا نشيطا فعلا متعاقبا جريئا عند اول بادرة يقظة.

لهذه الاسباب ، آثراني سعيدا بان اقدم الى قراء العربية بهذه الترجمة ، فرصة اكتشاف شخصية كارول قويتيلا ، وبعض التأثيرات التي تضافرت لتعده اعدادا رائعا عبء البابوية ولتأدية رسالتها. واني لوائق بأن قراء هذه الترجمة سوف يتأثرون بهذه الشخصية الفذة ، ويقفون ، من خلالها على ابعاد ارتقائها الى السدة البطرسية ثم يتخذون قدوة من شعب بولونيا المتألم والصامد.

الخوري نبيل الحاج

مقدمة المؤلف

لم تمض ايام على انتخاب الكاردينال فويتيلا بابا، باسم وحننا بولس الثاني، وقبل تنصيبه بيومين، حتى ذهبت الى كواكوفيا. فقد كان على أن أضع فيه كتابا بأسرع وقت ممكن. " فحشوت " حقيبة سفري وبدأت رحلة في تعقب ما قد أجد.

" عن أي فويتيلا تريدني ان احدثك؟". بهذا السؤال جبهني صديق قديم للبابا الجديد، وهو أكثر من مغضب، ثم اكمل: افويتيلا الكاهن؟ أم فويتيلا الزعيم النسبي؟ افويتيلا الشاعر؟ الفيلسوف؟ الممثل المسرحي؟ الطالب المناضل؟ ام فويتيلا صديق الفقراء؟ حب الطبيعة؟ المتصوف والرياضي؟... قد يعوزني من أجل ذلك عدة اشهر... وعلى كل، من اين تريدني ان ابدأ؟".

ولكم تمنيت ان اطبل المكوث هناك... ومع هذا فقد تعلمت، في ايام معدودات، ما يكفيني لافهم ان كارول فويتيلا، البابا يوحننا بولس الثاني، ليس رجلا طيبا وقديسا فحسب بل كائنا بشريا خارقا ونادر الوجود.

أسبوع تاريخي

في تمام الساعة السادسة والدقيقة الثامنة من مساء الاثنين، الواقع فيه السادس عشر من تشرين الاول 1978، كان مئة الف شخص ينتظرون في باحة القديس بطرس، فشهدوا دخانا ابيض يتصاعد من مدخنة الكنيسة السيستينية. وكان قد مضى يومان على انتظارهم معرفة من سيخلف بابا الثلاثة والثلاثين يوما، البينو لوشيانى البابا يوحنا - بولس الاول.

وكان يسمع ضجيج احتياج ودوي تصفيق. ويحاول كل من المحتشدين الاقتراب قدر المستطاع من شرفة بازيليك القديس بطرس المركزية حيث ستعلن البشري.

بعد هذا بأقل من نصف ساعة شعت للأضواء في البهو الكبير وشوهدت النافذة الواقعة فوق الشرفة تفتح على مهل. فازداد التصفيق حدة. واطل الكاردينال بريكل فليشي ليعلن بصوت جهوري مفخم:

” ابشركم بفرح عظيم، صار عندنا بابا“ - وهي الصيغة التقليدية لإعلان انتخاب الباباوات. فعلت جلبة الجماهير معبرة عن ارتياحهم . ثم راحوا يغرمون تدريجيا في صمت المترقب.

وتمت الاجراءات المفروضة، وتبعتها الاشارة الاولى للأمر غير المتوقع فاذا الاسم كارولوم انه طبعا غير كارولوم كونفالونبييري عميد معهد الكرادلة الذي ناهز الخامسة والثمانين ان لم يكن هو، فمن يكون اذا كارولوم - كارلو هذا؟

لم تجتز افكارهم الحدود الايطالية. ثم سمع الاسم الصدمة الاسم الغريب الذي يصعب لفظه الاسم الذي قطع الانفاس والذي سيغير وجه البابوية في المستقبل المتوقع: " فويتيلا".

من ؟ CHHIE E؟ لا فكرة عنه لديهم لكن لا بد انه احد الكرادلة ؟ فأمسكوا عن الهتاف ثوان معدودات. أياكون فياتناميا ؟ افريقيا ؟ سلافيا؟ وبيننا هم يتجذرون هكذا اكمل فيليشي باللاتينية : " وقد اتخذ له اسم يوحنا - بولس الانبي".

فتفجر هتاف الجماهير اذ ذاك، مع انهم كانوا لا يزاولون مشدوهين، لكن فرحين لان البابا الجديد- ايا كانت هويته - قد اتخذ اسم سلفه الوديع الذي غاب فجأة وبعد ملك قصير جدا. وبينما هم يتابعون الهتاف، خرجوا من دهشتهم وبدأوا يفتشون عن العدد الخاص لجريدة الفاتيكان الاوسرفاتوري رومانو، وفيه صر جميع الكرادلة الذين دخلوا المجمع لانتخاب خليفة للقديس بطرس.

وعلت الصرخات بعجل : " ها هو ؟: انه البولوني".

وكما عبرت مجلة التايم بحق فيما عن ان : " ما فعله الكرادلة لم يكف فقط في الحسبان بل لم يخطر على بال". فقد خرجوا على التقليد بعد اربعمائة وخمسين سنة من الباباوات الايطاليين، وظهروا من الحنكة والشجاعة ما تعدى انتظار الناس. اختاروا البابا البولوني الاول على الكنيسة الرمانية الكاثوليكية. وعلاوة على ذلك فهو، منذ اكثر من قرن اصغر الباباوات سنا - دخل الثامنة والخمسين - وامكاناته المستقبلية حبلي بالمواعيد.

والان ها و الكارينال فويتيلا الكراكوفي وفي اصبح البابا يوحنا -بولس الثاني يظهر على الشرفة في الساعة السابعة والدقيقة الثانية والعشرين.

والجماهير التي لا شك انها رآته مرات عديدة يحتاز يخطي واسعة شوارع روما تشهده الان للمرة الاولى متبينة عينيه الصافيتين المرحتين، ووجهه السلافي ذا القسمات الصخرية والوجنتين العريضتين، الوجه الذي ينضح قوة مطمئنة ويرسم مع ذلك ملامح ماض معذب.

كان جمهور ينتظر من البابا البركة التقليدية " الى المدينة والعالم" باللاتينية. لكنه عوضا عن ذلك خرق البروتوكول ولشد ما كانت عثرة العديد من رسمي الفاتيكان المحيطين به (وخاطبهم بصوته المدوي بالإيطالية بطلاقة ونبرة فيها جهد فكسب للحال قلوبه.

هكذا بدأ كلامه؟ : " فليكن يسوع المسيح مباركاً. فرددت الجماهير بصوت واحد: " فليكن مباركاً إلى الأبد" واكمل الصوت الحازم منادياً:

" أيها الأخوة والأخوات الاحباء. لا نزال حراني لوفاة البابا المحبوب يوحنا- بولس الأول. وقد كان على الكرادلة ان ينتخبوا اسقفاً جديداً لروما.

فأتوا به من بلد بعيد، ولكن لجل شركتنا مع تقاليد الكنيسة فهو قريب كنت خائفاً من تحمل هذه المسؤولية وها أنا اتحملها بروح الانصياع للرب والولاء التام لمريم امنا الكلية القداسة".

هنا حاول أحد الرسميين، وقد راعه استعمال اللغة العامية ان يوق البابا مترجياً "يكفي".

لكن فويتيليا أكمل بصوت يهدجه التأثر، فربح الجماهير كلياً:

" لا أدري هل كنت احسن التعبير كفاية بلغتكم، بل بلغتن الايطالية فإذا أخطأت فما عليكم إلا ان تصحوا أخطائي".

تلك كانت ايماءة للجماهير تلقفوها وأحبوه لأجلها.

لقد كان التصفيق الذي انفجر بعد منح البركة صاحباً وقد قيل بعد ذلك انهم صفقوا له أكثر مما لو كان ايطالياً.

قالت سيدة في الساحة : " صحيح أنه احبني ولكنه يتكلم لغتنا".

وقال سائق تكسي : " لماذا لا يكون بابا اجنبي؟ ولا ننس ان القديس بطرس كان أجنبياً".

في هذه الاثناء، وعلى بعد حوالي الف وخمسمئة كيلومتر كانت ردة الفعل الاولى في الثانية تفجراً وابتهاجا. كثيرون من الذين سمعوا الخبر من الاذاعة ظنوا انهم سمعوا الاسم فعمدوا الى أجهزة التلفزيون يبدلون فيها الاقنية ليتقنوا صحة الخبر.

في دقائق كانت الوف التليفونات ترندون توقف اذ راح الكراكوفيون يتصلون بالأقارب والأبعد عل السواء وكأنهم جنوا: " هل سمعت؟ صار فويتيلا بابا!".

ولعجلتهم ما كانوا يعبرون أي اهتمام للتعريف بأنفسهم بل ينتقلون لطلب رقم آخر. وكالنار الملتهبة انتشر الخبر في قطارات كراكوفيا البطيئة وفي مطاعمها ومحلاتها التي تفتح ليلاً وفي دور السينما والكنايس وعلى طول الطرقات.

وإذ بدأ الناس يتدفقون الى الشوارع جماهير وبتجهون منها إلى ساحة السوق مبتسمين، ضاحكين هازجين صائحين راحوا يعانقون كل من يلقونه قائلين : " هذا غير ممكن، أمر لا يصدق" أو " هل أنتم متأكدون من صحة الخبر؟"

وقالت طالبة لاحد مرسلي الاذاعة البريطانية : " كنا في بهو الجناح الذي يعتبر من أكبر قاعات الجامعة. وعندما أذاعت مكبرات الصوت نبأ انتخاب الكاردينال بابا، تفجرت جلبة من الفرح

اهترت لها الجدران". وقد أظهر طلاب آخرون ماركسيون وكاثوليكيون على السواء اصداء ما أثاره الخبر في داخلهم.

فقال أحدهم : " عندما انه انتخب بابا داخلني فرح عظيم جعلني اسرع الى الشارع. فالتقيت صديقا فتعانقنا وكان شعورنا شبيها بشيء من استعادة الكرامة. وكان الناس يبدون رافعي الرؤوس فخورين".

وقال آخر: " كان بعض الناس يبكون ، مع ما هم عليه من سعادة ويختفون للبابا ولبولونيا".

وكانت تسمع اصوات مثل : " ان فويتيلا حقا لشخصية مرموفة " أو " هذا لا يصدق " او " ماذا سنعمل بدونه؟"

في العاشرة من تلك الليلة اقيم قداس في كنيسة القديسة مريم (الماريافي وفيها المذبح ذو الشهرة العالمية مع رسمه المثلث الالواح من تصميم وبت ستوسن) وفي منتصف الليل اقيم قداس في الكاتدرائية التي غصت بالمشاركين.

وتجدر الاشارة هنا الى انه حيثما كنت في كراكوفيا يقع نظرك على كنيسة ومن ساحة السوق يمكنك ان تري حوالي ست كنائس في مسافة لا تتعدى المئة متر.

فرع الزيغموتت - اكبر جرس في بولونيا - من داخل الكاتدرائية داعيا اهالي كواكوفيا الى تقديم الشكر ، فتقاطروا الى الكنائس افواجا وقد شعر معظمهم بحاجة الى الصلاة.

وتدفقت اكثرية الطلاب لاي كنيسة القديسة حنة الخاصة بهم والت تقفل ابوابها عادة في التاسعة ليلا لكنها هذا الاثنين بقيت مفتوحة طوال الليل. فأقيم فيها ايضا قداس عن منتصف الليل وغصت بالحضور حتى الابواب كما في ليلة الميلاد. وشهدت طالبة فقالت: " كان الحاضرون في غاية الانتباه

وكان الصمت عميقا عند تلاوة القراءات من الكتاب المقدس . والترانيم انشدت بقوة فاقت المعتد.
ولاحظت التأثير على جميع الوجوه، فمنهم من بكى ومنهم من ضحك ان البولونيين شعب عاطفي.

م يأو الى سريرته تلك الليلة. فالشبان والشيوخ بقوا في " الريناك غلوني"؟. ساحة السوق التاريخية التي يصفها بعضهم بأنها اجمل ساحة في اوروبا مع السوكيانس وهي سوق الثياب الفاتنة الساحرة التي يعود بناؤها الى العهد الوسيط مع الكنائس الرائعة نوات الهندسة الغوطية والنهضوية المحيطة بها والتي يسميها اهل كراكوفيا " قاعة الاستقبال" وهي في بحر النهار متوهجة بسوق الازهار تزيدها رفوق الحمام جمالاً وسحراً فيما يتجمع الاهالي زرافات تحت قناطر السوكيانس. وفي تلك الليلة كانت الساحة منورة وبقي الناس يترنحون فيها ويهتاجون حتى الصباح مرتجلين الخطب المؤثرة منشدين الترانيم الدينية والأغاني الوطنية

أما الطلاب فشقوا الأقمشة طويلة ضيقة متموجة كعلم خفاق واختاروا اللونين الفاتيكانيين الاصفر والابيض واللونين البولونيين الوطنيين الاحمر والابيض. فنجحوا في صنع علمين من القياس الكبير بالألوان ذاتها فكسوا بالأول تمثال ميكيافيتش شاعر بولونيا الوطني الكبير، القائم في ساحة السوق، وحملوا الثاني باحتفال لأى شارع براكا عبر شارع الفرنسيسكان حيث رفعوه قبالة مقر كاردينالهم السابق. فامتزجت المرارة بالحلاوة في هذه اللحظة بالذات أكثر منها في أية لحظة أخرى.

* * * * *

في فرصيا، عصر ذاك النهار، كان كازيميرز كاكول الوزير البولوني لشؤون الكنيسة، المعروف بقله حماسته لها، يناقش فريقاً من الصحافيين الزائرين في موضوع مجمع الكرادلة. فاعرب عن أمله ان يتابع البابا الجديد أيا كان سياسة التقارب التي انتهجا البابا بولس السادس مع البلدان الشيوعية تلك السياسة التي عكرت صفاء أكثر من كادرينال.

كانت المحادثة مريحة، قال اثناءها الوزير مازحاً: " إذا صادف واختار الكرادلة بابا بولونياً فأنا أقدم لكم الشمبانيا". وعم الضحك.. ولكن لم تمض عشر دقائق حتى كان كاكول يسكب الشمبانيا لضيوفه.

في كل مكان من فرصيا قرعت الاجراس وأنشدت أناشيد الشكر وفاض الفرح.

وقد وصف مهندس بولوني تلك اللحظة قائلاً: " أحسنا كأن قلوبنا توقفت لحظة عن النبض".

في الساعة السابعة والنصف اذيع النبا اقتصاب واحتراس في نشرة الاخبار التلفزيونية. وكانت قبل ذلك المكالمات الهاتفية قد انصب على استوديوهات التلفزيون معبرة عن احتجاجاتها.

وفي النشرة التالية للإخبار كان الانتخاب الموضوع الاساسي واستمر الحديث عنه عشر دقائق.

اما ردة الفعل الرسمية خرساء ينتابها تترجح بين العجب والرعب (وفي موسكو وسائر عواصم الجبهة الشيوعية كانت ردة الفعل فاترة جداً. فمعظمهم طمس الخبر ساعات عديدة وعندما اعلنوه كان ذلك بإيجاز ولا تعليق)...

وحال تلقي الخر، عقد المكتب السياسي للحزب في فرصيا، اجتماعاً طارئاً أدى إلى توجيه برقية ودية الى البابا الجديد وقعها رئيس جمهورية الشعب البولوني السيد هنري جبلنسكي رئيس الوزراء السيد بيوتر جاروزيفيتش والرجل الأهم من الاثنيين زعيم الحزب السيد ادوار غيرتك. وهذا نص البرقية:

" القرار الهام الذي اتخذه مجمع الكرادلة سبب ارتياحاً كبيراً في بولونيا.

فعلى العرش البابوي يجلس للمرة الاولى في التاريخ ابن الأمة البولونية. أنها لأمه تندفع الى التعاون والصدقة بين جميع الشعوب أمه ساهمت مساهمة واضحة في انماء الثقافة الانسانية.

اننا مقتنعون بأن نمو العلاقات، الى اقصى حد، بين جمهورية الشعب البولوني والكرسي الرسولي سيؤدي الى متابعة هذه المهمات ذوات الشأن".

وفي الوقت ذاته بدت لحكومة متجهة نحو ابتهاج سياسة العطاء والأخذ: العطاء بيد، والأخذ باليد الأخرى فقد اصدرت توجيهات الى هيئة الرقابة الصحافية في الحزب بأل تتسع صورة البابا على أكثر من عمود واحد والعناوين المتعلقة به على أكثر من عمودين.

وقد صدرت الصحف صباح الثلاثاء حذرة معبرة عن الشك الذي ينتاب اربابها، ولكنها أيضاً متفائلة، معبرة عن الآمال في متابعة إبة الجليد عن العلاقات مع الفاتيكان.

فنشرت صحيفة "الحياة الفرصوية" اليومية صورة للكادرينال السابق قياساً عادياً مع تعليق ضعيف مؤداه ان الانتخاب استقبل "باهتمام بين"...

ونقلا صحيفة الشيوعيين "منبر الشب" رسالة من روما وتصريحاً موجزاً لناطق باسم الحكومة لا تورط فيه، بل أحجام قطن عن التعليق ثم ما لبث حياء البدء ان تحول خلال الاسبوع حماسة معتدلة.

أما الصحف الكاثوليكية، الحقيقية منها والمزعومة فحققت نجاحاً افضل. فالصفحة الاولى من جريدة "العالم اجمع" الصادرة عن " فرقة السلام" المعروفة بتبعيتها للحكومة (ياتقي الشعب والسلطة على عدم الثقة بها)

نقلت وصفاً مفصلاً للانتخاب، ونص بعض خطب الاب القدس وصوراً للبابا مع الكردينال فيشنسكي. فنفذت هذه الطبعة في السابعة من صباح اليوم التالي وأبدي الناس استعدادهم لدفع اضعاف ثمنها العادي.

أما صحيفة " تيغودنيك بوشسني " الكاثوليكية الاسبوعية (وهي تصدر في كراكوفيا بدعم فويتيلا وتأبيده) فكانت أقل حظاً، إذ توسل ناشرها إلى المسؤولين ليعطوه ضعف ما يعطي عادة من الورق للاحتفال بهذه المناسبة الفريدة(لأن الرقابة على ورق محصورة بالدولة) بدون ان يستجاب له. وبعد مداولة مع اللجنة المركزية في قارصوفيا، وصفتها جريدة التايمس بأنها كانت طويلة صاخية مبكية انتزع الناشر المذكور إذناً بالحصول على خمسة عشر الف نسخة علاوة على الاربعين ألفاً العادية) حذفت الرقابة جملة وصورة) وكان النفاذ السريع متوقفاً فارتفع ثمن نسخ هذه الطبعة كثيراً فعرضت في بعض القرى على زجاج النوافذ وألصقت على حيطان الكنائس ومراكز البلديات. وقد روي أن نسخها كانت تنتقل من يد إلى يد بأسعار خيالية(ثلاثمئة زلوتي عوضاً عن ستة)!. .

على أنه، وان تكن الحكومة لم تشجع حماسة الأمة، فقد صدر عنها تنازلاًن مهمان لم يسبق لهما مثيل(لو لم للجأ الشعب الى الشغب): فقد أعطي أكثر من الفي تأشيرته لمن يرغب في الذهاب الى روما لحضور حفلة التنصيب، ووعدت بنقل هذه الحفلة مباشرة من روما بالتليفزيون وفي الوقت ذاته رفعت اكلا السفر، لصد الراغبين فيه فبلغت أجر ثلاثة اشهر للشخص الواحد) ورفضت التاشره لثلاثة مفكرين مشهورين أدهم صديق البابا الشخصي.....

ومع ذلك اعترف الجميع بالجهود الجبارة التي بذلت لإعطاء التأشيرات وتسهيل ترتيبات السفر .

لقد نعم كاثوليكيو بولونيا حقاً بتأبيد الحكومة الاستثنائي (العابر ولا شك)!

ألم يكن السيد جابلونسكي رئيس الدولة والسيد كاكول في عداد المسافرين الى روما لحضور تنصيب "ابن بولونا" على كرسي بطرس؟

* * * * *

يوم الثلاثاء 17 تشرين الاول، على تلة وافيل في كراكوفيا كانت الاستعدادات تجري على قدم وساق لاقامة شكر مسائي في باحة الكاتدرائية ذات الهندسة الغوطية والباروكية حيث توج اربعون ملكاً ودفنوا وحيث على المذبح الرئيسي أقام الكاردينال فويتيلا في الثامن والعشرين من ايلول قداساً احتفالياً بالذكرى العشرين لأسقفيته على كراكوفيا. كان ذلك قبل زهابه بقليل الى روما لحضور مجمع الكرالة الحاسم الذي لم يعد بعده فويتيلا كاردينال كراكوفيا بل اسقف روما.

كان من المتوقع ان تتدفق حشود ضخمة لا تتسع لها الكاتدرائية من هنا كان العمل على اقامة مذبح كبير في الساحة واعداد مكبرات الصوت. فما اقترب المغيب حتى كان العمال يضعون اللمسات الأخيرة على ما أعدوا.

وكان المنظمون ان السلطات ستسمح بالإعلان عن هذا الحدث عبر الاذاعة. ولكنها عادت من جديد تلعب لعبة القوة ونرفض. فأصبحت الدعاوة شفوية واعلاناً خط باليد وعلق على مكاتب المحكمة في المقر الاسقفي شارع الفرنسييسكان.

وعرف الجميع، أو شعروا بأنه سيقام قداس. وكأن كراكوفيا كلها، ذاك المساء تسلفت التل الى الكاتدرائية العظيمة. فاتخاذ القرار بإقامة القداس في الهواء الطلق كان له ما يبرره. " ولما بلغ الاحتفال أوجه، لم يعد يرى في الساحة مساحة فارغة بل رؤوس متراسة، رؤوس الرجال والنساء والاطفال على الاكتاف تمتد في الظلام من الطرقات المؤدبة صعوداً الى الكاتدرائية... وعند ختام

الاحتفال بدأ الوف ينشدون عفويًا ما تعودوا انشاده كل صباح في تشيشوشوفا (المزار المريمي الوطني)
حيث عرض تمثال السيدة السوداء للمؤمنين. فجددوا تضرعاتهم الى الله كي يبقي بولونيا

* * * * *

1- Baroque: متسم بأسلوب في التعبير الفني ساه في القرن السابع عشر بخاصة، وهو يتميز على الجملة بدقة الزخرفة وغرابتها أحياناً، وباصطناع الاشكال المنحرفة أو الملتوية (المترجم).
حرة وفي هذه المناسبة شعروا انه تعالى اختار احب انسان في بولونيا ذبيحة له.
فقدم اهالي كراكوفيا في تلك كرينالهم ذبيحة لله”

لا ريب ان كارول فويتيال المقيم نهائياً في الفاتيكان كان عميق الادراك للذبيحة التي عليه ان يقدمها. وقد رؤي انه، في تلك الليلة، قبل دخوله مجمع الكرادلة الانتخابي، طلب الى صديقين ان يحجزا له مكاناً في أول طائرة عائدة الى كراكوفيا بعد الانتخاب. اذ لم تعد عودته ممكنة وبعد انتخابه اتصل هاتفياً بمقره في كراكوفيا. فتحلق حوالى العشرة من معاونيه السابقين حول سماعة الهاتف فسأل:

” كيف الحال في كراكوفيا؟ ماذا تعملون جميعاً؟“.

فكان الجواب : ” نغرق في البكاء“

فقال البابا اجديد : ” تعالوا اذاً الى روما وسنذرف الدمع معاً“.

وفي الصباح التالي قال احد الكرادلة في الكنيسة السيستينية لفيشنسكي رئيس الكنيسة البولونية القوي المسن : ” سيكون ليوم في بلدكم ابتهاج عظيم. إلا تظن ذلك؟“.

” بل، أجب الكاردينال الشيخ، ولكن لن يكون ابتهاج في نفس فويتيل“.

بعد ذاك الانفجار الفرحة، في كراكوفيا، ذاك الابتهاج، بدأ الشعور بالخسران يفرض نفسه. قالت امرأة معبرة عن شعور الكثيرين: ” نشعر بفخر كبير وفرح عظيم، وفي الوقت ذاته بحزن عميق لأننا نحبه ولأننا نعرف انه ارتحل عنا“.

وقال طالب : ” علينا ان نكف عنه منذ الآن. كان صديقنا ولكنه ذهب الآن ليصير صديق العالم اجمع. أننا ولا شك فخورين بتقديمنا اياه، ولكننا أيضاً حزاني. أو يمكننا ألا نحزن؟“.

وسمعت امرأة صدفة تقول في القطار : ” ارتحل عنا ولكنه سيبقى في قلوبنا“.

وقال طبيب يعرف فويتيلا معرفته لنفسه :
" لا ننس انه بولوني. والبولونيون في هجرتهم يحنون ابدًا إلى وطنهم وخاصة الى مسقط رأسهم.
وفويتيلا واحد منهم. سيكون الطريق الذين سيسلكه طويلًا وقربانًا، ولكن، لا هم، فحيث سيكون
سيبقى جزءًا من بولونيا".

2- من تعليق لبيتير فرانس في برنامج البريطاني " لكل انسان فيلم" بموضوع " كيف الحال في كراكوفيا" في 1978/10/22

كونوا معي على الجبل الأبيض

مع نهاية الاسبوع، كان الكراكوفيون قد ألقوا الصدمة تقريباً. أجل تقريباً وقد اعترف احدهم فقال : " هذا أمر لا اعرف كيف التغلب عليه ، أني مرتبك".

أما مشهد الصحافيين العجيب، يجوبون المدينة أفواجاً وينقضون على المارة لسماع تعليقاتهم العفوية. فمشهد فقد قدرته على اثاره الدهشة، وكان معظم الناس قد سئموا الصحافيين ولمصورين، وأصبح بعضهم يستاء من إلفتهم.

واتفق ان قرع صحافيون باب السيدة التي كانت تهتم بإدارة الكرسي الاسقي ليسألوها عن المأكولات المفضلة لدى قداسته، وعن ذوقه في الجوارب، فثار ثائرها وأجابت : " إنه رجل طيب وقديس وليس لدي ما اضيفه" قالت ذلك بحزم وأقفلت الباب في وجه أولئك الساعين وراء كل مثير....

وفي فادوفيس مسقط رأس البابا، راجب اشاعة مفادها ان خوري الرعية ومعلم المدرسة فيها يجلسان وعلى رأسيهما أكياس من الثلج كي ييشفيا من آثار هجوم مندوبي الصحافة عليهما في الاسبوع الفائت.

ويوم السبت ظهراً بدت كراكوفيا شبه مهجورة. فمعظم الصحافيين غادروها، واستقل خمسمئة من مواطنيها ثلاث طائرات الى فارصوفيا كمرحلة أولى لسفرهم الى روما. وكان كثيراً منهم قد تسلم دعوات شخصية من البابا، بينهم مائتا طالب أعلموا بأن عليهم الحضور الى ساحة القديس بطرس عند الساعة التاسعة من صباح الاحد" كي تنشد معاً أناشيد بولونية".

صباح الأحد، برغم الرذاذ والبرد القارس، كانت الاعلام الفاتيكانية والبولونية تحفق وتزيد بألوانها حيثوية النصر وبهجته. فإذا كراكوفيا تنبض حياة، ولما تحن السادسة صباحاً بعد فتنفذ الازهار

بسرعة لدى الباعة في ساحة السوق، بينما يسرع الناس للاشتراك في القداس الول، مطاطي الرؤوس اتقاء للمطر. اما النساء والاطفال فكانوا يمسكون بأيديه باقات كبيرة من القرنفل والاقحوان والقطيفة حزمت بأشرطة صفراء وبيضاء.

وغصت كنيسة الماريامي العظيمة ذات القبتين، بالمصلين. وإذ كان عدد المشتركين بالمناولة كبيراً، اتصل قداس السادسة بقداس السابعة، وعضواً عن العظة، قرأ الكاهن رسالة رعوية من اساقفة كراكوفيا يطلبون فيها الصلاة من أجل يوحنا بولس الثاني" الذي انتقل من كرسي ستانسلاوس إلى كرسي بطرس"، ويعلنون أنه سيقام قداس يومي على نيته في كاتدرائية وافيل.

وعلى مقربة من هذه الكنيسة الفرنسييسكان العتيقة، حيث اعتاد الكاردينال فويتيليا اقامة القداس والاحتفال بدرب الصليب في غالب الأحيان.(هذا ولا تسل عن عدد الكناس في كراكوفيا، فإن فعلت كان الجواب: لا نعرف. الروح القدس وحده يعرف هناك على وجه التخمين ما يفوق الخمسين). وهذه الكنيسة أيضاً ، كسائر كنائس كراكوفيا كانت تعج بالمصلين، وهي مزينة بالسناثر الصفراء والبيضاء ولا تتوقف الحركة فيها جيئة وذهاباً.

واتفق ان وصلنا مع فريق من المبتدئين في الرهبانية الفرنسييسكانية تجمهروا دفعة واحدة حول الخوري، يلبس الواحد كنزة منقوبه بالعث بادية تحت ثوبه الرهباني، والآخر يحمل بيده فلنوسة من الفرو قديمة، وآخر يكشف عن بضعة سنتمترات من بنطلونه الجينز الازرق الناسل.. أنها الثامنة صباحاً والهباج في ازدياد.

وعند التاسعة، أخذ الكهنة يعجلون في قداديسهم وعدد المشتركين يتضاءل باستمرار حتى بدأت الشوارع تفرغ. فلم يمض غير القليل حتى كانت كراكوفيا كلها مسمرة أمام شاشات التلفزيون لنشاهد أول قداس متلفز من شبكة محطات التلفزيون البولوني، مع انه لم يكن قد مضى زمن طويل بعد على صراع الكاردينال فويتيليا مع الحكومة ، لرفضها السماح للكنيسة باستعمال وسائل الاعلام

والسماح بنقل وقائع قداس الاحد، على الأقل، خدمة للمرضى ولمسنين. إما الآن فقد انقلبت الآية وخرق العادة سيتم بقداس فويتيلا الخاص.

طلب فويتيلا ان يكون موعد الاحتفال في العاشرة صباحاً لا في وقت متأخر، ليتسنى لهواة كرة القدم من الايطاليين مشاهدة المباراة المتلفزة بعد الظهر.

مساكين هم الكهنة البولونيون، فإنه محكوم عليهم بإقامة القداس في العاشرة من صباح ذلك اليوم ! كانت العادة ان تمتلئ الكنائس في مثل هذه الساعة، أما اليوم فعدد المقدسين في الكاتدرائية لا يتعدى الخمسين، وربما كان اقل في الكنائس الأخرى، وكذلك في جميع انحاء بولونيا.

وكم كتب ايف دي سانت انباس في الباري ماتش : " مذهل يوحنا بولس الثاني كيف تدبر الامر في اليوم الاول من ملكه لإفراغ كنائس بولونيا في الساعة العاشرة من يوم احد، موعد القداديس الاحتفالية. غريب سخر القدر، فقد حقق ما لم تحققه ثلاث وثلاثون سنة من الحكم التوتاليتاري، الاضطهاد، والمضايقات البوليسية المستمرة".

للوصول الى الشقة التي كنا نقيم في كراكوفيا (علماً أنني أتيت من انكلترا بصحبة صديقة تتكلم البولونية) لم يكن ثمة بد من صعود ثمان وثمانين درجة.

ولم يكن في البناية مصعد ولا جهاز تليفزيون. كان ذلك من حسن حظنا إذ تحتم علينا النزول الى الشوارع للبحث عن جهاز... في مقهى ما أو في نزل....

فاستوقفنا راهبة مسرعة نستدل منها على جهاز تليفزيون. فهي في فرصوفا لكنها مثلنا لا تعرف الطريق، إلا أنها سمعت ان ثمة جهازاً تلفزيونياً في الدوم تورستي وهو كناية عن نزل تدبره الحكومة ويقدم الطعام لركاب الاوتوبيسات الآتين من كل نواحي بولونيا والمعسكر الشيوعي.

في مكان كهذا، لن يكون الجو دينياً وربما كان لهذا الأمر معناه. لقد وقفنا على شعور الكاثوليكيين في

شوارع كراكوفيا، فما الشعور هنا؟

كنا طوال الطريق المؤدبة الى دوم تورستي نركض نصطدم بعيال كاملة مستعجلة مثلنا في طريقها الى منازل اصدقائها حيث أجهزة للتلفزيون تحمل معها زادها في أكياس كبيرة من ورق. ما إن وصلنا حتى خلنا انفسنا آخر شعوب الارض. فالمدينة في الخارج مدينة أشباح وفي داخل النزل كان الناس على شيء من الاحتراس. فهل عنده جهاز تليفزيوني؟ لا يظنون ذلك

ولكن خادماً مر من هناك ولاحظ ارتباكنا، فهمس في أذن احدنا ان ثمة جهازاً في الطابق الرابع، وما علنا الا الصعود اليه. فصعدنا ووجدنا في اعلى قرص الدرج جهازاً كبيراً (اسود وابيض) محفوظاً ضمن صندوق زجاجي محكم الاثبات في الحائط وقد احتلت الكراسي هناك، ولم يبق سوى امكنة للوقوف، فمن كان أوفر حظاً من سواه كان له الحائط مستنداً.

وكان الاحتفال في روما قد بدأ، صورة التلفزيون باهتة وصوت المعلق غير مسموع. فذهب احدنا يشكو الامر وعاد برفقة موظفة قوية البنية تحمل حزمة كبيرة من المفاتيح. فجربتها جميعها قبل أن تجد مفتاح الصندوق الزجاجي المحفوظ فيه الجهاز وضبطت الصورة والصوت، فتحسن الوضع....

رغم قعقة المصعد ودمدمته ف صعوده وهبوطه غير المنقطع ورغم خشخشة المفاتيح يحدثها جيش من عمال التنظيفات في طابقنا، وصفقهم للأبواب وجرهم المكناس الكهربائية الضخمة. بكلمة ساد تنافر في النغم كبير.

لكن المشاهدين لم يعبروه سمعهم. وما خلا هذا الضجيج فقد كان الصمت محيماً. ولم يبد على وجوه الحاضرين حتى الساعة أي تأثر.

ولما حان الوقت الذي يؤدي فيه الكرادلة الخضوع للبابا الجديد، كان أول المتقدمين الكاردينال فيشنسكي المواطن البولوني الكهل الذي لا يقهر، والذي كان لأسبوع خلا رئيس فويتيللا بصفته رئيس الكنيسة البولونية فجثا هذا الشيخ مقدماً خضوعه، مستعداً ليقبل ليس فقط بدي الحبر الاعظم بل

وقدميه ايضاً ولكن فويتيلاً عمل برشاقة على احباط مسعاه فشده اليه برفق وعانقه ثلاث مرات على الطريقة البولونية ثم قبل يده.

في دوم تورستي انفجر الجو فجأة فالحضور اصبحوا كأنهم في سعال وشهيق. وراحوا يحركون الكراسي من مكان إلى آخر في محاولة يائسة لتجاوز تأثرهم العميق. والذي كانوا واقفين الى جانبي رفعوا انظارهم إلى عل ثم راحوا يمسحون الدموع بأصابعه....

لم ينخفض ضغط التثر الا بعد ما مال البابا بأصبعه بحركة بدت كأنها تحذيرية الى بنغيش كاردينال برلين. فضحكوا إذ لم يمض زمن طويل على العهد الذي ذاق فيه البولونيون مر العاب على ايدي الالمان.

صحيح ان المصالحة تمت بينهم منذ زمن، ولكن لم لا يسجلون نقطة أتت عرضاً ضد عدوهم السابق، ضحكوا. وضحكوا أيضاً عندما قال المذيع البولوني الذي لم يبد ماهرأ في حفظ الاسماء معلقاً بلهجة شوفينية: " هذا هو البابا البولوني، ومعنا هنا كاردينال الماني".

استغرق استقبال البابا للكرادلة سعة. وقد علقت مجلة " الزمان" الايطالية على ذلك فكتبت: " لم يكن ذلك تأدية خضوع بل فرصة للتحدث مئة وسبع عشرة محادثة " ومه انتهاء موكب الكردالة الطويل بدأ يوحنا بولس عظته.

وفي دوم تورستي كان المشاهدون قد خلعوا احذيتهم واشتدت وطأة الحر لكن مع ذلك ملك الباب انتباههم. ولم يبق في لمكان رجل أو امرأة أو صبي لم يفهم ان البابا الجديد كان يرمي إلى أكثر من التذكير بكلام الكتاب المقدس حين قال:

"اليوم يبدأ اسقف روما الجديد بصورة رسمية خدمته ورسالته بطرس. فإن بطرس اكمل في الواقع المهمة التي عهد بها اليه السيد اذ قال له: " كنت وانت شاب. تشد المنطقة بيديك، وتذهب الى

حيث تشاء فإذا صرت شيخاً بسطت يديك، وشد غيرك لك المنطقة وذهب بك إلى حيث لا تشاء”
يوحنا 18/21).

أتى بطرس روما فلم يهده إلى قلب الامبراطورية ويقده اليها سوى الطاعة لإرادة الرب. ربما لم يرغب صياد الجليل في المجيء بل أثر البقاء هناك، على شواطئ جناسرتمع سفينته وشباكه. لكنه اتى الى هنا بهدي من الرب وانصياعاً منه لمشيئته في اثناء الاضطهاد النيروني. هذا ما نقله الينا التقليد القديم) قد وصفه لنا هنريك سيانكيافيتش في روايته الشهيرة وصفاً رائعاً) وعندما خاف الاضطهاد غادرها لكن المسيح تراءى له في خارج المدينة فسأله بطرس: إلى أين انت ذاهب يا سيد؟ فأجابه حالاً: “ اذهب الى روما لصلب من جديد”.

ومع أنه أكمل مؤكداً انه، برغم كونه ابن بولونيا، فقد أصبح الآن رومانياً فهم جميع البولونيين في العالم إنه كان حزيناً.

ثم ذكر العالم ان كنيسة بولونيا بقيت أبداً وفيه العهد لروما) وهذا واقع نسيه العالم الغرب أو جهله) أما البولونيون الذين كانوا يستمعون اليه سواء في ساحة القديس بطرس أو في كراكوفيا أو فارصوفيا أو لوبلن او غدنسك أو بوزنان، فالرسالة الحقيقية وصلتهم منه في آخر عظته عندما خاطبهم مباشرة بالبولونية، إذ ذاك لم يعد بالإمكان التماسك عن الادماع فقال:

” أما أنتم يا مواطني الاعزاء، فما عساني اقول لكم؟ كل ما يمكنني قوله يفقد محتواه اذا قيس بما يخالج قلبي وقلوبكم في هذه اللحظة اذن فلندع الكلام جانباً. ولنقف بصمت أمام الله بصمت عظيم يتحول إلى تضرع. وأسألکم قائلاً: ” ابقوا معي على الجبل الأبيض وفي كل مكان”.

كان يقصد بكلامه جسناغورا، الجبل الابيض حيث يشمخ دير نشيسوشوقا، رمز بولونيا وقلبها لنابض، وفيه ايقونة العذراء السوداء الشهيرة.

وهناك يتعانق الايمان والوطنية ويندمج الاريخان الكنسي والوطني.

ففي عام 1655، اجتاح شارل غوستاف السويدي بولونيا بجيشه المتميز بتدريبه، واضطر الملك يوحنا كازيمير الى الفرار فقد كان العدو قوياً لا تقاوم حافلة. غير أن مقاومة جريئة وبطولية بزعت للدفاع عن معبد تشيستوشوفا قوامها قروبون وابناء مدن ونبلاء. ونذر يوحنا كازيمير نذراً انه في حال عودة السلام سيعمل على تحرير شعبه من المظالم والاعباء التي كانت ترهق كاهله.

وبالفعل انسحبت الجيوش السويدية بعد ذلك بقليل وقبل عيد الميلاد قيل ان بولونيا استفاقت إثر ذلك واستعدت هويتها كأمة فعاد الملك إلى بلاده. وفي الاول من نيسان، بحضور الآلاف في لوف، أعلن العذراء المباركة ملكة على بولونيا. وهكذا فإن الجبل الابيض رمز ساطع وقد قبل عن دير تشيستوشوفا: " إنه روح بولونيا". وأكمل البابا مستشهداً بالشاعر آدم ميكيافيش:

" ابقوا دائماً مع البابا الذي يصلي اليوم بكلمات الشاعر: ايتها العذراء القديسة، انت التي تحمين دير تشيستوشوفا الوضاء، وأنت التي تسطعين في اوستروبراما".

اذ ذاك ظن العالم أنهم سمعوا شعراً تقوياً لا قيمة له كتبه شاعر مغمور. ولكن الحقيقة هي غي ذلك لأن ميكيافيش هو أحد ابطال القرن الماضي وشاعر كبير، واوستروبراما (البوابة المسننة) مزار للعذراء شهير في ولنو التي وان تكن اليوم تعتبر جزءاً من ليتوانيا الخاضعة للروس، فقد كانت في السابق جزءاً من بولونيا. تعلم البولونيون عبر العصور وتحت الاحتلال الاجنبي ، ان يتحدثوا بحذر واكتسبوا براعة مدهشة في التكلم بلغة الشيفرة والقراءة بين السطور. " فقد فهم الرسالة، بحسب جريدة " الزمن" الايطالية، من كان عليه أن يفهمهما".

وقد ذكرت الصحف الايطالية وغيرها، فيما بعد أن الرقابة في بولونيا مدت يدها الى هذه الكلمات. ذلك لم يكن صحيحاً. فالكلمات سمعت، والمناديل أخرجت من الجيوب وبقيت خارجها ! إذ ذاك أكمل البابا كلامه بالفرنسية والالمانية والانجليزية والاسبانية والبرتغالية على التوالي، علاوة على

الايطالية. وعندما أضاف بعض الكلمات بالتشيكية والاوكرانية واللويتانية والروسية، انتفض شخص كان بقربي وقال : " يا له من دبلوماسي!

لقد افترض الآن انه أبو جميع هذه الشعوب وعلينا ان نجرب ذلك وتعوده..."

كانت تعوز المذيع البولوني خبرة زملائه المعلقين الغربيين اذ لم يسبق له إن وصف احتفالاً دينياً. وعليه فقد طالت فترات الصمت وكثرت الفجوات. والمدهش في ذلك أنه حين لاحظ حماسة الجماهير المتعددة الجنسيات في ساحة القديس في ذلك انه حين لاحظ حماسة الجماهير المتعددة الجنسيات في ساحة القديس بطرس علق بحرارة غير منتظرة: " قد ننمى إلى امم متعددة ومع ذلك نبقي جميعاً ابناء الله الواحد". ان تعليقاً كهذا لا يعلق عليه، لكن أن يصدر عن تليفزيون دولة الجمهورية الشعبية فالأمر جلل!

دام الاحتفال ثلاث ساعات وثلاث ارباع الساعة وقوفاً وجر أقدام وقعوداً وتلوياً... ثم اعلن البابا يوحنا أنه حان وقت الغذاء " لكم وللبابا" فإذا ضحك وارتياح واسراع في هبوط الدرج للغذاء.

وقد سمعت اذ ذاك سيدة تقول لصديقتها كلاماً غني المعني : " أما لاحظت الكرادلة بعد أن قدموا خضوعهم للبابا كيف عادوا الى أماكنهم وكأنهم تناولوا القربان الأقدس ؟".

عندما وصلنا المطعم رأينا ثلاثة اوتوبيسات سياحية كبيرة متوقفة عند الرصيف فتبين بعد البحث أنها قادمة من موسكو. ولم يكن هناك أي أمل في ان يكونوا قد شاهدوا الاحتفال لنهم أخذوا في رحلة الى المناطق الجبلية حماية لهم من الأذى؟

بعد الغذاء عاد الكراكوفيون الى الكنائس للصلاة من أجل البابا الذي سبق وناشدهم في الصباح بقوله، ويا لوقار ما تلفظ ه نائب المسيح: " أدعو كل نسان الى الصلاة لأجلى. ساعدوني لأكون جديراً بخدمتهم".

وامام الكرسي الاسقفي في شارع الفرنسي سكان ، اصطف الناس لينسي لهم الدخول الى كنيسته الخاصة والتخشع فيها ولو قليلاً. وفي الداخل في البهو الكبير كانت ثلاثة دفاتر مجلدة على منضدة فراح الناس يكتبون عليها عبارات رقيقة بعضها كانت بمثابة رسائل وداعية يبادونها دونما انتباه بصيغة الماضي. فقد ثبت لديهم أنه لن يعود اليهم.

ذاك المساء طلبنا مقابلة امرأة قيل إنها تعرفه معرفة جيدة، وكانت هي أيضاً تكتب اليه رسالة قرأناها علينا وبدأتها هكذا : " لا تقلق علينا بل دعنا نحن نقلق عليك. جميعنا في انحاء بولونيا كلها سنصلي لجلك ليلاً ونهاراً.

سنكون خدامك الامناء بمعونة سيدتنا مريم العذراء". وما وصلت في القراءة إلى آخر الرسالة حتى خارت قواها : " إن ما تحيا لأجله معك. إن الزمن الذي نعيش فيه زمن مقدس، لا بل يجب أن يكون مقدساً وما هم ما يخبث المستقبل لنا جميعاً. ليتمجد الله". وتركناها ودموعها.

قالت طالبة ذاكرة اسم التصغير المشهور به : " مسكين كارويك ! كيف سيتدبر أمره في روما حيث لا ترلج، ولا تسلق للجبال وا بحيرات بولونيا، ولا تالها. سيفتقدها كثيراً".

-3-

الصبي لوليك

يفتخر خوري رعية فادوفيس الاب ادوار زاشرا بكونه يفتح للمرة العاشرة سجل العمادات للعشرين من حزيران عام 1920. ولحسن الحظ كان عماد كارلوس - يوسف ابن كارول فويتيللا وإميلي كاشوروسكس المولود في الثامن عشر من ايار من السنة نفسها مسجلاً في أسفل الصفحة. وقد أضيف إلى هذا القيد في ما بعد بحبر مختلف اللون ما يلي:

46/11/1 كاهن

58/9/28 اسقف

63/12/30 رئيس اساقفة كراكوفيا

67/6/26 كاردينال

يتبع ذلك تسجيل فريد في نوعه في سجلات رعايا بولونيا كتب حديثاً بخط أنيق:

78/10/16 انتخب حبراً أعظم باسم يوحنا- بولس الثاني.

قال الكاهن الشيخ ان الصحافيين وممثلي التلفزيون التهموه الاسبوع الفائت حياً. فقد أتوه من كل أنحاء العالم، من بلدان أبعد من البرازيل.

وأضاف انه سيفرح كثيراً عندما يعودون إلى أوطانهم تاريخه بسلام. كان يبدو صامداً جسدياً لكن مرهقا فكرياً.

هل شاهد الاحتفال على شاشة التلفزيون ؟

طبعاً؟

أما عن ردة فعله فيقول: " لم ابك - قالها بلهجة حادة - الرجال لا يبكون لكنني اضطرت الى ان امسح نظارتي مرات عدة. لا تسألوني عن هذه الأمور. أنها أشياء لا يحدث عنها بل تبقي - هنا - في القلب".

ليست فادوفيس من كبريات المدن لكن سكانها تكاثروا منذ نشأة كارول فويتبلا. فقد كان عددهم قبل الحرية تسعة آلاف نسمة، إما الآن ومع تقدم التصنيع فقد اقترب من الخمسة عشر ألفاً. ومع أن فيها أشغالاً ورقية ومصنعاً لقطع تبديل السيارات فلا يمكن أن تعد من المدن الصناعية بل مدينة ريفية لأبناء الريف وشوقاً يبيع فيها القرويون منتجاتهم المحلية من حنطة وشمندر وبطاطا، أنها مدينة يعرف فيه كل واحد الآخر ويشعر لذلك بأنه في قرية أكثر منه في مدينة.

تبعد فادوفيس عن كراكوفيا حوالي خمسين كيلومتراً، وتقع الى الجهة الجنوبية الغربية منها، في أقدام جبال الباسكد في سلسلة جبال الكادريات الغربية التي تكون الحدود الطبيعية مع تشيكوسلوفاكيا.

تزحت عائلة فويتبلا من اقصى الجنوب، من سزانسكا على مقربة من كاتي، موطن يوحنا الكاتوي، وهو لاهوتي شهير من القرن الخامس عشر.

كان كارول الآب ضابطاً صغيراً في الجيش البولوني موظفاً في هيئة التجنيد الاقليمي. يستدل من صورة له في مجموعة العائلة انه كان اسمر اللون مهيب الطلعة، عريض الشاربين والسالفين، وكان رجلاً صارماً مولعاً بالنظام العسكري التام. وقد أخذت له الصورة قبل مولد كحارول الابن بقليل. إما زوجته اميلي، فمدرسة ساقفة. وكان لها وجه صغير جميل بيضاوي ومقلتان سوداودان فكهتان يشع منهما الذكاء كانت العائلة صغيرة. وعندما ولد كارلوس - يوسف أدوار اخوه الاكبر قد بلغ الخامسة عشرة.

ولد في الطبقة الاولى من بيت متواضع رقمه 7 شارع الكنيسة، في فادوفيس المبنى بسيط - إذ لم يكن قد أصبح بعد مزاراً يتقاطر اليه الزوار أفواجاً. وهو مؤلف من وحدات سكنية عدة، واقع في زاوية شارع ضيق، وراء الكنيسة الكبرى ذات القبة البصلية الهندسية. عبر شبابيك هذا البيت كان الصبي كارول يري ساعة شمسية تعلم ان يعد الساعات فيها، ود كتب عليها: " يمر الزمان وتبقي الابدية".

عندما وصلنا كان مدخل المبنى - ذي القناطر - مزيناً بالأعلام، وكانت الشموع على أحد شبابيك الطبقة الاولى تذوب أمام صورة كبيرة للبابا الجديد، شبه مغطاة بالاقحوان. وبالرغم من هذا كله يبقى البيت مغموراً حقيراً.

وعندما دخلنا ساحة الدار التي يغطيها الغبار، كان هناك أولد يلعبون ودراجة صغيرة عتيقة مسندة إلى حائط الرواق. اما طلاء الحيطان المقشور فقد كان بحاجة إلى تجديد، وكانت قعقة الاعقاب على الدرج الحديدي تقطع السكون المهيب.

يسكن البيت ، حالياً، زيتو بوتيرا، وهو صديق كارول فويتيلا منذ أيام الدراسة، ولا يزال حتى الآن يعلم الفيزياء في المدرسة حيث كان يتعلم وكارول انتقل الى هذا المبنى عام 1938 أي عندما تركها آل فويتيلا وكانت غرف المبنى التي جددت منذ ذلك الحين يتصل بعضها البعض الاخر. ولم يكن فيها حمام وليس بالامكان بلوغ المرحاض الا عن طريق المطبخ ومع هذا فقد كانوا يعدون أنفسهم سعداء لان لديهم مياهاً جارية بخلاف بعض العائلات.

وفي عام 1927 دخل كارول مدرسة الضيعة الابتدائية وبقي فيها حتى الحادة عشرة. وكان يذهب مع رفقائه في رحلات مدرسية الى زاكويان وهو منتجع للرياضات واقع في الجوار، واستمر يتردد إليه.

هذا كل ما تعرفه عن سنيه الاولى. وربما كان السبب في ذلك ان والديه صباً اهتمامهما على أخيه البكر، ادوار، الذي اصبح طبيباً بعدما تخرج من المدرسة الثانوية بتفوق، وكان يطمح إلى أن يصبح طبيباً مستشاراً ونظراً لضيق ذات يدهم عملت إميلي في الخياطة للمساعدة على صيانة العائلة. لكن كارثة قد تحل بعائلة فويتيلا كانت تلوح في الأفق. ففي الثالث عشر من نيسان فارقت اميلي الحياة عن خس واربعين سنة وه تضع مولودها الثالث طفلة ولدت ميتة.

ومع غياب ادوار الذي كان يزوال الطب في أحد المستشفيات، أصبح كارول الاب وكارول الابن يعيشان وحيدين. وكان كارول الآب محباً واعياً مسؤولياته تجاه ابنه ذي السنوات التسع، وبعيداً عن تأثير الزوجة إلا أنه كان نظامياً صارماً ينظم نهار ابنه تنظيمًا عسكرياً دقيقاً التفصيل.

ويذكر أحد أصدقائه أنه كان حازماً جداً. والبرنامج اليومي كان صارماً: قداس، فمدرسة، فوجبة الطعام، فساعة حرة ثم الفرض المدرسي. وان اتفق ان تأخر الابن مع اصدقائه في الشارع الى ما بعد الوقت المحدد، كان يقتاد الى المنزل على الفور.

كان لوليك، وهو تصغير اسمه، يعرف انه يفيد من وقت فراغه فيماوس رياضة كرة القدم في حقل مجاور مع صديق يسكن في الجانب الاخر من الطريق حيث يملك أهله مقهى صغيراً غالباً ما كان يتناول فيه وجبه الطعام الرئيسة مع والدة.

كانت حياتهما قاسية اذ كان الوالد يقبض معاش تقاعد زهيدا برغمه على حياة الحرمان والاقتصاد الشديد. وادوار ، الابن الاكبر، الذي علقت عليه الآمال الكبيرة مات موتاً مفاجئاً بعد أن اصيب بوباء الحجمي القرمزية في المستشفىين حيث كان يزاول الطب. واصيب فويتيلا الأب في الصميم بعد موت زوجته ثم ابنه ولم يبق له سوى كاروليك يعلق عليه أماله.

انتقل كاروليك واصدقاؤه الى المدرسة الثانوية للصبيان عام 1931.

هناك، وبعد سنة، وقعت عليه عيننا الأب زاشر للمرة الاولى وهو القائل :

" أرسلت إلى فادوفيس في كانون الاول 1932 لعلم الدين في ثانوية الصبيان. وبين الصفوف التي علمت فيها الصف الثالث حيث كان التلاميذ يجلسون على البنوك أمامي ، وبينهم ولد ذو وجه حزين يشع منه الذكاء وحين سألت رفاقه عنه قالوا أنه لوليك فويتيلا. وعزوا حزنه الى موت اخيه الوحيد".

بقي الآب زاشر يعلم الصبي ست سنوات متتالية وهو يقول عنه اليوم:

" كان اقرب ما يكون الى العبقري الذي كان لي حظ تعليمه".

وأغرب ما في الأمر انه رغم تقدير معلميه له ، لم يكن مزهواً أو متذللاً ولرفقاء صفه ذكريات حية عنه غاية في الرقة يذكرون مثلاً انه كان ماهراً في كل شيء خاصة في اللغات والآداب وليس في جملة ما يذكرون أي أثر للضعينة أو الحسد. كان دائماً عقلاً مستقلاً يحترم رؤساءه ولا يحاول أن يستدر عطفهم.

وشهد أحد رفاقه القدامى فقال : " كان ، ولا شك ، من خيرة طلاب المدرسة. لم يعط يوماً أية علامة سيئة وكان محبوباً جداً".

وأضاف آخر : " نعم ، كان متفوقاً بذكائه ولكنه لم يكن يستأثر بهذا الذكاء بل ينصرف الى مساعدة المتأخرين في دروسهم ما كان ليضن عليهم بوقته".

وقال صديق آخر: " كونه ذكياً لم يجعله متحفظاً في علاقاته الاجتماعية بل كان يحفزه على حب الناس. وكان راوية قديراً ومحدثاً لبقاً كما كانت ثقافته العامة واسعة: يسرد اشعاراً لهوميروس من هنا وبيتاً لفرجيل من هناك في جو من المزاج والاحاديث المسلية".

رغم ذكائه ، لم يكن من الذين يغرقون في بحر الكتب ومع شغفه المبكر بالأدب البولوني لم يكن من الذين يقضون الساعات الطوال في المطالعة.

كان لا يطيق الجلوس بلا حركة. والجرعة عنده تجد الكثير من معناها فيما هو ممتع ومثير. فتى صلب العود، ممتلئ البدن، ذو بنية رياضية كان في المدرسة من احسن لاعبي كرة القدم، فبرهن انه حارس مرمى لا يلين ولا يفهر يحب السباحة والرحلات الطويلة سيراً على القدمين يعشق التجديف بالكنو (وهوزورق طويل خفيف) وأكثر ما يهوى هو التزلج على الثلج.

فجبال التاتراس ذوات الجمال الأخاذ قريبة من هناك وهي فقراء شرسة تجبه الجبليين والمتزلجين بصعوبات هائلة لكن مخاوفها لا يتأثر بها الولاد الذين ترعرعوا في حناياها. فالجبال بالنسبة لي فويتيلا أكثر من صديقة، أنها منذ نعومة اظفاره جزء مكون لبنيته النفسانية.

أحب قصائد يوحنا كاسبروفيتش لأنها تغني جمال تلك الجبال، وقد تعرف سكانها ، الغورال، فاحبهم واصبح يفهم لهجتم المحلية الخاصة . كانت جبال التاتراس ملجأ طوال حياته ومكاناً للتأمل والتقييم في زمن الشدة.

في كراكوفيا، قال طبيب، وهو صديق حميم لفويتيلا: " أتى من التلال الواقعة عند سفوح الجبال لا من الجبال ذاتها لكنه يرتاح إلى أهل الجبل، ويحب اغانيهم واشعارهم ويشاركهم حياة البساطة وروح الدعاية والفكاهة، كما يشاركهم استقلاليتهم وحبهم للحرية، ان أهل الجبل لم يستعبدوا قط لذلك هم رمز المساواة القائمة بين الانسان والانسان. لقد تعشقوا الحرية دوماً.

وفي بنية كارول النفسانية الكثير من خصائص الجبلي، فهو يتعشق الحرية كذلك".

ويبدو ان فويتيلا الشاب طبع رفاقه بأثر يتعذر محوه اذ كانوا معجبين بموهبته كمثل ويقوون: " لم يكن جيداً جداً " ويذكرون قاله حد المديرين الذي زار المدرسة يوماً : " ستصبح ممثلاً عظيماً".

كان يشترك في كل الحفلات في المدرسة ويمثل فيها الدور الرئيسي وعندما قامت المدرسة للفن المسرحي بجوله جنوبي - شرقي بولونيا، في جعبتها مسرحيات تتطلق من الدراما البولونية الحديثة

الى شكسبير كان كبير منها من انتاجه الشخصي وقد اشتهر علاوة على التمثيل برقصه الرائع خصوصاً عندما كان يؤدي فالس شتراوس والفولكلور البولوني الصعب بحيوية وبراعة.

وفي النهاية فإن آخر ما يذكر عنه رفاؤه تقواه التي لم يكن مفرطاً فيها إلى درجة تعيق النشاطات الاخرى. على ان والده ذاك الانسان الورع كان قد نقل اليه ايمانه القوي كان كاول يخدم للقداس صباح كل يوم وقد اسس في المدرسة جمعية دينية.

وتتوقف ذكريات رفاقه أكثر عند اهتماماته الادبية والتمثيلية والرياضية. وفي أواخر أيامه في المدرسة وقع له حادث له مغزاه. فقبل ان يتقدم من الامتحانات الاخيرة ما يعادل البكالوريا الجزء الثاني) زار المدرسة رجل سيحدد مجرى حياة فويتيلا أكثر من أي شخص آخر: انه المطران (فيما بعد الكاردينال) آدم اسطفان سابياها ، متروبوليت كراكوفيا . كان فويتيلا قد اختير ربما لجمال صوته ليلقي كلمة شكر باسم رفاقه. ويذكر احد رفاقه ان الكلمة كانت افضل مما لو اعدھا احد الاساتذة. بدت ملامح التأثر على وجه المطران الذي ادار وجهه نحو الأب زاشر الجالس الى جانبه ليسأله : " هل سيصبح هذا الفتى كاهناً ؟".

كان الأب زاشر يسأل نفسه السؤال ذاته، ويجهد كيلا يقترح ذلك عليه فهز رأسه واجاب : " لا يبدو ذلك حتى الآن".

فأجاب الاسقف : " يا للخسارة فقد يصبح كاهناً صاحاً".

وعاد سابياها الى كراكوفيا من غير ان يري نهاية كرول فويتيلا.

* * * *

على أثر انتشار خبر السادس عشر من تشرين الاول 1978 ، بقيت فادوفس مذهولة وغير مصدقة.

قال أحد أبنائها: " لم أكن أدري أكنت تملأ ام حالماً. فمعظم الناس رفضوا أن يصدقوا آذانهم.

ولم يذعنوا للحقيقة الا بعد مشاهدة التلفزيون. اذ ذاك اندفعوا وإلى منازل بعضهم البعض يتبادلونالعناق
ويبكون فرحاً”.

الصديق الذي كان يصحبفويتيلا رحلاته سيراً على الأقدام ويمارس معه رياضة كرة القدم كان في
مطبخ بيته في شارع كوشيانا وكانت زوجته تشاهد التلفزيون في الغرفة المحاذية. فسمع كلمات” صار
عندنا بابا” ولم يتمكن من سماع الباقي. وفجأة سمع صرخة. فسرع الى الغرفة الثانية ليتبين حقيقة
ما جرى فإذا بزوجته في حالة انهيار تتنهد: ” يا يسوع يا مريم هل عرفت ماذا عملوا؟ عملوا لوليك
بابا! ”.

* * * * *

في صيف 1938 غادر كارول الأب وكارول الابن فادوفيس نهائياً إلى كراكوفيا التي تبعد خمسين
كيلومتراً من هناك وهي احدى اجمل مدن العالم.

قيل فيما مضي: ” لولا كراكوفيا” لما كانت هناك بولونيا” وبدونها يصعب التنبؤ بمصير كتب” الدليل
السياحي”....

أنها المدينة الملكية، المركز الثقافي البولوني، بل هي احدى جواهر أوروبا التي لا تقدر بثمن فالمدينة
المقدسة وأتينا بولونيا... نموذجان من ألقاب أسبغت عليها عبر الأجيال.

أنها كنز من الفن والهندسة ربما لا ينافس في أوروبا. لقد بنيت على منعطف نهر الفستولا بحيث
يشرف عليها تل وافيل الصخري الذي حصن فيما مضي لصد الاعداء الذين يهددونها – وما أكثرهم
– عن عبور النهر.

اصبحت هذه القلعة المحصنة " القلعة الملكية" مقر الملوك البولونيين والمزار التاريخي لكل الأمة بينما أصبحت الكاتدرائية المجاورة المركز الديني الوطني.

(يا لغني الرمز في تجاور القلعة والكاتدرائية في هذه العاصمة القديمة بحيث تكونان نصفين لكل !). دخلت كراكوفيا كتب التاريخ في القرن التاسع كمركز تجاري أوروبي رئيس، وفي منتصف القرن الثاني عشر اصبحت عاصمة بولونيا بأمر من الملك سيجيسموند الثالث وبقيت كذلك حتى عام 1609 إذ حلت محلها فرسوفيا.

أهميتها في العصر الوسيط جعلتها هدفاً لغزوات التتر الذين نجحوا عام 1241 في اسقاطها وتدميرها تدميراً تاماً وذبح جميع سكانها. (لم تدمر كراكوفيا في تاريخها غير هذه المرة). وفي مدى عشرين سنة انبعثت من رمادها كطائر الفينيق واصبحت في منتصف القرن الرابع عشر لأكثر ازدهاراً وجمالاً مما كانت عليه.

وكادت تكون مركزاً للتعليم، فريداً في العصر الوسيط ان كانت جامعتها - الجاجيالونيان - اقدم جامعة في أوروبا الوسطي بعد جامعة براغ التي تكبرها بست عشرة سنة.

أسست الجاجيالونيان عام 1364 على يد الملك كازيمير العظيم. وانحطت بعد موته فترة قصيرة تعافت بعدها على يد ابنته جدفيجا. التي تعد قديسة بولونيا، وقد تزوجت دوق ليتونيا فلاديسلا وجاجيالو ووحدت بذلك البلدين. وتخلت عن كل جواهرها لتجدد الجامعة.

وفي منتصف القرن الخامس عشر تعدت شهرة الجامعة حدود بولونيا بفضل انجازاتها في حقل القانون وانفتاحها على الافكار الجديدة في حقلي العلوم والفلسفة. فاجتذبت الطلاب من كل انحاء

اوروبا. واصبحت أخيراً مركزاً أوروبياً لعلوم الفلك والرياضيات والجغرافية، ويكفي للدلالة على ذلك ان نذكر أحد طلابها الفلكي الذائع الصيت ميكولاج كوبرنيك (1473-1543).

في هذه الجامعة بدأ كوبرنيك يشك في أن الارض مركز الكون، وخلص الى خلق صورة جديدة للكون اذا اكتشف ان الأرض وسائر الكواكب تدور في فلك الشمس.

تلك النظرية الثورية كان لها أثر بعيد في مجري العلم في الغرب.

ولم يتفرد كوبرنيك وحده بالشهرة بين أبناء هذه الجامعة، فقد كان هناك الدكتور يوحنا فوست الساحر والعالم الفلكي، والنموذج الاصلي لفوست غوثيه. وكان هناك رجل من نوع آخر. انه فلاديمير اليخ لينين الذي وان لم يكن ممن تخرجوا منها، فقد ثابر على القراءة في مكتبتها الأنيقة والغنية من عام 1912 حتى عام 1914.

وها هو الآن تلميذ آخر سوف يعادل سابقه شهرة، انه كارول جوزف فويتيتلا، أول بابا بولوني في التاريخ.

التحق فويتيتلا بجامعة الجاجيالونيان عام 1938 للتخصص في الدراسات البولونية (لغة وأدباً) والفلسفة. ويقر استاذة القديم الأب زاشر انه فوحي باختياره هذه المواد، ربما لأنه يأمل في أن يراه يتسب الى قسم اللاهوت الممتاز في الجامعة والذي أسس عام 1400.

اكتسب طابنا على الفور شعبية مرمقة في أوساط زملائه الطلاب الذين وجدوا فيه رقيقاً طيباً ظريفاً مخلص المودة.

وقد نمى درسه الادب البولونى حبه للمسرح، ودفعه الى أن يعقد العزم على مزاولة هذا الفن. وعليه فقد أصبح عضواً منذ العام 1939 في فرقة " ستوديو الدراما " الشهيرة التي كانت تعني خاصة بالمسرح الاختياري.

صار فويتيلا يملأ وقت فراغه في الاعداد الجدي لنيل دبلوم في فن الدراما. وعن هذه الفترة، تذكر سيدة كانت من اعضاء تلك الفرقة كما كانت صديقه الحميمة، انهم عندما مثلوا مسرحية " فارس القمر" لماريان نيزنسكي الذي استقى موضوعها من اسطورة كراكوفية قديمة، كان على الممثلين ان يتقمصوا دور ابراج الزودياك، وقد أسند الى فويتيلا دور " الثور" لطول قامته ونمو عضلاته. وكان فويتيلا قد اعتاد يعد ان يسدل الستار، ان يرفع القناع عن وجهه ويصرخ في سائر الممثلين : " انظروا الى. انا ثور بري" ثم يبدأ بمطاردتهم حول المسرح. لقد نجحت هذه المسرحية نجاحاً باهراً.

وأخذت دورها الكبير في تاريخ المسرح الكراكوفي الحي(في المدينة اليوم ثمانية مسارح).

ومن صور البرامج القديمة والملصقات، يستدل على ان فويتيلا كان قد أصبح في تلك السن، سن التاسعة عشرة، شاباً جميلاً اخذاً.

ومن أقوال أحد زملائه من الطلبة: " كنا جميعاً متأكدين من انه سيصبح ممثلاً. فقد كان متفوقاً وسر تفوقه يكمن، بعضه، في صوته، ذاك الصوت الهادر الساحر".

تلك كانت ايام هائلة لم يعكرها، على ما يبدو، نذير سوء، مع ان الجزمات الالمانية كانت تستعد لتضرب ارض اوربا قاطبة. كانت تشيكوسلوفاكيا قد سقطت اثر خيانة، والنمسا تأملت لضمها عام 1939 الى المانيا). وكان هتلر من برلين يهدد، بعد اعداد، ابتلاع الممر البولونى. وفي البعيد، نحو الشرق، كان الروس ينتظرون.

كان فويتيلا وأصدقائه في الجامعة يتابعون دروسهم وحياتهم الاجتماعية بعيدين كل البعد، على ما يبدو عن هذه الاجواء. وكان قد بدأ ينظم الشعر. وقد أسس مع أصدقائه - خاصة الممثلين منهم - نادياً للشعراء الناشئين. وراحوا معاً ينظمون الأمسيات الأدبية يستمعون فيها الى قصائد من نظمهم، وأخرى لشعراء مفضلين لديهم. وكان شاعر فويتيلا المفضل زيغادلوفيش وهو من فادوفيس، وقد كان مثله من ابناء الجبل فكانت لقصائده نكهة رعوية قوية مليئة بالحنين إلى لوحات الريف البولوني وموسيقاه.

وقد بدأ يطبع شعر فويتيلا يطابعه منذ تلك الحين.

لم يبق في قراره نفسه شك في أنه سيصبح ممثلاً وممثلاً عظيماً.

وقد شجعه رفاقه على المضي قدماً وبينهم مياشيسلوف كوتلرشيك المعروف جداً لدى مؤرخي المسرح البولوني. فالمستقبل يبدو باهراً....

ولكن المستقبل لم يكن باهراً بقدر ما كانوا يتصورون، فصيف 1939 كان على الأبواب ومعه هرمجدون.(1)

1- رؤيا القديس يوحنا 16/16. ترمز الكاتبة هن لبدء الحرب الكونية الثانية والمعركة الفاصلة الكبرى (المترجم).

في الخفاء

تقع بولونيا وسط أوروبا، مع انها غالباً انها تنسب الى اوروبا الشرقية. وفي مكان ما من احدى حدائق فرسوفيا حجر يقال انه يحدد بالتمام المركز الجغرافي للقارة.

ربما كان هذا صحيحاً أو غير صحيح، فما لا نقاش فيه هو ان بولونيا تقع على نلتقى طرق أوروبا، وهذا واقع جغرافي كلفها الآلام الشديدة عبر التاريخ اذ عرضها للهجمات من كل الجهات. فمن الشرق تدفقت أمواج المغول والليتوانيين والروس. ومن الغرب الهون والتيتون والبروسون. ومن الجنوب التتر والاتراك والمجر والنمساويون. ومن الشمال اتت بدورها جيوش السويديين.

فبولونيا غنيمة أزلية، معرضة أبداً لرياح التاريخ الباردة، اذ ان اهراءها الغنية ومناجمها أثارت دائماً شهوة جيرانها الجشعين. وقد صور ايجور سترافينسكي هذا الوضع بوضوح حين قال : " إذا نصبت خيمتك وسط الجادة الخامسة فلا بد ان يصدملك الاوتوبيس".

وفي القرن الثامن عشر قرر الفاتحون من بروس ونمساويين وروس تجزئتنا واقتسام أرضها، فاختفت عن الخريطة اختفاء تاماً. وهذا ما تسميه كتب التاريخ " نهاية بولونيا".

وعلى كل ، فقد طال البؤس الناجم عن هذه التجزئة المثلثة اذ عومل اهلها على أثرها، معاملة العبيد، حرم عليهم في بعض الاحيان والأمكنة تعاطي لغتهم الخاصة وذلك منذ سنة 1772 حتى سنة 1918 ولم تعد بولونيا الى الظهور مجدداً على الخريطة الا مع انتهاء الحرب الونية الاولى.

وحتى في ذلك الوقت، أي بعد عام 1918 كان عليها ان تقاتل لتثبت جميع حدودها. قدار أشرس قتال ضد البلاشقة عام 1920 اذ بلغ هؤلاء أبواب فرسوفيا. " فقاتل اذ ذاك من كان قادراً على القتال وصلى من كان عاجزاً".

وفي الخامس عشر من آب، عيد انتقال العذراء المباركة تم صد لجيش الاحمر وقضي عليه كلياً. بهذا تحقق للبولونيين نصر مبين نسبة فريق الى عبقرية المارشال يلسودسكي بينما نسبه آخرون الى تدخل العذراء المباركة (وينسبه البولونيون اليون الى الاثنين معاً).

هذه الخبرة افسحت للبولونيين في المجال للتنفس وأصلت في عمق أعماق لا وعيهم الخوف من الشيوعية.

وكان البولونيون قد اكتسبوا مهارة وثباتاً في الدفاع عن حريتهم بفضل ما عانوا من ضغوط عبر لتاريخ فما اتاحوا يوماً للغزاة فرصة الاستمتاع بغروهم فسهل عليهم اتباع النصيحة التي أسدها إليهم جان جاك روسو يوم كانوا على شفير التجزئة المثلثة والتي تقول : " لا يمكنكم أن تمنعوهم من ابتلاعكم ولكن بوسعكم ولا شك ان نسيبوا لهم عسر الهضم".

* * * *

بعد سنين عديدة من الاساءة المتبادلة في التعامل بين ألمانيا والاتحاد السوفياتي، فوجئ العالم بهما في الثاني والعشرين من آب 1939 يوقعان معاهدة صداقة.

وكانت النتيجة واضحة، فقد أعطي هتلر بمساعدة حلفائه الجدد (أو بضمان عدم تدخلهم) " بدأ مطلقة" للعمل في أوروبا على هواه. وكان في نيته أن يستغل الفرصة لفرض نظام جديد ولترسيخ بداية عصر الراي الألفي.

في فجر الأول من أيلول 1939، هاجم هتلر بولونيا. وبينما كانت الجيوش الألمانية تتدفق على أرضها كانت السماء تمطر الموت والدمار وبعد ذلك بيومين نشبت الحرب العالمية الثانية.

قال جندي خدم سابقاً في الجيش البولوني: " كنا على أهبة الدفاع عن وطننا بسواعدنا العزلاء. فقد تلاشت الخلفات القديمة في مجتمعنا واصبح الكل مستعداً للموت، لا في سبيل عائلته أو مقتنياته، بل في سبيل وطنه.

لكن قوة الالمان المؤولة أوجدت خللاً في ميزان القوى وجعلتها غير متكافئة وصارت المجابهة بين شعب وآلات واحصنه ودبابات ورماح ومدافع".

كانت الحملة على بولونيا دموية قصيرة المدى. فالبولونيون رغم شجاعة لا تصدق لم يكن لهم من أمل بالنجاح دون مساعدة من الخارج. فقد دمرت قواتهم الجوية بثمان واربعين ساعة وهزم معظم جيشهم خلال اسبوع والبقية المحاربة منه حوصرت في مواقعها واهلكت في الاسبوع اللاحق.

وفي السادس من ايلول سقطت كراكوفيا. وبعد ظهر الثامن منه بلغ الجنود الالمان فرصوفيا(ذلك انه في اثناء الحرب تعرضت مدن اوروبية عديدة للقصف اما ما حصل لفرصوفيا فيفوق كل وصف).

في السابع عشر من أيلول، نشط الروس للمساعدة على تقطيع أوصال الجثة. ولجأ جيشهم الاحمر الى سحق بولونيا المنهوكة بحجة أنها لم تعد موجودة وان المعاهدة البولونية - السوفياتية التي تقضي بعدم الهجوم أصبحت باطلة ولاغية، وبلاستناد الى الاتفاق مع المانيا على تقاسم بولونيا ومعظم أراضي الجهة الشرقية.

ذلك كان تقسيم بولونيا الرابع وهو الأكثر بربرية، به وفي هتلر بوعد كان قد قطعة - وكم من وعد نكث به - فاقسم : " سأجعل من بولونيا اسماً منسياً على الخرائط القديمة".

اقتادت الدولتان كل من جانبها الوف الاسرى أفلت منهم فيما بعد الجنود العاديون بينما أقفل على الضباط في معسكرات . فالذين منهم سقطوا في أيدي الالمان بقوا أحياء وافلتوا بعد الحرب بينما الذين سقطوا في أيدي الروس هلكوا في غابة كتين حيث شجت رؤوسهم. لا أحد يعترف بالجريمة

- أكان الالمان أو الروس. هذه الجريمة تبقى احدى افزع الجرائم التي لم يجد لها التاريخ حلا بعد. فكل من الدولتين يتهم الاخرى.

ولكن الشجيرات الصغيرة التي تنمو على جثث المغدورين تدل على أنها غرست عام 1940 اذ كانت المنطقة لا تزال في قبضة السوفيات.

ولكن الشجيرات الصغيرة التي تنمو على جثث المغدورين تدل على أنها غرست عام 1940 اذ كانت المنطقة لا تزال في قبضة السوفيات.

ان القسم الذي بقي بولونيا بعدم وضع الروس ايديهم على حصتهم لجهة الشرق، وضم الالمان مقاطعاتهم السابقة (مضيفين اليها بعض الجديد) لجهة الغرب، اتفق على تسميته " بالحكومة العامة" وهي نوع من الاراضي المتناثرة تقدم للألمان يداً عاملة رخيصة والمزيد من المواد الغذائية. فعين

أحد الزعماء النازيين هانس فرنك " حاكماً عاماً عليها". وقد اعلن هذا في اليوم الاول لتسلمه منصبه: " إن البولنديين سيكونون عبيد الرايخ الالمانى".

اعتبر البولنديون كاليهود، أي في أدنى منزلة من البشر وبالتالي يجب ان يقضي عليهم كالهوام وليس هم، من وجهة نظر هتلر الحق في الحياة.

لكنه كان ينوي ان يستخدم بعضهم - السلافيين لا اليهود - كيد عاملة فيوفر لهما جداً أدنى من التعليم لقراءة تعليمات اسيادهم وللعن من الواحد الى المائة.

وفي الثاني من تشرين الاول، حدد هتلر مخططه حول بولونيا في رسالة له الى هانس فرنك وسائر الضباط قال:

" خلق البولنديون خصيصاً للأشغال الحقيرة ... والبحث في تقدمهم أمر غير ممكن. فمن الضروري الابقاء على المستوى المعيشي في بولونيا منخفضاً لا بل يجب عدم السماح برفعه... ان الحكومة العامة تبقى تحت تصرفنا كمصدر للأشغال التي لا تتطلب براعة... وما يحتاج اليه الرايخ في كل سنة من العمال الكادحين بوسعه ان يحصل عليه من هنا.

على الكهنة ان يعطوا بما نريدهم ان يعطوا وإذا تصرف أحدهم بخلاف ذلك فسنتقضي عليه. من واجبهم ان يبقوا البولنديين ساكنين بلهاء بطيبي الفهم.(2)

من المنطق القول ان مخططاً كهذا يعتبر كل مثقف عدوا له ويقضي بإعدامه وبضييف هتلر:

" سيكون للبولنديين سيد واحد فقط: الألمان. فلا يستطيع سيدان ان يتواجد جنباً الى جنب، بل يجب الا يتواجدا. وعليه يجب القضاء على كل ممثلي الانتلجنسيا(3) البولونية".

كان الالمان يطلقون على مخطط محق اليهود البولنديين والانتلجنسيا والاشراف والاكليروس تسميه " تنظيف البيت". وقد وكل الى همر وهيادورخ بمهمة تصفية اليهود، والى هانس فرنك بمهمة نهب ما

تبقي من بولونيا لتقديم المواد الغذائية والتجهيزات واليد العاملة للرايخ من جهة والقضاء على الانتلجنسيا من جهة أخرى.

وقد دون فرنك في مفكرته في الثلاثين من نوار انه احرز تقدماً في مهمته، وانه حث معاونته من البوليس على المساعدة اذ أخبرهم ان الوق المثقفين اعتقلوا أو هم في طريقهم الى الاعتقال وانه يتكل على تعاونهم التام، وإنما هو قام بذلك بناء على امر مباشر من هتلر هذا نصه :

2. نقلاً عن كتاب ارتفاع الرايخ الثالث وسقوطه لشيربروليم

3. اهل الفكر والنخبة السياسية (المترجم)

" الرجال الجديرون بالقيادة في بولونيا يجب أن يصفوا. وكذلك يجب أن يكون مصير اتباعهم، فلا حاجة لأثقال الرايخ بهم... كما انه لا حاجة لا رسال هذه العناصر إلى معسكرات اعتقال الرايخ".

كان بالإمكان القضاء على هذه العناصر في الحال. وهكذا فقد ذكر رئيس الغستايو (4) في تقرير رفعه إلى رؤسائه أنه تم القبض على ألفي رجل ومئات النسوة وصفي معظمهم. وان دفعة ثانية من المثقفين في طريقهم للمثول أمام " محكمة مستعجلة" - وهذا تعتبر لطيف مهذب يعني الابدادة.

كانت كلمتا " الحل النهائي " قد دخلنا في عداد المفردات الالمانية ولم يكن قد مضى وقت طويل لما أعلن فرنك لرجاله ما يلي:

" في موضوع اليهود اريد ان أقول لكم بصراحة انه يجب ان ننتهي منهم بطريقة او بأخرى... أيها السادة، أرى من واجبي ان اطلب اليكم التحرر من كل شعور بالشفقة. فعلينا ان نزيل اليهود من الوجود".

في شباط 1940 اكتشف ريشارد غلوكس رئيس نظارة معسكرات الاعتقال " مكاناً مناسباً" يصلح لأن يكحون " معسكراً صحياً" ولك في اوشويتز وهو مستنقع في مكان مقفر، غير صحي ، يبعد بضعة كيلومترات عن كراكوفيا حيق أقام فرنك الحاكم العام مقر قيادته.

* * * * *

جعل الحاكم العام مقره في قلعة واقيل التاريخية التي كانت مقر الملوك.

(تلك ميزة أولها القدر لكراكوفيا بأن جعل فاتحيها يفضلون الإقامة في القلعة على ترميدها).

4 - البوليس السري النازي (المترجم)

فكان العمل الارهابي يوجه من هناك. ولم تمض أيام قليلة على دخول الالمان كراكوفيا حتى اقفلوا جامعة جاجيالونيان.

وفي السادس من تشرين الثاني دعوا الهيئة التعليمية الى اجتماع. وإذ ظن هؤلاء ان الموضوع يتعلق بإعادة فتح الجامعة ، وقعوا في الفخ. (التقي استاذ واحد في طريقة صديقاً دعاه لشرب الشاي في مقهي ، وأقنعه بعدم الذهاب الى الاجتماع. فكان ان زعرا حين غادرا المقهى اذ شاهدا الغستابو يحملون الاساتذة بالشاحنات وما خلا مذبحه الاساتذة في لواف عام 1941 لم يكن هناك من اعدامات جماعية بل اقتيد مئتان من الاساتذة الى معسكرات الاعتقال (خاصة في سانهوزن) ومات ستة عشر فور اخلاء سبيلهم.

لم يكن لطلاب أقل تعرضاً للخطر من اساتذتهم. فمن يكشف أمره كان مصيره محتوماً، أما الموت وأما الاحالة الى معسكرات الاعتقال واما السخرة في ألمانيا.

كثيرون من أصدقاء فويتيلا رجلاً ونساء أسرهم الغستابو فاخفتوا، بعضهم الى غير رجعة والبعض الآخر عاد من معسكر اوشويتز في نهاية الحرب.

ولقد أصبح جلياً ان السبيل الوحيد للنجاة هو الاندماج هو الاندماج بسائر السكان والانخراط في سلك العمال. وعليه فقد كان الالمان يعطون "بطاقات عمل" وكل عامل لا يحمل بطاقة كان يضبط ويرسل حالاً الى العمل بالسخرة.

في عام 1940 ذهب فويتيلا الحجاره في مقلع حساب شركة سولقي الكيماية، خارج كراكوفيا ولكنه لم ينقطع عن الدرس. وبما أن البولونيين لا يرهبهم الوعيد، فقد جعلوا الجامعة سرية وراحوا يستخدمون طريقة "الجامعة المتنقلة" اتي ابتكرها اسلافهم في اثناء تقسيمات القرن التاسع عشر.

في تلك الايام العصيبة، حرص الاكليروس على تعليم اللغة البولونية الى جانب التعليم المسيحي. وقد قاوم الطلاب في كل أنحاء كراكوفيا، شأنهم في سائر المدن، محاولة هدم ثقافتهم فراحوا يكتفون الاجتماعات سواء في المنازل والشقق الخاصة أم في الأقبية وسرايب الكنائس وخلق الحوانيت.... وذلك لمتابعة دراستهم ووضع تصاميم جديدة لمقاومة الطغاة.

ولما كان صوت الاحتجاج يجد في المسرح والشعر أفضل وسيلة للتعبير، فقد أنشأوا كذلك مسرحاً سرياً. وفي الغرفة التي أستأجرها كارول فويتيلا لصديقه وابن بلدته مياشيسلوف كوتلرشيك، في الرقم عشرة من شارع تينياكا في دبنیکا ولدت فرقة "المسرح الريبودي" الشهيرة.

في هذه الغرفة كان يلقي كوتلرشيك وفويتيلا وغيرهم اشعاراً بولونية ويخرجون المسرحيات الشعرية أمام جمهور يراوح عدده بين الخمسة عشر والعشرين. تلك المسرحيات كانت مقعمة بالوطنية وكانت تبث روح الحرية وترفع معنويات المشاهدين.

لم يكن المسرح الريبودي سوى احد من أسلحة " حركة المقاومة" اذ كان معظم اعضائه متورطاً في نشاطات سرية أخرى وقد بقي أمره مستوراً غير ان كثيراً من اعضائه أوقفوا وعوقبوا بتهم أخرى.

كانت بولونيا كلها مرتعاً للمقاومة، وكان لكارول فويتيلا نصيبه الوافر منها والذين عرفوه في تلك الحقبة يذكرون شجاعته وصفاته القيادية.

كان من الذين يتكل عليهم في المواقف الصعبة ويعرف كيف يحافظ على رباطة جأشه عند الطارئ الحرج ويخذ له فوراً أنسب حل عملي.

كانت سجاعته فائقة. وقد أوردت مجلة التايم شهادة لصديق له من ايام الدراسة هو جرزي زوبريشكي وهو اليوم يحاضر في العلوم الاجتماعية في اوستراليا جاء فيها: " كان يعرض حياته يومياً

للخطر، اذ كان يتحول بين المدن المحتلة، ويخرج العائلات اليهودية من الغيتوهات 5 يجد لهم بطاقات هوية جديدة ويخبئهم. وهكذا نجح في انقاذ عائلات كثيرة كانت مهددة بالاعدام.

كانت قوى هائلة تتفاعل في حنايا فوتيتلا الشاب. فكل ما كان يراه حوله هو مشاهد بؤس وعذاب. رجال ونساء يتضورون جوعاً ويعاملون كالمحتاج.

الاولاد يبتزعون من أحضان أهلهم ويخطفون. وعائلات اليهود تجمع كالماشية وترسل الى حيث لا يعلم الله. والمدارس والجامعات تقفل... وكان وراء صمود البولنديين وشجاعتهم خوف ملازم: خوف على النفس والعائلة ولأصدقاء وخوف من الغستابو يطرقون الباب في منتصف الليل ويفاجئون النائمين بالاعتقال. وجزوات النازيين المتبخرين عبر شوارع المدينة تشحن الجو رعباً.

ما كان يشاهده فوتيتلا في كل يوم، من وحشية وتدهور في الاوضاع يرزح تحتها مع زملائه العمال اوصله الى ما يشبه اليأس.

واتى موت والده في السنة الاولى ومن الحرب ليضاعف بؤسه. فعلاقة الاب بالابن قد توطدت منذ وصولهما الى كراكوفيا وتحولت الى صداقة عميقة متفانية. فعندما مات والده وعى بمرارة انه اصبح وحيداً في العالم محاطاً بالموت والتعاسة.

تلك الشهور التي أمضاها في مقلع الحجارة فتحت عينيه على حقائق لم يكن قد تبينها بعد، وخطت مسرى حياته للمستقبل فبعد ذلك بسنين وكان قد اصبح كاهناً كتب قصده من وحي تلك الاحداث متمتاز بقوة تعبيرها وصعوبتها وفي بعض الاحيان بغموضها وتبقي من وجوه عديدة أجمل ما سطر قلمه.

قصيدة" المقلع" هذه تحوي كل الموضوعات التي ستميز بها خدمته الكهنوتية: الحنان الشاسع والحس المرهف بالكرام الانسانية واحترام العمل اليدوي والتوق الى الخدمة ووعي الحب كقوة حياتية زائدة وأخيراً ادراك حقيقة يتسامى بها العالم المرئي.

تحدث في هذه القصيدة عن الغضب والألم اللذين يتفاعلان في العامل عند تقطيعه الحجارة، ويظهران في الأيدي المشققة المقرحة" المشبعة مشقة". وفي العيون الذابلة وفي الجذوع الجاهدة والزنود المعضلة وفي الاحذية الغارقة في الوحل حتى الساق.(مات يوماً أحد رفاقه العمال اذا انشق صدغاه وتناثر دماغه على الحائط).

ولكنه يجد العظمة الى جانب المشقة، ويقرر ان القوة الضاغطة ليست هي اتي تثقب الصخر بل العامل الذي يمسك المثقاب بيده.

في منظر الصخر الاصم يبدو وكأنه يرى النفس البشرية تخلق ذاتها و الحقيقة المرئية تعكس باطن القلب، اذ أن الانسان يستمد القوة من الصخر واليد والعين الواثقتان تعمان الاتزان وتؤديان الى النضج.

وعندما كانت الألغام تتفجر في جوف الصخور الدهرية، فتجعل في غضبة تفجرها الصخر يتناثر شظايا... كان فويتيلا يشبه تفجر هذه القوى بالحب، ويذوب شفقة على رفاقه العمال خاصة الاحداث منهم، الذين " يحاولون ان يشقوا طيفه بيدهم" اراد ان يعلمهم الا يخافوا فقال : " إلا فانظروا كيف يستطيع الانسان أن يجب في غمره الغضب الساطع".

وتقدم فويتيلا في عمله. فبعدها كان عاملاً في المقلع، اصبح مساعداً للمسؤول عن المتفجرات. وقد كره العمل في تلك الشركة، ولكنه تعلق كثيراً برفاقه العمال واصبح بسرعة قائدهم الذي لا يتردد في المطالبة جهراً بتحسين أوضاع عملهم.

لقد أوجد في المعمل ومن لا شيء مركزاً للترفيه وللتثقف، وراح ينظم المحاضرات ويشجع العمال على المطالعة اذ كان عليهم بأي ثمن ان يمنعوا الالمان من تحويلهم الى عبيد جهلة، وكان العمال يتجاوبون معه كلياً الى درجة انهم غالباً ما عرضوا ان يقوموا هم انفسهم بعمله لينصرف هو الى الدراسة فكان دائماً يرفض العرض.

كانت الازمة في حياته الخاصة تتفاقم. فبينما كان يقطع الطريق من بيته في التينياكا صدمه قطار وسبب له كسراً في الجمجمة. لقد حاد عنه الموت قيد شعرة. وإن كان هذيان الحمى يفعل فعله فيه، سمع فجأة صوتاً قوياً يدعوه الى الكهنوت.

مريضاً وضعيفاً.... راح يقاوم الفكرة ويحاول اتقاءها. إلا ان هذا لا يعني ان فكرة الكهنوت لم تراوذة سابقاً، بل أنه كان قد صمم على المضي قدماً في طريق الفن المسرحي. وها هو الآن يتشدد في عزمه من جديد. واصراره هذا على التقلت من قدره عجل في شفاؤه بشكل غير عادي الى درجة لاحظ معها الاطباء لا شفاء جسدياً تاماً وحسب بل تقدماً مذهشاً في استعادة قوى ذاكرته التي نالت منها الصدمة.

ولم تمض اشهر قليلة على شفاؤه، حتى تعرض من جديد لحادث آخر أشد خطورة من الأول اذ دهسته شاحنة نقل فنجا من الموت بأعجوبة.

(منذ ذلك الوقت صارت له كتف أعلى من الأخرى واصبح على شيء من الاحديداب) وبينما هو على سرير المرض في المستشفى عاودته فكرة الدعوة الكهنوتية بإلحاح وقوة، ففهم انه لن يتمكن من التملص منها بسهولة هذه المرة وعرف انه بلغ - في حياته - الحد الفاصل وان عليه ان يقرر دونما ابطاء.

هل ساعده على التقرير صديقه الخياط يوحنا تيرانوسكي الذي يكبره مرتين والذي كان له تأثير حاسم على تفكيره ونموه الروحي؟

كان تيرانوسكي رسولاً علمانياً حقيقياً فقد جمع حوله فريق مناقشة قوامه خمسة شبان أحدهم فويتيلا الذي كان عليه ان يدرس شخصية القديس يوحنا الصليبي ذاك المتصوف والشاعر الاسباني (من القرن السادس عشر) الذي كتب عن " الطريق السلبي" أو الظلمة التي تجد فيها النفس الله، بعد غوصها في ملاذ الجسد. الفكرة صعبة لكن فهم نائها يسهل على المقيمين في ظلال الاحتلال الدامس.

وشارك فويتيلا تيرانوسكي حماسه لدراسة يوحنا الصليبي اذ عبرها سيعمق تفكيره في بحثه الذاتي الحقيقة الالهية. ولم ينس بعد ذلك ما يدين به لمعلمه فسماه عند موته عام 1948 "الرسول الحقيقي لعظمة الله".

ويشدد بعض أصدقائه الحميمين على التأثير الهام الذي تركه في نفسه موت والده. قالوا انه أمضى ليلة كاملة جاثياً قرب الجثمان، ومع الصباح اصبح انساناً آخر، وانه منذ ذلك الوقت بدأ شيء عن معنى الدعوة يترعع في داخله.

أيا كانت الاسباب، فقد اصبح فويتيلا متقبلاً لدعوته لى الكهنوت.

فتكون دعوته قد ولدت في غمرة الاحتلال ومآسيه ويكون الاحتلال قد ساقه ليضع حياته في خدمه الآخرين وليبقي شعاع الانسانية متوهجاً في مثل هذه الظلمة الحالكة.

لم تكن المعاهد الاكليريكية الرسمية في بولونيا أوفر حظاً من الجامعة ومدارس الثانوية، فقد أقفلت مثلها واعتقل بعض طلابها وقتل البعض الآخر. فتابعت هي ايضاً نشاطها سرّاً كما تابعت تسجيلها الطلبة الجدد بالرغم من المنع الرسمي. وفي عام 1942، التحق فويتيليا بسم اللاهوت في جامعة جاجيالونيان، معرضاً بذلك حياته للخطر. تابع في الوقت ذاته العمل في شركة سولفي الى جانب عمله في المقاومة.

ويبدو من المحتمل انه كان عضواً في منظمة طالبية سرية هدفها تبادل المساعدة في تأمين الأغذية والنقود والملاجئ.

بقيت حياة فويتيليا على هذا النمط محفوفة بالمخاطر والمجازفات من سنة 1942 حتى آب 1944 اذ توارى فجأة عن العيون.

عندما تنوعت التفاسير الرومنطيقية لاختفائه. ولعل اشدها رومنطيقية ذاك الذي يوحي بأنه تزوج، وانه لما اغتال الغستابو زوجته انسحق فؤاده اسي فقرّر أن يصبح كاهناً.

غير أن حقيقة الامر أبسط من هذا بكثير، أقل رومنطيقية ولكنها على الحالين مأساوية. إذ أنه من بين الاساليب المتنوعة التي ابتدعها الالمان لإرهاب البولونيين كانت " التابانكا " وقوامها الانقراض المفاجئ على شارع ما، أي شارع، وضرب حصار حوله وإقامة المتاريس وتوقيف كل من ساقه الحظ السيئ ليكون حينذاك في ذلك الشارع واطلاق النار عليه....

وعندما أعلنت فرصوفيا العصيان في آب 1944. عمم الالمان هذه الممارسة على كل انحاء بولونيا لوقف مد العصيان. وبعد عملية بالغة الضراوة في ذلك الشهر كاد يقبض فيها على فويتيلا قرر رئيسه آدم سابياها رئيس الاساقفة التحرك...

قرر ان تحمي تحت جناحيه قبضة من طلابه الاكليريكيين - بينهم فويتيلا - فخبأهم في كرسية الاسقفي في شارع الفرنسييسكان حيث لم يكن لهم الخيار بل كان عليهم الاختباء خصوصاً وان ليس لاحدهم بطاقة عمل، وان اسم كارول فويتيلا على لائحة الذين يطلبهم الالمان وينشطون في التفتيش عنهم.

كان رئيس الاساقفة سابياها شخصية فذة. ففي مستهل الحرب غادر الكاردينال هلوند، رئيس الاساقفة، بولونيا الى فرنسا مكرها بعد الحاح من الحكومة البولونية. لكن سابياها الحبر الذي يليه منزله، لم يغادر لولونيا بل صمد في وجه الالمان. فأحبه شعب كراكوفيا واحترمه الالمان رغم كرههم لارستقراطيي بولونيا واكليروسها (كان سابياها أميراً بمولده) وكان واضحاً انه لم يكن يخشاهم.

ومع ان اسم سابياها كان مدوناً على لائحة التصفية النهائية فقد أرتأى هانس فرنك تأخير التنفي، وأظهر رغبة في زيارته وإذ قام بها فعلاً قدم له مضيقة الاسقف الشيخ، غير الراغب ف استقباله الخبز الاسود الرديء والشمندر الملعب والقهوة المستخرجة من القمح أي ما كان يقتات به الشعب البولوني الجائع. ولم يشتبه الحكم بوجود خمسة طلاب اكليريكيين مختبئين هناك بينهم واحد مطلوب هو فويتيلا....

ثم ان النزاع ضد الاحتلال الالمني بلغ أوجه. ففي الثاني عشر من كانون الثاني 1945 انقض " " المحررون" الروس على بولونيا كالد العارم. فاستقبلوا بالترحيب اذ كان الالمان قتلوا بمدة ست

سنوات ستة ملايين وثلاثمائة الف بولوني بينهم ثلاثة ملايين يهودي، وتعتبر آخر قتلوا ما يعادل ربع السكان.

وفي فترة تأمل قال خوري رعية فادوفيس الشيخ : " غريبة الحياة لقد حاولوا مسح بولونيا عن وجه الارض ، فهتلر مات والنازيون غابوا عن الوجود وبولونيا التي استحف بها اعطت العالم بابا"

التحرير

الآن وقد انتهت الحرب، انتهى معها الاحتلال الالمانى صار بوسع كارول فويتيلا الخروج من مخباه ومتابعة دراساته اللاهوتية بحرية في الجامعة.

ولكن الحرية الجديدة لم تكن هي المطلوبة. " لم تكن نتوقع خاتمة كهذه.

كنا نفكر بأن الالمان لن يخرجوا وحدهم من الحرب خاسرين بل الروس كذلك".

جاء هذا على لسان الكولونيل في رواية جورج اندرجافيسكي " رماد والماس" الرائعة والتي تصف يأس شعب وقع في شرك طغيانين اذ لم يخرج الالمان حتى احتل الشيوعيون مكانهم وعمت لفوضى.

يقول المحامي كوسيكي للشيوعي بودغورسكي : " لا أدري كيف هي بولونيا الجديدة هذه "

فيجيبه الشيوعي " كيف هي؟ من أين ان اجيب عن هذا السؤال بكلمات معدودات ؟ ان هذا لأمر عسير. ربما الجواب الافضل في وصف تشابك الخلافات والتناقضات التي تعترض سبيلنا عند كل خطوة والتي لن تجد لها حلاً غداً على كل فستكتشفون قريباً ما تكون عليه الحال.

فإذا كانت الحرب قد شارفت على ماهيتها فالقتال هنا لا يزال في بدايته ولكنه لن يدوم سوى سنه او سنتين ولا ريب انكم ستسألونني هل كانت جماهير الشعب البولوني، مثلاً، تؤيد حزبنا ...

طبعاً لا. فبعضهم يعلن بغضه والبعض يسره بينما الآخرون لا يثقون بنا ويجهلوننا ولا يتبينون الغرض من القتال ولا كون الثورة تسير في هذا الاتجاه دون ذلك... ومما يؤسف له أن كثيرين لا يفهمون أو حتى هم لا يريدون ان يفهموا من هنا المرارة وخيبة الأمل والتذمر والانهاك وألوف الشبان التائهين وألوف المهاجرين التعساء"

ثمة حركتان كانتا تقاومان بفعالية اثناء الاحتلال:

" اجيش الوطني"، وهو الأكثر عدداً وكان يتلقى التعليمات من الحكومة البولونية في المنفي (لندن)، و" جيش الشعب" وهو الأقل عدداً (لم يمارس نشاطاته الا بعد ان هاجم هتلر الاتحاد السوفياتي) وكان يتلقى التعليمات من موسكو وكان هذا الاخير قد بدأ يمهد الطريق لنشاطاته قبل ان تنتهي الحرب بمدة طويلة.

وفي الثاني والعشرين من تموز، شكلت في لوبلن - أول بلدة بولونية محررة - " لجنة التحرير الوطني" التي أعلنت نظاماً اجتماعياً جديداً على اساس عقد ميثاق مع الاتحاد السوفياتي ! كيف للبولونيين ان يقبلوا بهذا ؟ لقد قاتلوا طوال خمس سنوات لاستعادة استقلالهم وها ان الاستقلال الآن يسلب من ايديهم.

حاولوا ان يوطدوا هذا الاستقلال انطلاقاً من فرصوفيا الثائرة، ولكنهم لم يوفقوا لأن المخطط السوفياتي عمل على منع وصول أقل مساعدة اليهم فكان اخفاقهم أمراً حتمياً.

وفي كانون الثاني 1945 شكلت حكومة الأمر الواقع " حكومة الاتحاد الوطني" في الوقت ذاته عين فلاديسلاو غومولكا - أحد زعماء جيش الشعب - نائباً للرئيس واميناً لحزب العمال، وبولسكو بياروت - جئ به من موسكو - رئيساً للجمهورية.

كان من الطبيعي ان ترفض حكومة المنفى في لندن، على رأسها ميكولجسيك، إدارة لويلن التي يسندها الاتحاد السوفياتي. فاندلع القتال وبلغ قمة المأساة والمرارة اذ دار هذه المرة بين البولونيين أنفسهم ودام هذا القتال سنتين فيما النضال على قدم وساق لإعادة بناء المدن المهدامة. وإذ كانت فرصيا قد أصبحت كلها قبراً شاسعاً كان لا بد من اعادة بنائها فوق هذا القبر الشاسع وتفرق أفراد حركة الجيش الوطني خوفاً من ارسالهم الى معسكرات المعتقلين في الاتحاد السوفياتي ثم تجمعوا من جديد لتخليص رفاقهم الذين أسروا وعذبوا في السجون في كل أنحاء الوطن.

وفي عام 1947 أجريت انتخابات " حرة".

فكان مرشحو الاحزاب غير الشيوعية بعضهم يضرب بتكرار على نحو موجه ، والبعض الآخر تطلق عليه النار، وكان القائمون بالدعاوة الانتخابية يزجون في السجون وتتلف منشوراتهم.

ولم تأت النتائج بمفاجآت فقد فاز ممثلو السوفيات في المقاطعات كلها بالأكثرية الساحقة !

تلك كانت بالنسبة إلى كثير من البولونيين " نهاية بولونيا" وكان يزيد من أساهم ان تلك النهاية كانت تتم لا على يدي الغرباء بل على ايد البولونيين انفسهم.

في مثل هذا الجو المحموم تابع فويتيلا استعداده للكهنوت وكان قد تعرض منذ وقت قصير لفقدان حريته الجديدة.

لقد تمكن عام 1945 من الافلات من ايدي لروس بصعوبة، ذلك أنه وجماعة من رفاه الطلاب التقوا في ساحة السوق في كراكوفيا وراحوا ينشدون الاغاني الوطنية المعبرة عن التوق الى الحرية فكاد ان يقضي عليهم لو لم يحسنوا التوقف في الوقت المناسب.

وكانت الجيوش الروسية لا تزال تسرح على ارض بولونيا يوم التقي فويتيلا - على غير توقع - احد جنودها.

جرى ذلك عندما كان دوره بواباص في المدرسة الاكليريكية اذ ذاك سمع الجرس يدق ففتح الباب فوجد جندياً روسياً شاباً.

فسأله بحذر : " ماذا تريد؟"

فأجاب : " أريد الدخول"،

فصمت الاكليريكي ... لأن طلباً كهذا ومن مثل هذا الشخص في مثل هذا الوقت مدهش وصعب التصديق. ولكنه يدافع من الفضول لم يترك الجندي يذهب، بل دعاه الى الدخول فتحدثا طويلاً.

يذكر فويتيلا ذلك فيقول : " هو لم يتقدم الى الداخل، لكني انا تعلمت حقيقة عظيمة من لقائنا وهي ان الله يستطيع ان ينفذ الى عقول الناس في الظروف غير المؤاتية، رغم الأنظمة التي تنكر وجوده. لم يتسن لهذا الشاب دخول كنيسة من قبل إذ كان يردد على مسامعه في المدرسة وبعد ذلك في العمل " ألا اله" ورغم كل شيء بقي يقول : " لكني عرفت دائماً ان الله موجود... وأرغب الآن في معرفة شيء عنه...."

ترك هذا الحدث أثراً عميقاً في نفس فويتيلا ولم يعد ليغيب عن باله انه لا انسان بعيد عن الله ما دام يبحث عنه.

فويتيلا الآن منخرط في منظمة طالبية هدفها العمل على المساعدة الذاتية.

كانت هذه المنظمة قد بدأت أعمالها في اثناء الاحتلال فأصبحت الآن على ما يرام من التنظيم المثمر ولما كان لكل بولوني ما يكفيه من المشاكل الشخصية وبالتالي لم يكن أحد مستعداً الطلاب أو هو جدير بذلك فقد كان على الطلاب ان يتدبروا أمورهم بأنفسهم لتأمين الغذاء والكتب واللبسة والمسكن.

كان مجلس المنظمة يضم ممثلين عن مختلف أقسام الجامعة وكان كارول فوتيلا يمثل قسم اللاهوت ويشغل منصب نائب الرئيس وقد تعذر اسناد الرئاسة اليه، كما كان يرغب الطلاب، لأن النظام يمنع الرئاسة على الاكلييريكيين وكانت هذه المنظمة " تعاونية" حقاً فنجحت لأنها وليدة رغبة الطلاب. لعب فوتيلا بشهادة الجميع في توجيه هذه المنظمة الدور المثالي.

قال أحد رفاقه في تلك الحقبة: " كان حكيماً جداً وان كنت لا استطيع القول بأن احدنا تنبأ له بالبابوية غير اني أقر كان كبيرنا ليس ببنيته وحسب بل في كل شيء لم يكن يكبرنا سنا لكننا صرنا نثق بحكمته الى درجة اننا كنا في حال غيابه قبل أن نتخذ قراراً نتساءل " عما كان فوتيلا بعمله لو كان معنا" لقد أمتاز منذ ذلك الحين بشخصيته الشديدة التأثير وانسانيته العميقة".

وكان من بين اصدقائه الكبار في تلك الفترة طالب في الطب التقاه ايام الاحتلال بعد ما فتح الغستابو النار على أخيه وأردوده قتيلاً. ولما سمع كارول بالخبر ذهب اليه ومنذ ذلك الحين ازدادت صداقتهما توطداً. يقول فيه هذا الصديق وهو اليوم جراح كبير: " تلك كانت أسوأ مرحلة في حياتي ولكنه علمني كيف اتجاوزها".

وعن عملها معاً في المجلس يقول: " كانت الاجتماعات تمتد إلى ساعات الصباح الاولى ثم كنت أرافقه إلى الاكلييريكية فيطول حديثنا أكثر من ساعة اذ كان دائماً يفيض أفكاراً.

كان لا بد حياه فويتيلا الطالبية في كراكوفيا ان تبلغ نهايتها اذ انه في الاول من تشرين الثاني 1946 الواقع فيه عيد جميع القديسين سيم كاهناً بوضع يد سابياها رئيس الاساقفة. وكان في السادسة والعشرين من عمره. وقد احتفل بقداسه الاول صباح اليوم التالي على مذبح القديس ليونارد في كاتدرائية وافيل.

كان دخوله الى الحياة الكهنوتية في ظروف سيئة لكنها أقل سوءاً مما ستكون عليه في المستقبل القريب. ذلك ان موقف الحكومة المؤقتة من الكنيسة الكاثوليكية كان لا يزال حذراً. ومعظم البولونيين وبينهم الكثير من الشيوعيين ، كانوا كاثوليكين ورعين متأصلين في الجمع طوال الف سنة بين ايمانهم من جهة وببولونيتهم واستفلاهم كأمة من جهة ثانية.

وعلاوة على هذا الواقع الراهن (ولا أحد يمكنه فهم بولونيا ما لم يقف بذاته على حقيقة دور تداخل الايمان والوطنية تداخلاً كلياً) فقد حافظت الكنيسة على كسب تقدير البولونيين في أعلى مستوى. لقد بقيت طوال المائة والخمسين سنة من التقسيم وحدها مجسدة لآمال الأمة ولو بشكل مصغر. (طوال هذه المدة كانت الصلاة- التي هي فوق سلطة الفاتحين - المعبر الوحيد عن الشعور الوطني). هي التي تحدث (جهازاً) ميول جناح اليمين المتطرف في حكومة ما قبل الحرب، وتحرك جناح اليسار في المعارضة وهي التي قادت المقاومة ضد النازيين. لن ينسى البولونيون بسهولة ان ثلاثة آلاف من كهنتهم اغتيلوا أو فقدوا في معسكرات الاعتقال ، أيام الاحتلال، وان أكثر من الف كنيسة من كنائسهم دمرت على ايدي العدو.

كان الحكم في السنتين الاوليين يخطو خطى حذرة، خائفاً القيام بضربة ربما لا تكون صائبة، لكنه وجد نفسه، على أي حال، مجبراً على التركيز على تثبيت سلطانه وعلى مهمات إعادة البناء الشاقة التي كانت تجبها.؟ وكان رجال الحكم ينظرون إلى الكنيسة نظرتهم الى مفارقة تاريخية لا

علاقة لها بالزمان الحاضر وشرعية موروثه غير مرغوب فيها. كانوا يأملون في أن يحسموا أمرها معهم عاجلاً أو آجلاً، ولكنهم كانوا يعرفون أيضاً ان الوقت المؤاتي للحسم لم يحن بعد.

ومع ذلك فقد بدأوا أعمالاً عدائية مكشوفة منذ البداية. ففي عام 1945 مثلاً أوقفوا مفعول الكونكوردا مع الفاتيكان الذي كان هو مسؤولاً عن ذلك إلى حد ما بسبب موقفه المتصلب. اذ ان البابا بيوس الثاني عشر كان محسوباً على الألمان، وكان على وجه التاكيد عدو الشيوعيين الذي لا ينثني. وكان اتفاق روزفيلت وتشرشل وستالين في بالتا 3 قد ثبت سلطة روسيا على المقاطعات الشرقية البولونية (أي حوالي خمس أراضي بولونيا) بينما عوض اتفاق بوتسدام 4 عام 1945 بولونيا من خسارتها بأن أعاد اليها ضم مناطقها في سلافيا القديمة على ضفاف الاودير والنايس) بعد أن بقيت ستمئة سنة في يد الألمان).

وهكذا غيروا مواقعها نحو العرب، ورسموا لها حدوداً جديدة وجعلوها بذات الفعل وللمستقبل القريب الهدف الاول ورسموا لها حدوداً جديدة جعلوها بذات الفعل وللمستقبل القريب الهدف الاول للألمان المغتازين لفقد أراضيهم.

كان المخرج بكامله، حسماً يمكن تصوره، دقيقاً جداً بالنسبة إلى البولونيين والامان معاً، فالقاتيكان لن يعترف بحدود ما بعد الحرب ما لم تعقد معاهدة سلام. وكان قد رفض حتى ذلك الحين تعيين أساقفة ابرشيين على الأمكنة التي لا يزال يدعى الامان انها لهم. فالبابا بيوس الثاني عشر حول رئيس الكنيسة البولونية، الكاردينال هلوند، سلطة تنظيم الكنيسة هناك، وعين خمسة مدبرين رسوليين (أقل صلاحية من الاساقفة الابرشيين العاديين) يخضعون لسلطة الاساقفة لمجاورين.

5 الغيتو : حي يهودي بمدينة (المترجم)

أيا كان موقف الفاتيكان، فالحكومة التي تسيطر عليها الاتحاد السوفياتي كانت، على ما يبدو، عازمة على أبطال مفعول الكونكوردا كما أبطلته البلدان الأخرى الخاضعة للنظام الشيوعي. لكن سياسة الفاتيكان لم تسهل الأمر فيما يخص الكنيسة في بولونيا.

3 تقع بالتا على البحر الاسود. وهي اليوم ضمن حدود روسيا (المترجم)

4 تقع بوتسدام على مقربة من برلين وهي اليوم ضمن حدود جمهورية ألمانيا الديمقراطية (المترجم)

قبل سيامة فويتيلا كاهناً ببضعة أشهر بدأت الحكومة خطة جديدة في التهديم. ففي محاولة فاشلة لشق الكنيسة الكاثوليكية، اعترفت الحكومة رسمياً بكنيسة جديدة مزيفة هي " الكنيسة الكاثوليكية الوطنية البولونية". تساعدها منظمة علمانية عرفت باسم "السلام"، ومهمة كليهما جمع أكبر عدد من الكاثوليكين لدعم الحزب.

وقد عهد برئاسة "السلام" لى بولسلاد بياسيكي وهو شخصية تحوم حولها الشكوك كانت تتزعم حزب " الكتيبة الفاشية" قبل الحرب. وكان الروس قد سجنوه ولم يفرجوا عنه الا بعد ما غير اتجاهه السياسي وعرض خدماته على رئيس البوليس الروسي السري الجنرال سيرون. فقد أفرج عنه ليؤسس "السلام" ودار نشر، ويصدر جريدة يومية خاصة به ويحتكر مبيع البضائع التقوية، فأصبح من أثرى الأثرياء وأقوى الأقوياء، ولكنه كان أقل البولونيين شعبية يجمع الكاثوليكون والشيوعيون على كرهه. 5

قد تكون حاجة الكاهن الجديد الى جو أكثر استقراراً مما هو عليه في بولونيا هي التي أوججت إلى رئيس الأساقفة سابياها (الذي أصبح كاردينالاً حوالى ذلك الوقت) بأن يرسله الى روما لمتابعة دروسه اذ أن فجوات كثيرة شابت ولا شك دراسته في الاكليريكية السرية اثناء الحرب، وفي روما يمكنه أن يعمق دراسته وان يتعلم لغة جديدة وان يقيم علاقات جديدة.

وكان هناك سبب آخر لارساله الى روما، الا وهو اتفاق الجميع على أن يفسح في المجال لهذا الكاهن الشاب ذي المواهب غير العادية في أن يمارس قدراته العقلية في جو غير الجو الذي اعتاده.

أقام فويتيلا في روما، في المعهد البلجيكي، ومنه كان يذهب كل يوم الى " المعهد الملائكي" لدراسة الفلسفة واللاهوت الادبي. وكان مدبر دروسه طوال السنتين اللتين امضاهما في ذلك المعهد الأب غاريغو - لاغرانج، الدومينيكي الفرنسي، وهو فيلسوف توماني أشتهر بتمسكه المتزمت بالتقليد.

غير أنه من المشكوك فيه أن يكون فويتيلا قد تنبه لشيء من هذا لنشوته في كنيسة شديدة المحافظة على التقليد، فقد اكتشف في شخص معلمه زميلاً متحمساً للقديس يوحنا الصليبي المتصوف الاسباني والشاعر الذي كان يعني له الكثير أيام كان رازحاً تحت وطأة الاحتلال. وقد ذكر فيما بعد في كتابة " آية ينكرونها " أبياتاً للقديس يوحنا الصليبي توضح فكرة سمو الله وعظمته، وفكرة الظلمة التي على الانسان ان يعبرها لينفذ إلى الله. ونجد عند ت. س . إليوت 6 ترجمة حرفية لهذه الابيات يقول فيها:

" في سبيل ان تبلغ ما لا تعلمه
عليك ان تير على درب الجهل،
وفي سبيل ان تملك ما لا تملكه
عليك أن تسير على درب الاملاق.
وفي سبيل ان تبلغ ما لست عليه
عليك ان تسير على درب لست عليها"

هذا كان مفهوم " الطريق السلبية" عند القديس يوحنا الصليبي الذي استوحى منه فويتيلا موضوع أطروحه الدكتورا وعنوانها : " مشكلات الايمان في مؤلفات القديس يوحنا الصليبي "
وكان من بين اعضاء اللجنة الفاحصة التي منحته علامة 10/9 مع تقدير ممتاز استاذان اصبحا

6 T.S.Elliot : Four Quartets Faber & Faber

فيما بعد في عداد الكرادلة واشتركا في انتخابه بابا عام 1978.

وبلا ايضاح السبب : أقفل على أطروحته بعد انتخابه بابا، واعلن متحدث محاولاً تفسير ذلك : " لسنا نرغب في احراج الآب الأقدس بنشر نص لا يعكس بالضرورة آراءه الحالية".

وبعد سنتين امضاهما في روما، أصبح فويتيلا يتكلم الايطالية بطلاقة. وعندما ذهب الى فرنسا عام 1947 في عطلة صيفية كان مسروراً لأنه سيتمكن هناك من تحسين لغته الفرنسية مع العلم انه كان لزيارته هدف غير اللغة هو الرغبة في تفقد اللاجئيين البولونيين، المشردين بإعداد كثيرة على ارض فرنسا وبلجيكا، بلا مال أو أية وسيلة أخرى سوى الحظ تمكنهم من العودة الى بلادهم. وكان لبعضهم، علاوة على ذلك، مشاكل منها ان الحكومة الفرنسية راحت بعد ما نجحت في طرد الاعضاء الشيوعيين(اعضاء المقاومة سابقاً) من داخلها"، تلاحق فريقاً من عمال المناجم البولونيين كانوا مشردين في البا دي كالي.7

اسرع فويتيلا في الذهاب الى البا دي كالي ليساعد مواطنيه المساكين قدر المستطاع فجعل من نفسه مرشداً لهم ونجح في إخماد التوتر الذي كان قائماً بينهم وبين السلطات الفرنسية. وقد برهن على أنه الشخص الجدير بالثقة من الجانبين.

لقد أفاد فويتيلا الكثير في اثناء وجوده في فرنسا حيث كانت للكنيسة ايضاً صعوباتها. فهناك تقرير طلب إعداده رئيس اساقفة باريس الكاردينال سوهارد وصف فيه العمال الفرنسيين بأنهم منعزلون ولا أدريون 8 كما وصفت البلاد ككل بأنها أكثر وثنية من بلدان الارساليات البعيدة.

7 pas de Calais

8 agnostic

وفي محاولة لإيقاف التهرؤ والبده بتنظيف البيت من الداخل، أجاز الكاردينال القيام بخبرات رعوية متنوعة كان أشهرها خبرة الكهنة العمال بموجبها تترك عدد من الكهنة الشبان دور خورنياتهم ويلتحقون بالمعامل كسائر العمال.

كانت الفكرة شجاعة ومع هذا، ولأسباب عدة، اسرعت روما في ايقافها عام 1953، مع العلم ان السفير البابوي في باريس المنسنيور رونكالي المعروف عنه تشجيعه للخبرات الرعوية بكل إمكاناته كان قد نصح الفاتيكان بترك هذه الخبرات تأخذ مجراها فتبرر وجودها أو تحرق نفسها بنفسها. لم تكن هذه الخبرة لتتوافق مع طريقة البابا بيوس الثاني عشر الذي كان على طرفي نقيض مع رونكالي الذي سيخلفه في البابوية فيما بعد باسم البابا يوحنا الثالث والعشرين.

ولا يحتمل ان يكون كارول فويتيلا، ذلك الكاهن البولوني الذي لم تسلط عليه الأضواء بعد، قد التقى السفير البابوي في اثناء اقامته في باريس، كما أنهما لم يلتقيا الا بعد أن اصبح رونكلي البابا يوحنا والعشرين وصار فويتيلا اسقف كراكوفيا المعاون، وتلك كانت بداية درب طويل الى المستقبل.

وهناك واقع مفيد، وان يكن غير مهم، هو أن انجلو رونكلي سيم كاهناً في الشهر الذي ولد فيه فويتيلا.

اهتم فويتيلا كثيراً بخبرة الكهنة العمال، ولكنه لم يكن يأمل بأن تنجح في بولونيا. هو أيضاً اراد مساعدة العامل. او لم يكن هو ذاته عاملاً؟ ألم يتعرف بذاته مشاكلهم؟ ألم يتحقق بنفسه كيف يكون العمل المضني المرهق عندما يبقى بدون مقابل عادل؟ لم يتخلل ابداً منذ ايام عمله في مقلع سولفي عن اهتمامه الصادق بكل ما يخص العامل، لا من حيث حياته الدينية وحسب بل من حيث مختلف اوضاعه الاجتماعية التربوية والثقافية. وهكذا نفهم نهمه لمعرفة المزيد عن حركة الشبيبة العاملة

المسيحية التي نمت بسرعة في فرنسا وبلجكا وعن حركتي الشبيبة الطالبة المسيحية والشبيبة الجامعة المسيحية المقابلتين لها.

بقد اكتشف مؤسس هذه الحركة البلجيكي المنسنيور كاردين عزلة العمال قبل الكاردينال سوهارد بكثير. فهم كاردين ان الانتقال الى المدينة يفصل الناس عن جذورهم ويهدم معنى القيم التي اكتسبوها منذ حداثة سنهم فيضلون الطريق وينعزلون. فأنشأ فرقة الاولى من الشبيبة العاملة المسيحية في متاهات المدينة جامعاً الشبان المسيحيين الراغبين في عيش ايمانهم المسيحي من خلال عملهم اليومي. واطلق الشعار المثلث: أنظر ثم أحكم ثم اعمل، انظر الى الواقع، احكم فيما يجب عمله ثم عمله. لقد تحمس لفكرة الشبيبة العاملة المسيحية اذ وجده ممكنة التطبيق في بوونيا مع شيء من التعديل. كان وحده كثير التفاؤل يستطيع ان يتصور إمكان تطبيقها في بولونيا الستالينية. لكن اصدقاءه كانوا يعرفون انه لها.

الأب فويتيلا

إذا كانت احبار ما يحدث في بولونيا قد تسربت لى روما فيكون الأب فويتيلا قد رجع إلى وطنه عام 1948 مثل القلب بالهموم خصوصاً اذ عرف ان الاعتقالات والاختفاءات قد عادت من جديد واصبحت أمراً عادياً.

كانت انتخابات عام 1947 مهزلة. وحلت الاحزاب السياسية، وأممت المعامل الخاصة والمحلات وحجزت ممتلكات الكنائس واصبحت بولونيا " جمهورية الشعب" تحت رقابة المستشارين وفي قبضة الجليد الستاليني.

فلاعلام الحمراء، صور لينين وستالين وبياروت في كل مكان (لقد أقيلا عوميلكا من منصبه وسجن). القرويون يزحون قسراً في تنظيمات جماعية. وبينما كان الرسميون ينشرون الاحصاءات التي تظهر الازدهار الذي يلاقيه العمال في ظل الاشتراكية، كانت زوجات هؤلاء العمال يرجعن من السوق فارغات السلال، متفطرات القلب.

كان لجو مثقلاً بالشعارات، والدعاوة الخبيثة تفسد ابسط المظاهر من مثل: سيغارد -القطار - الى - شلمنو - من - الرصيف - رقم - 3 - احذروا - الحرب - الجرثومية - التي - يشنها - الامبرياليون - الاغراب - ويصل - القطار - الآتي - من - كراكوفيا - الى - الرصيف - رقم - 2 - فلتحي - الاشتراكية - ولتحي - وحدة - العمل".

ها هو الحزب الشيوعي الآن، وقد وطد قدميه، يتزعم الكفوف من يديه ويستعد لشن حرب علنية على الكنيسة. فمع نهاية السنة 1948 التي فيها عاد فويتيلا الى بلاده، ناهز عدد الكهنة الذين سجنوا، أو أرسلوا الى معسكرات الاعتقال في سيبيريا، الأربعمائة كاهن(وارتفع عددهم بعد أربع سنوات الى الألف أي بمعدل 10٪ من مجموع الكليروس البولوني).

وبدأت عملية علمنة المدارس بأن ألغى التعليم الديني، وأخضع المعلمون قسراً لدورات تدريبية بغية " التجدد التربوي" ونزعت الصلبان عن الحيطان، ومنعت الصلوات، وأزيل كل نوع من أنواع التأثير الديني.

خلال تلك السنة والتي تلتها، أوقف العمل في المطابع الكاثوليكية وأممت المستشفيات التي هي بإدارة والتي تلتها، أوقف العمل في المطابع الكاثوليكية وأممت المستشفيات التي هي بإدارة الرهبانيات وأبدل الراهبات والمرشدون، وحرمت الزيارات المقدسة الجماعية (الحج) والزيارات وسائر الاجتماعات العامة (وحتى الاجتماعات الرعوية في الهواء الطلق)، وأحكمت الرقابة على الجرائد المسيحية مضيقة عليها أيما تضيق وفرض على معظم المنشورات الاسقفية الرسمية ان تتوقف. هذا ما كان أيضاً في زمن" المحاكم السورية" في أوروبا الشرقية، حيث ألقى القبض على عدد من الشخصيات الدينية وحوكموا بتهمة "النشاط السري" و "التجسس" و"الفساد الخلقي"!

في مثل هذه الأجواء السياسية الضاغطة، وسط الصعوبات والقيود الكثيرة، بدأ الأب فويتيلا حياته الرعوية.

أرسل أولاً لخدمة في قرية نياغوفيش الصغيرة قرب كراكوفيا حيث يبدو أنه ركز معظم اهتمامه على مساعدة أهل القرية لتخطي صعوبات الحياة.

لقد وصل القرية حاملاً حقيبة صغيرة هي كل متاعه، واعلم الجميع انه يضع نفسه بتصرف كل من يسأله عوناً وانه لن يتردد عند مرض أحد الفلاحين في الحلول مكانه لفلاحة الارض. فسرعان ما اشتهر بسخائه العظيم وطيبته المثالية.

وفي بعض الأحيان، عندما كان عليه ان يقوم بزيارة خارج القرية، كان يقبل بأن ينقل " بالطنبر"، وأكثر الأحيان كان يفضل التنقل سيراً على القدمين.

وابناء الرعية من جهتهم صاروا يتجمعون لسماع وعظه والاصغاء اليه " مسحورين وصامتين" على حد تعبير أحدهم.

كان لا يزال دروسه، وكان قسم اللاهوت في الجامعة لا يزل مفتوحاً (اذ قد أوقفته الحكومة بعد ذلك بسنة) فتسجل فيه طالباً واح يعمل على اكمال الاطروحة التي بدأ كتابتها في روما عن القديس يوحنا الصليبي. وعندما قدمها صيف 1949 حاز على شهادة الملقنة باللاهوت، فنقله اثر لك الكاردينال سابياها الى رعية القديس فلوريان الحية في كراكوفيا. فقال اهل نياغوفيش متحسرين: " ما كان جيداً حقاً لا يدوم. فمئذ رأيناه للمرة الاولى عرفا انهم سيأخذونه منا. انه انسان طيب حقاً؟.

كانت خسارتهم هذه ربحاً لرعية لقديس فلوريان. ففي ساحة السوق الصغيرة، خارج الكنيسة، كانت شلة من أبناء الرعية تنتظر وصول الكاهن الجديد. كانوا على الطريق التي سيأتي منها شاخصي الابصار، قلقين منتظرين اطلالة السيارة التي استأجرها ولا ريب، أهل نياغوفيش لنقله.

فشغلهم انتظار السيارة الى درجة انهم لم يشعروا بوصول " الطنبر " العتيق – يجره حصان واحد –
يتدحرج " نحوهم. وما كاد يصل اليهم حتى شاهدوا فيه شاباً يلبس قمبازاً وقبعة رومانية. وقبل ان
يستفيقوا من دهشتهم قفز من طنبره واتجه نحوهم ماداً يده مسلماً:
" أنا الأب فويتيلا "

وكان يحمل بيده اليسرى حقيبة صغيرة وبعض الكتب. وكان أحد المنتظرين قد تسلق " الطنبر"
يفتش عن شيء ما، وإذ لم يجد ما يطلبه سأل: "أين أمتعتك، أبت؟".
فأجاب الأب فويتيلا، وقد فاجأه السؤال: " أمتعتي؟ أنها هنا، معي."

استاء ابناء رعية القديس فلوريان من أبناء رعية نياغوفيش لأنهم بعثوا بخادم رعيته بلا سيارة
وبدون أمتعة. وأعلنوا احتجاجهم بهذا المعنى. لم يكونوا بعد قد تحققوا من أن الأب فويتيلا لا
يصغي إلى أحد في مثل هذه الأمور وان المتاع لا يهمله والتبجح لا يعرف اليه سبيلاً.

استولت عليهم الحيرة! فهل يجب أن يثير فقرة الفاضح شفقتهم أم شكهم؟

كان فمبازه باهتاً رثاً مرقعاً برقع كبيرة لا يستبعد ان يكون قد خاطها بنفسه.

فصارت هذه الرقع تشغلهم خصوصاً انها كانت تظهر يوماً بعد يوم أكثر تجاوراً.

وقرب فصل الشتاء فازدادوا قلقاً، لأن البرد القارس سيقضي عليه وهو في كرى الاعتراف يقضي
الساعات الطوال ولا وقاية له سوى هذا القمباز !

ثم قيل أنه في السكرستيا " كنزة" صوف بلا كمين ، فصاروا يعللون النفس في أن يروه مرتدياً تلك الكنزة ولكنها بقيت معلقة في مكانها. وفي هذه الاثناء كان الأب فوتيلا يفتح لكل طارق مرحباً بكل عابر سبيل متحدثاً اليهم طويلاً رغم ارتفاع درجات الصقيع .

ان ابناء رعية القديس فلوريان لم يعودوا يتقبلون وضعه بل قرروا ان يلبس فمبازاً جديداً ويقتني بالمناسبة معطفاً جديداً.

وإذ كانوا على علم بقله حظهم في اقناعه ، قصدوا خوري الرعية لمساعدتهم فطلبه هذا وأمره بقبول القمباز وسها عن باله ان يأمره بقبول المعطف. فاتجه الكاهن المعاون الى أبناء الرعية يشكرهم ويعلن سروره بقبول القمباز – لا المعطف.

وإذ لم يكتفوا بالنتيجة اشتروا قماشاً و " تحايلوا" عليه لاصطحابه الى الخياط لأنه لا سبيل إلى ذلك بطيبة خاطر منه. وما أن دخل حتى اسرع الخياط بأخذ قياساته على غير علم منه. فوجئ الاب فوتيلا طبعاً " بالحيله" سلم أمره الى الله.

وشكر ابناء رعيته أيضاً بحرارة لأجل المعطف لكنه لم يرتده. وانتظروا طويلاً ليروا المعطف على كتفيه. لكن انتظارهم كان بلا جدوى ، فظنوا انه قدمه هدية، فانصرفوا عن كل محاولة لوقايته من قساوة الشتاء البولوني. واكتفوا تعزية بان قمبازه الجديد خال من الخرق على الأقل واصبحوا مقتنعين بهذا الواقع وهو أن الأب فوتيلا " غير شكل".

وقالت المرأة التي تعنى بتنظيف غرفته : يبدو أنه لا ينام في سريره. فكان اما ان يفترش الحضيض واما يصرف الليل كله في العمل. وتبين فيما بعد انه كان يحمل في جيب قمبازه مفتاحاً للكنيسة فيتجه ليلاً اليها قاصداً السكون والوحدة.

هذا التصرف الخاص به جعل ابناء رعيته يتمسكون به أكثر فأكثر ويحبونه من كل قلوبهم. فما أن حل عيد القديس شارل، شقيقه في العماد، (في بولونيا كما في سائر أوروبا الكاثوليكية، يحتفل بعيد الشفيح لا بذكرى المولد) حتى بدت الرعية وكأنها قد هجمت بكليتها على دار الخورنية تتمنى له حظاً سعيداً. أما الصغار فكانوا يهرعون اليه فيأخذهم بين ذراعيه ويقولون له ما يخطر لهم ببال. وأما اهلهم فكانوا يتقدمون منه على شيء من الحياء ويسرون اليه عبارات التهاني وكأنهم يعترفون بخطاياهم ليس المهم ما كانوا يقولون. بل المهم هو تعبيرهم عن عاطفتهم تجاهه.

قد يكون وضعه الدراسي لطويل الأمد هو الذي أبغاه قريباً من الفتیان أطفالاً كانوا أو مراهقين.

وكانوا ينادونه " فوجيك " أي " عمو " ويقصدونه دائماً مسترشدين. وكان بدوره يخاطبهم كأنه منهم بعيداً عن كل روح هيمنة، مبدياً اهتماماً اصيلاً بكل ما يبدو منهم.

كان يجمع حوله الطلاب والعمال والشبان، وينظم لهم الرحلات، ويمارس معهم رياضة التزلج على الثلج، يقودهم إلى أعالي الجبال ويحدثهم هناك عن الله. وكانوا يبدون جوعاً وعطشاً إلى كل ما بوسعه أن يقدمه لهم بعدما صارت تربيتهم تسير في الخط الماركسي الصرف.

ولقد كلف بأولاد الخورس بصفته الكاهن الاصغر سناً والاحداث خدمة في الرعية.

تلك كانت مسؤولية روتينية أخذها هو على عاتقه بجدية تامة وصمم على التعرف ليس فقط بالأولاد أنفسهم بل بذوبهم كذلك. فزارهم جميعاً في عيالهم. وكانت زيارته ودية يتحاشى فيها الارشاد والتعليم ويكثر من التحدث والاصغاء.

ويقولون : " كان يصغي، وكانت عنده المهوبة العظمى للوقوف على المشكلة فيتجه في الحال نحو لبها محاولاً المساعدة".

اعتاد الكهنة في بولونيا زيارة رعاياهم بين عيدي الميلاد ودخول المسيح إلى الهيكل (2 شباط) ومشاركة العيال التي يزورونها في ترنيم أناشيد الفرح.

واحب الأب فويتيلا هذه العادة وكان يطيب له أن ينشد بصوته الجهير الأول (باريتون) الالحن البولونية الجميلة.

وقد فاجأ بزيارته يوماً أحد خدام الخورس الجدد حيث وجد عيلة من ستة أفراد يعيشون في غرفة واحدة في الفقر المدقع : الأب مصاب بمرض مزمن منذ الحرب ، والأم تبذل أقصى جهدها في غسل الملابس وخدمة البيوت لتؤمن القوت واللباس لعيلتها... ارتبك اعضاء العيلة أولاً لرؤيته بينهم، ولكنهم اسرعوا الى الترحيب به مقدمين له قطعة خبز صغيرة وفنجان زهورات.

الحق يقال انه صعق لوضعهم المعيشي، وأراد أن يقدم لهم شيئاً، ولكن لم يكن لديه ما يقدمه فاستعاض عن ذلك بأن روى على مسامعهم قصة دعوته الكهنوتية وكيف أنه، بعد الحادث لبي النداء. وأكد لهم أن ذكرى هذا النداء هي " أثنى ما يملك ". (تلك كانت المرة الوحيدة التي تحدث فيها عن نفسه ولم يكن قد رواها لاحد حتى ذلك الحين).

تعدت شهرة الأب فويتيلا حدود رعية القديس فلوريان واصبح وعظه أسطورياً. وحاد كلياً عن موضوع السياسة (كان ذكر الخير والشر وحده كافياً لإثارة سخط السلطات). وعمل على حث الناس على الوثوق بالله.

كان صوته مغناطيسياً. ولكن لم يكن الصوت وحده السبب في أن تشد اليه الجماهير من جميع أنحاء كراكوفيا، بل بحسب قول أحد ابناء رعيته السابقين، " لأن ما كان يقوله كان بسيطاً سهل الفهم

مدهشاً لما فيه من اخلاص. يجعلك تشعر وكأنه يقودك بيدك الى الله. لم يكن يعتبر نفسه وسيطاً بينك وبين الله بل يهتم في أن يضعك مباشرة في حضرة الله. لقد كان راعياً حقيقياً، الحق يقال".

أياً كان وقت عظته، كانت الكنيسة تغص بالحضور حتى الشارع. وقد اعتاد طلاب الجامعة المجيء باكراً جداً ليحظوا بمقعد قريب من المنبر. لم يكن يبهرهم بالخطابة بل يحدثهم مباشرة عن واقع اوضاعهم.

قالت امرأة : " لقد علمنا اتباع رسالة الانجيل وان كل ما عداها ليس بذي شأن. فتعلمت انا شخصياً ان الله لا يطلب المستحيل. لنعمل ما نقوى عليه وهو يقلبنا".

يا لسخر القدر ! لقد تخلى الكاهن الشاب عن فكرة العمل المسرحي، ولكنه أصبح الآن، كل مرة أراد فيها مخاطبة الناس، أمام جمهور كبير من المستمعين المعجبين. وبألفاظ هائلة أيضاً ! فكم من مرة، بعد العظة، كان يجد في أعقابه، في شوارع كراكوفيا، فريقاً من المعجبين المتعصبين له يتبعونه للاستماع الى العظة ذاتها في كنيسة أخرى، فكان يحاول عبثاً أن يثنيهم عن ذلك.

لقد بلغ الاعجاب به حداً صار معه أي تخلف عابر منه عن الحضور يأخذ حجم الكارثة. ففي مساء يوم أحد فيما كانت الكنيسة تغص بالحضور اعتلى منبر الوعظ كاهن غريب. فاتخذ الحدث طابع المأساة اذ استمع الحضور الى الكاهن المنكود الحظ بصمت، وعلى وجوههم علامات عدم الرضى. وما ان انتهى القداس حتى اندفعوا إلى دار الخورونية كتلة واحدة يظهرون عدم رضاهم عن هذا الغياب غير المعلن عنه مسبقاً أكثر مما يطلبون له تفسيراً.

وقد وصف أحد أبناء الرعية هذا المشهد بقوله : " لقد سادت ضوضى حادة وعم الغضب".

لقد كان عليهم ان يظهروا تفهماً اكثر، اذ أن فويتيلا اصيب زمن الصوم بالتهاب في حنجرتة اخفى صوته. كان ذلك أثر حادثة المعطف، فاعتبر ابناً رعيته انه نال جزاءه. وقال أحدهم : " كرهنا عجزه عن الوعظ ولكننا نأمل في أنه سيأخذ عبرة فلا يعود يتجول في أوج الشتاء بدون ثيابه كاملة".

لم يكن صديقه الكبير ومرشده سايبها كاردينال كراكوفيا يخشى الستالينيين كما لم يخش النازيين قبلهم. فلن يقف مكتوف اليدين حيال محاولات الماركسية الحلول محل الدين. فقد كتب عام 1950 ، بالاشتراك فيشنسكي رسالة إلى الرئيس بياروت فيها الحكومة بالنياب السيئة حيال الكنيسة. ا كان الحكومة قد قامت بحملة تشويه لسمعه رجال الاكليروس، وعملت على اقفال المزيد من المؤسسات، وعلى تعطيل الصحيفتين الكاثوليكييتين " زناك " و " تيغودنيك " الى أجل غير مسمى. فأجابت الحكومة بأنها تتهم الاساقفة الكاثوليكيين بعدائهم للنظام وبالخيانة فيما خص الاعتراف باقضية اودير – نايس.

في الواقع كان معظم البولونيين، ومن بينهم معظم السلطات، يشعرون بتعلق بهذه المقاطعات. وعليه فقد تعهد الكاردينال سايبها بالذهاب الى روما واقناع البابا بتعيين اساقفة على هذه الاقضية. فذهب الى روما ولكن صوته لم يلق استجابة اذ اصر البابا بيوس الثاني عشر على ان هذه المقاطعات لا تخص بولونيا شرعاً. ورفض بالتالي ان يعين عليها اساقفة اصلين. فعاد سايبها صفر اليدين وازدادت العلاقات مع الحكومة تعثراً. وبعد أشهر قليلة مات سايبها.

جاء وت سايبها (الذي لقبه الشعب بالامير الامير، لأنه كان أميراً بالمولد وأمير الكنيسة) ضربة قاصمة ليس بالنسبة لأمثال فويتيلا الذين يدينون له بالفضل الكثير وحسب، بل وبالنسبة الى كل سكان كراكوفيا أيضاً لقد احبه هؤلاء وهابوه. فكان كاردينالهم الذي لا يقهر، اذ عرف اني يقف بوجه الطغاه بلا وجل.

عندما أصبح كاردينالاً في روما عام 1946، رفض اللباس الاحمر، مؤكداً أنه " لن يلبسه ما دامت بلاده في ذاب". وقد زاد حب شعبه له بعد هذا الموقف النبيل.

ولن ينسى مآتمه أحد ممن حضروه. ففي كراكوفيا يتحدثون عنه بعد مضي سبع وعشرين سنة وكأنه جرى أمس.

كان الكاردينال قد أوصى بأن يقام له مأتم بسيط، غير أن شعبه أعد له وداعاً حافلاً. فحمل جثمانه من المقر الاسقي في شارع الفرنسيكان وعبر هذا الشارع الى كنيسة الفرنسيكان (حيث أقيم في حديقته حجر تذكاري باق إلى اليوم حفر عليه " صلاة في ليل الاحتلال الدامس ". ومن هناك نقل الى كاتدرائية وافيل ليرقد إلى جانب اسلافه رؤساء كراكوفيا.

وكان بين الكهنة الذين تناوبوا على حمل النعش وسط الجماهير الباكية كارول فويتيلا.

من المحتمل ان يكون الكاردينال سابياها قد فكر قبل ان يفارق الحياة في الخطر المحدق بمحكمة الأب فويتيلا من جراء تعلق رعية القديس فلوريان الشديد به. وعلى كل، فحالاً بعد موته 1951 قرر خليفته اوجين بازباك اه حان الوقت للتغيير.

قال أحد ابناء رعيته السابقة بتنهد وتحسر : " ابعده الى رعية القديسة كاترين في كراكوفيا كي ينصرف لمتابعة دروسه بسلام دون أن يزعجه أي منا.

لقد حزنت الرعية لكن(أضاف هذا بلهجة المنتص) لن ينسانا كما أننا من جهتنا لا نستطيع ان ننساه. لم نعد نستطيع ان نمل اليه دائماً مشاكلنا، ولكن عندما اتى عيد شفيعه في العماد قصده وفد غفير (سيراً على الأقدام أو بالقطار) لتهنئته بالعبد. ثم أننا في مناسبات العمادات والزيجات والمآتم ندعوه للمشاركة وهو يلبي على قدر إمكاناته".

البرشانة البيضاء

حرر فويتيليا من عمله الرعوي لمدة سنتين كي يتفرغ لدراسة الفلسفة وللأعداد لشهادة تعليمية. يبدو أن ميوله في تلك الفترة كانت تترجح بين حقلين دراسيين مختلفين في الجوهر، لكن مؤتلفين من بعض الوجوه هما : فلسفة الاخلاق، وعلم الاخلاق الفلسفي. فلم ينقطع عن السعي للتوفيق بينهما، وهذا أمر يعتبره غيره من الفلاسفة البولونيين مستحيلاً.

لقد كان مأخوذاً بدراسة علم الأخلاق وإذ كان تلميذاً للفينومينولوجي الكاثوليكي رومان إنجاردن، راح ينمي ذوقه في بحوث الفلسفة المعاصرة، مكثفاً قراءاته عن الفينومينولوجيا (1) والشخصانية والوجودية، متعمقاً في دراسة مؤلفات مارتين بيبير وغبريال مرسيل وايمانويل مونيه، وخصوصاً ماكس شلر.

كان يأمل في التوفيق بين هذا التبصر العميق في الحياة اليوم وتعاليم القديس توما الأكويني التقليدية.

كان ماكس شلر تلميذ هسرل (الفيلسوف الالماني الذي تأثر به كل من ساتر وهايدجر ومرلو - بونتي). وكان يعتقد انه لا يمكن تفسير انسان

1- فينومينولوجيا : علم الظواهر أو الدراسة الفلسفية لتطور العقل (المترجم)

بنظرات فلسفية (كنظريات فرويد مثلاً). وإن الموضوعية العلمية ذاتها تتعلق بمفهوم الانسان الذاتي لنفسه ولعلاقته بالعالم وان تأثرات الانسان العاطفية لا يمكن ردها الى مجرد صيغ فيزيائية - فالحب مثلاً هو أكبر من نزوة بيولوجية. وقد كتب فويتيليا حول هذا فقال : " ماهية الحب عند شلر هي في اساس نظرتة الفلسفية، إذ ان الحب " رائد القيم" أي به تعرف الجودة وسائر القيم وبواسطته تميز. وحيث لا حب فهناك العجز عن المعرفة".

ان يكن فويتيليا قد استعار الكثير من أفكار شلر فإنه جعلها خاصة به، أو بالاحري حاول ان يوفق بينها وبين افكار القديس توما.

ولقد كتب بإشراف الاستاذ الاب فيشر أطروحة بعنوان: " إمكان إقامة نظام خلقي مسيحي على اساس فلسفة ماكس شلر"، منح على أثرها دكتوراه (هي الثانية) في الفلسفة من جامعة جاجيالونيان. هذه الرسالة نشرت في كتاب عام 1959 حاوية مؤشرات كثيرة لمؤلفات فويتيليا المستقبلية. ومهما بلغ تقديرنا لأثر ماكس شلر في تفكيره، فليس في ذلك اقل مغالاة.

مما يؤسف له ان الحكومة عملت بعد سنة من ذلك على اقفال قسم اللاهوت في الجاجيالونيان، فأيقظت في نفس فويتيليا هوى الحرية الاكاديمية الذي لم يعد يعرف الخمود. فراح سنوات عديدة يلح على السلطات لإعادة فتح هذا القسم، لكن بلا جدوى (فهو لا يزال مقفلاً حتى الآن).

ومع ان مدارس اكليريكية كثيرة بقيت مفتوحة فإنه لم يسمح بالدروس اللاهوتية العليا الا في جامعة لوبن الكاثوليكية المستقلة وفي أكاديمية اللاهوت الكاثوليكي التي أنشئت حديثاً في فرصوا كبدل من الجامعة حيث كان الاساتذة يتقاضون رواتبهم من الدولة.

في هذه اثناء كانت الحكومة منهمكة في خلق منظمة " الكهنة الوطنيون" لتعمل، على غرار منظمة "السلام" على تأبيد برامجها.

وإذ كان واضحاً ان هدف هذه الحركة شق الكنيسة، قرر فيشنسكس، رئيس الاساقفة (الذي لم يصبح كاردينالاً إلا عام 1953) بدء النشاط المضاد.

كان فيشنسكي براغماتياً. (2) ورغم انه يعرف جيداً نياب الشيوعيين وهو مجرد من كل وهم تجاههم، فقد صب كل حرصه على صيانة وحدة الكنيسة واحدة، عقد اتفاقاً مع الحكومة عام 1950 وافق بموجبه على أن تخسر الكنيسة ممتلكاتها (ما خلا الكنائس العاملة حالياً ودور الخورنيات) على اعتبار الكنيسة، في بلد اشتراكي، تتخلى عن حقوقها في الملكية الخاصة. لقد أثار بهذا الاتفاق استياء البابا بيوس الثاني عشر الشديد منه.

على كل حال، فقد اسرعت الحكومة في نقصه، عامدة الى مساندة " الكهنة الوطنيون" ومنظمة " السلام"، محرمة جميع المنظمات الكاثوليكية ورافضة السماح بإعطاء الجريدتين الكاثوليكييتين " زناك" و" تيغودنيك" نصيبهما من الورق.

كان الكاردينا فيشنسكي متمسكاً بتقليد قديم يرقى الى بولونيا الملكية، يقضي بأن يوكل إلى رئيس الاساقفة طوال فراغ العرش الملكي بمهمة إدارة شؤون الأمة، معتبراً الدولة أمانة في عنقه. فكان مستعداً كل الاستعدادا لتحدي الستالينيين دفاعاً عن روح الأمة. فلم يكن إلحاد الحاكمين يهيج غبه بقدر ما كانت وحشيتهم و " ايديولوجيتهم غير الانسانية" تثير شكواه المرة

لقد أخفق أخفاق سابيها في اقناع الفاتيكان بتعيين اساقفة اصيلين على مقاطعات الاودير نايس فشرع بالمذلة من جراء هذا الاخفاق. وأبدي تدمره

2- البراغماتية، أو المذهب العملي، فلسفة أمريكية تتخذ من النتائج العملية مقياساً لتحديد المبادئ الفلسفية وصدقها(الترجم).

في مؤتمر صحافي عقده في روما قال فيه: " تتحدثون عن كنيسة اصمت، اما هنا، في روما، فيجب التحدث عن كنيسة الطرشان".

على كل، لم يكن لدية الخيار، بل كان عليه ان ينفذ سياسة الفاتيكان، الأمر الذي قوى الحكومة ضده، وسهل اتهامها اياه بخيانة مصالح بولونيا.

يضمن دستور بولونيا الجديد المعلن عام 1952 حرية الضمير والمعتقد لجميع المواطنين . وقد جاء فيه :

" تستطيع الكنيسة وسائر الهيئات الطائفية القيام بمهامها الدينية بحرية.

وليس لأحد الحق في ارغام المواطن على مقاطعة الاحتفالات الدينية".

تلك كانت كلمات عذبة لا تستحق الحبر الذي أسيل لكتابتها ! ففي الوقت الذي كان يعلن فيه الدستور، كانت المدارس الاكليريكية تقفل في كل مكان. لقد وضعت الدولة يدها على تسع وخمسين منها ودفعت بمعظم الطلاب الى معسكرات السخرة. وكثفت في ذات الوقت حملتها التشهيرية ضد الاساقفة والكهنة، ولم تنقض سنة 1952 إلا وقد زج في السجن ثمانية اساقفة (من بينهم بازيك رئيس اساقفة كراكوفيا ومدبرها الرسولي ورئيس فويتيللا) وأكثر من تسعمئة كاهن. احتج فيشنسكي على تدخل الدولة في شؤون الكنيسة فكان الجواب زج عدد جديد من الكهنة في السجن.

وفي ايلول 1953 ازدادت الأمور تأزماً، في أثناء المحاكمة الصورية التي أخضع لها كازماريك اسقف كيسانس والمماثلة لتلك التي تجري في جميع البلدان الاوروبية الخاضعة للسيطرة الشيوعية. كان الاسقف كازماريك قد اعتقل منذ اثنين وثلاثين شهراً، من غير ان يستمع اليه طوال هذه المدة. وعندما أخضع منذ اثنين وثلاثين شهراً، من غير ان يستمع اليه طوال هذه المدة. وعندما أخضع

للمحاكمة اتهم نفسه بارتكاب " الجرائم " ضد الدولة، وذلك من ثلاثين سنة، أي قبل الاحتلال بزمن بعيد؟ ثم شهر بالكاردينالين المتوفيين هلوند وسابياها.

فهل بقي من مجال للشك في النتيجة التي ستؤول اليها المحاكمة؟ فقد حكم على كازماريك المنكود الحظ بالسجن اثنتي عشرة سنة بتهمة الخيانة والتآمر مع الألمان!

وإذ احتج الكاردينال فيشنسكي ساخطاً، صدر بحقه مرسوم حكومي يجرده من مهامه في الإقامة الجبرية. جاء في المرسوم:

" اتخذ هذا القرار بحق الكاردينال اسطفان فيشنسكي بعد تمرسه في اساءة استعمال مهامه الكنيسة وذلك رغم التحذيرات المتكررة التي وجهت اليه.

فقد خرق بروتوكول التفهم، وأثار البلبله، خلق جواً مؤتياً للنشاطات المعادية...."

تدبر فويتيلام أمره ليبقى في خارج السجن خلافاً لما فعله رئيسة بازياك. وركز اهتمامه على الشؤون الرعوية ولم يتدخل في الشؤون السياسية، وبمكننا القول الآن انه " بقي في الظل " باستثناء الرعوية ولم يتدخل في الشؤون السياسية، وبمكننا القول الآن انه " بقي في الظل " باستثناء بعض المناوشات الطفيفة والصدقات الخفيفة، إذ لم يكن وقته قد حان بعد لقيادة المعركة. ففي عام 1953 بدأ يعلم اللاهوت الادبي والخلق الاجتماعي سراً كما في ايام الاحتلال في اكليريكية كراكوفيا المحرمة.

وفي السنة التالية عين مرشداً روحياً لطلاب كلية الفلسفة في جامعة لويلن الكاثوليكية.

عن تلك الحقبة بقول أحد زملائه الأب فيلكس بدرسكي، وهو دومينيكي بولوني يدرس اليوم في الانجيليكوم في روما: " كان متفائلاً، ومتفائلاً أصيلاً، في غاية السعادة عندما يعمل مع الشبيبة. قد يكون مرد ذلك إلى أيام تعليمه الاولى، أو إلى زمان المسرح الريبسودي.... كان الطلاب يحبون البقاء معه دئماً، إذ كان يضيفي رؤى جديدة على المشاكل التي كانوا يطرحونها عليه."

في هذه الأثناء، كان قد بدأ التأليف بغزارة تاركاً العنان فيه لميله الطبيعي إلى الفكر المجرد.

ظهرت قصيدته الاولى " نشيد الماء الوهاج " عام 1950 تحت اسم مستعار (اندره جافيان) في جريدة تيفودنيك. ومع انه كان يوقع اسماؤ أخرى مستعارة ليخفي هويته ، فقد بقي جافيان اسمه المفضل.

وجدير بالملاحظة ان جافيان هو اسم بطل في رواية شعبية كتبها قبل الحرب الأديب البولوني باراندوسكي بعنوان " السماء المشتعلة". انها قصة شاب فقد ايمانه المسيحي ثم استعاده وأهدى حياته الى الله.

لم تكن جميع قصائد فويتيلا – جافيان دينية بل خلقية وفلسفية كذلك ، تدور حول جوهر انسانية الانسان وشرف الخليقة جمعاء (قيل دائماً انه فرنسيسكاني القلب). كان يقدم الصورة الحسية ليبرز عدداً من الحقائق غير المحسوسة.

كان الاضطراب يرفخ كالعجين. مات ستالين 1953 وبقي نظامه ينبض حياة . ولم يظهر الشق الاول والأكبر في جليد الشيوعية الا عندما شجب خروتشيف الجرائم التي ارتكبها سلفاؤه، وذلك أمام المؤتمر العشرين للحزب، ومع ذلك كانت طريق النهاية تبدو طويلة وطويلة جداً. وعندما جاءت النهاية، اعتقد كثيرون انالفضل في ذلك يعود الى العذراء وحدها. ففي حزيران 1956 انطلق ستة عشر الف عامل من معمل ساجيالسكي في بوزنان في مظاهرة في الشوارع مطالبين " بالخبز والحرية"

في الخامس عشر من آب 1956 ، عيد انتقال العذراء، توجه آلاف المؤمنين شأنهم في كل سنة إلى أعلى الهضبة حيث يقوم دير تشيستوشوفا في ابرشية كراكوفيا.

كانت المناسبة في تلك السنة مناسبة خاصة أنها التذكار السنوي الثلاثمئة لانتصار الجيش البولوني غير المنظم على تسعة آلاف جندي من الجيش السويدي المنظم والمدرب ، بفضل النذر الذي نذره

لاحقاً الملك يوحا كازيمير للعدراء. فصارت تشتستوشوف منذ ذلك الوقت مرادفاً للوطنية ورمزاً للهوية القومية يفعل فعله في النفوس اليوم كما كان لثلاثمئة سنة خلت ونيف.

مليون ونصف اتجهوا في ذلك اليوم الى تشيستوشوفا. اوف منهم أتوا من المدن والقرى البعيدة سيراً على الأقدام، قاطعين أكثر من ثلاثمئة كيلومتري، طالبين من العدراء وضع حد للاستبداد وتحرير الكاردينال فيشنسكي الذي كان لا يزال في الإقامة الجبرية في أحد الأديرة في جبال يباسزادي. وحملوا عرش رئيسهم فارغاً وساروا به باحتفال فوق رؤوس الجماهير المتموجة وعليه باقة كبيرة من الورد الاحمر والابيض – لوني العلم البولوني.

في تشرين الاول " أعيد " المارشال السوفياتي روكوسوفسكي – وكان قد عين قائداً أعلى للجيش البولوني – الى موسكو، فأعدت المزارع على الأثر الى اصحابها، وبعض الملكيات الخاصة إلى مالكيها الاصليين. فهال الامر خروتشيف الذي خف طائراً إلى فرصوفا مصحوباً بمجموعة مذهلة من كبار الضباط السوفيات. وبدأت المحادثات ودخلت الدبابات الروسية. كان البوبونيون وعلى رأسهم غومولكا يطلبون " طريقاً بولونية نحو الاشتراكية".

فعنفهم خروتشيف دون أن يوفق إلى زحزحتهم. وخارج مكان المحادثات كانت الجماهير تتأجج وقد تدفق جميع السكان الى الشوارع. تنازل خروتشيف عن مطالبه فداخل النفوس شعور بالنشاط والخفة كنشوة الخمرة.

كان ربيع في تشرين الاول لم يكتب له الدوام، ولكنه كان طوال ذلك مسكراً (با لجبرانهم الهنجايريين كيف أحببت ثورتهم بلا شفقة. في بودابست لم تتوقف دبابات الروس في الضواحي شأنها في فرصوفا!).

افرج غومولكا عن الكاردينال الذي وعده بالمساعدة لقاء ذلك داعياً الكاثوليكيين البولونيين الى " الولاء للجمهورية". لقد كان ما يفرق بين الرجلين أكثر بكثير مما كان يجمع. لكن ما لا شك فيه ان كليهما

بولوني وكليهما عانى السجن من أجل مع 7 تقدراته وان كلا منهما كان واقعياً. فإن لم يوحد قواهما في هذا الظرف فلن تقوى بولونيا على البقاء.

وتم الاتفاق على أن يفرج عن الاساقفة والكهنة المسجونين، ويعاد التعليم المسيحي إلى المدارس، وتحترم حرية المعتقد. وتعترف الكنيسة من جهتها بالوضع السياسي القائم، وتقبل بأسسه الاقتصادية. وقد جاء نص الاتفاق كما يلي :

” يعلن ممثلو الاساقفة عن مساندتهم التامة لما تقوم به الحكومة لتقوية الشعب البولوني وتنميته، وتركيز جهود المواطنين على عمل متجانس لمصلحة الوطن، ولتطبيق واع لشرائع الشعب البولوني ولقيام المواطنين بواجبهم كاملاً تجاه الدولة.

عندما أجريت انتخابات 1957، شجع الرؤساء الروحيون على المشاركة فيها وذلك لأول مرة منذ استولى الشيوعيون على الحكم.

كان هذا كله يبدو لصالح الكنيسة. ولكن عندما قصد الكاردينال فيشنسكي روما، ليشرح للبابا ايجابيات الاتفاق كان البابا مستاء الى درجة جعله ينتظر اياماً طويلة قبل ان يحدد موعداً لمقابلته.

* * *

في أثناء هذه الفترة القصيرة من الحكم الشيوعي والتي مرت بلا تمزق عين فويتيلا اسقفاً . (بقي

الاتفاق سارياً حت عام 1961 حين نقصته تدابير حكومة غومولكا التعسفية).

كان هذا التعيين غير منتظر، لأنه لم يسبق ان شغل منصباً كنسياً مميزاً وكان لا يزال شاباً.

في سن الثامنة والثلاثين يكون فويتيلا الاسقف البولوني الاصغر سناً.

عندما بلغه خير تعيينه اسقفاً كان في زورق في بحيرة ماسوريا وكانت تلك رياضته المفضلة إلى جانب

التزلج على الثلج. وكان الهروب الى ماسوريا آخذاً معه ما يحتاج اليه من الكتب ومذبحاً صغيراً

نقلاًً يقدس عليه. أما الصليب فكان يرتجله من المجذافين.

في هذا الظرف لقي موفدو الكاردينال فيشنسكي صعوبة شاقة في تعقبه وعندما التقوه صحبوه عائدين على غير رغبة منه.

قال له الكاردينال : " عينك البابا اسقفاً فهل تقبل ؟ أنت تعلم ان الأب الأقدس لا يحب ان ترفض له رغبة" (وكان فيشنسكي يعلم ذلك جيداً جداً).

ففكر فويتيلا قليلاً ثم طلب مهلة للجواب ريثما ينهي رحلته. فارتضى فيشنسكي. وعاد فويتيلا يقضي الام الثلاثة الأخيرة في سلام وعزلة رجع بعدها إلى كراكوفيا ليعلن تعيينه.

فأصبح فويتيلا بصفته أسقفاً يزور كل رعية في أبرشيته، ويقدم في كل كنيسة، ويزور كل دير، ويتعرف كل كاهن.

بعد ذلك بسنين، وفي مجرى سلاسل من التأملات ألقاها في الفاتيكان، وصف تصويره لدور الاسقف فقال:

" أترككم مع مشهد يزور رعية ما زيارة قانونية. هذه الرعية ليست فقط جزءاً من كنيسته بالمعنى الاداري، إنما هي جماعة شعب الله. وهذا الشعب يحمل في ذاته، رغم اسقامه واخطائه وعبوبه رسالة لمسيح المثلثة وسمة الملك التي نقلها هو ذاته اليهم. فعلى الاسقف ان يتبين هذه "الملكية" وهذه الكرامة في المناسبات المختلفة: في الفتيان عندما يقبلون سر التثبيت، وفي الأزواج والزوجات عندما يجددون وعدهم الزوجي امامه، وفي المريض أو المسن عندما يزوره في المستشفى أو البيت. كرامة الانسان وملكيته تتحدران من المسيح، وهذا ظاهر في الفرح الذي يرافق اقامة الاسقف مع الرعية.

ومع تصاعد صعوبات الحياة، في العائلة والمجتمع والعالم، تزداد حاجة الانسان أكثر فأكثر الى راع صالح " يبذل حياته في سبيل خرافه".

فالأسقف الذي يزور جماعات كنيسته يكون كالحاج الاصيل ينتقل من معبد للراعي الصالح الى معبد له آخر. وحيثما يحل يلاق شعباً يشارك المسيح في كهنوته الملكي .”

سر أهل كراكوفيا لترقي الأب فويتيلا الى درجة الاسقفية، وتعبيراً عن سرورهم أهده، فضلاً عن الصليب والعصا الاسقفين، تاجاً مصنوعاً في دير تينياك (بنى في القرن الثاني عشر). وقد جرت مراسم سيامته اسقفاً مساعداً لمدير الروسلي في كراكوفيا، المنسنيور بازيك، في كاتدرائية وافيل ، في الثامن والعشرين من أيلول 1958 بعد ذلك بشهر تماماً، أي في الثامن والعشرين من أيلول، جلس انجيلو رونكالي على عرش البابوية باسم يوحنا الثالث والعشرين وتوج في الرابع من تشرين الثاني عيد القديس شارل بورومي شفيع كارول فويتيلا بالعماد.

فأل طيب!

على شعار الاسقفية كتب حرف M ولفظتي TOTUS TUUS (كلي لك) للدلالة على تعبده للعدراء القديسة مريم كتب ال M في زاوية الشعار السفلي، للدلالة على مكان مريم أي اقدام صليب ابنها يسوع).

واول ما قام بعد ترقيه الى درجة الاسقفية كان نقل رفات والدته من فادوفيس الى جانب رفات والده في كراكوفيا ذلك كان عملاً بنوياً براً بالوالدين عقد النية على إتمامه منذ زمن بعيد.

اسقفيته لم تبدل شيئاً من نمط عيشه. فظل يسكن شقة صعره ذات غرفتين ، منذ عودته من لويلن، ولا يجد مبرراً كافياً للانتقال منها إلى مسكن آخر.

وبقيت الدراجة وسيلته المفضلة في التنقل

وكان قمبازه باهت اللون ومرقعاً، وحذاؤه تهرا حتى أصبح بلا عقبين.

ويا لخبيفة أمل المرأة التي تهتم بتنظيف بيته ! لقد مرضت يوماً ووجب نقلها الى المستشفى بسيارة

الاسعاف فرفضت ذلك بحجة أنها اذا لم تنه ترفيع قمباز المطران فلن يجد شيئاً في الصباح التالي !

لم يفقد شيئاً من قدرته على جلب الجماهير وملء الكنيسة. لكن ما كان يخافه هو ان تعزله اسقفيته الى حد ما عن شعبه، الأمر الذي لم يرغب فيه مطلقاً.

لذلك اتخذ عادة بقي عليها طوال اقامته في بولونيا، وانتشرت في كل انحاء البلاد انها حفلات "الابوتاتيك".

والابوتاتيك برشانة بيضاء، او خبز فطير، (يطبخ عليها عادة مشهد من مشاهد الانجيل كمولد يسوع او العشاء السري أو صورة العذراء) اعتاد البولونيون كسرها ليلة الميلاد والمشاركة في أكلها رمزاً للحب والصدقة. أنها نوع من " القربان" دليل على التعاضد، وافخارستيا دنيوية، بدأ الاسقف فويتيللا ممارستها في الكنيسة. في كنيسة القديسة حنة الخاصة بالطلاب، كسر البرشانات البيضاء وسط الحضور ووزعها عليهم رمزاً لوحدهم. وعندما انتشر خبرها تهاطرت الجماهير الى كنيسة القديسة حنة للمشاركة ثم عمت الكنائس الاخرى.

لم يكن هذا كافياً بالنسبة لفويتيللا. حسن جلب المؤمنين ولكنه كان يريد الوصول الى غير المؤمنين ايضاً. أراد، على حد قوله: " أن يجلب الجميع الى برشانة الحب البيضاء".

هكذا بدأ يدعو إلى شقته، كل اسبوع، فريقاً من الاطباء أو الفنيين أو أهل الاختصاص في العلوم او المحامين أو الطلاب أو العمال أو الموظفين، مؤمنين أو غير مؤمنين.

كانوا ياتون إلى شقته الصغيرة للمشاركة في حفلة من نوع خاص فلا يجدون، عند تلبية الدعوة، طعاماً بل مائدة مزينة كما لويمة.

وتبدأ الأمسية بكسر الخبز وكاس خمر ومشاركة في البرشانة البيضاء.

تلك كانت مناسبات ثمينة بالنسبة إلى الجميع، ولا يبدو أن أحداً ما رفض تلبية الدعوة.

كان يعرف كل شخص باسمه ، وغالباً ما كانت الأمسية تنتهي بالموسيقى والأغاني الفولكلورية. لقد كان يتمتع بموهبة جمع الناس بعضهم الى بعض حتى ولو كانوا متفاوتين في السن أو الثقافة أو المنزلة الاجتماعية.... كان يهتم بما يجمعهم ويصرف النظر عما يفرقهم. وكانوا يغتنون بعشرته.

كان المثقفون ، من بينهم ماركسيون كثيرون ، يقدرون صداقته ورغبته في مد الجسور بين العلم والدين. وكان هو يرفض المعتقد السائد ان الواحد منهما يلغي الآخر. ولذلك كان يقرب بين هذا البرهان وذاك لا تسجيلاً للانتصارات بل طلباً للتوضيح والتعلم.

لم تكن المعرفة النظرية لتشبعه بل كان يجب أن " يختبر" وجهات نظره بمقابلتها بوجهات نظر الآخرين.

فما كان ليخشى الانتقاد وهو الثابت في معتقده. ولنه يعد نفسه اثناء المناقشات لقبول ما هو جيد من المواقف الفكرية التي لا يحبذها ، فقد كان يهيئ الكثيرين لفهم قوة موفقه بما لديه من قوة الاقناع. كانت امسيات " البرشانات البيضاء" هذه تفتح الطريق أمامه لنشاطات أخرى. فصار أحياناً يجمع الاطباء والمحامين ويأخذهم فرقاً الى الأديرة او المراكز الرياضية أمثال كلفاريا زبرزيدوسكا ذي الممر الكثير المنعطفات وذي الأربع والاربعين مزاراً وكنيسة. تمتد على جانبيه كمحطات للصلاة والتأمل.

يذكر أحد أطباء الجراحة اللامعين يوم قاد الاسقف فويتيلا فريقاً من الاطباء الى تشيستوشوفا حاجين. كان ذلك في منتصف فصل الشتاء والثلج يتساقط مثقلاً على الأرض. كان الاطباء يصلون تباعاً مزملين بمعاطفهم ، ضامي الأذرع على أجسادهم على أجسادهم لاتقاء البرد. " أما هو فلم يكن يبدو، وهو بقمبازه الرث ، انه يشعر بالصقيع بل كان يحصر تفكيره غي ارتجال صلوات درب الصليب وقيادتنا إلى الأمام. تلك كانت بالنسبة الى من أعمق الخبرات التي طبعت حياتي بطابع لا يمحي".

رغم اشغاله اليومية وانهماكه المتواصل كان في برنامجه دائماً وقت مخصص للطلاب.

قال أحد موظفي الجامعة : " من يره مع الشبان يقل انه يعيش حياته الطالبية من جديد".
لقد نشأ هؤلاء الشبان في مجتمع يجهر باحتقار القيم الدينية، فشر هو بواجب العمل على تقديم المسيح شخصاً لا يستغنون عنه في حياتهم، والانجيل كتاباً للحياة. كان يقيم لهم الرياضيات في كنيسة القديسة حنة (أحياناً بطلب منهم). غالباً ما كان يمضي معهم اليوم السابق لامتحانات الى الصلاة في دير تينياس. ويذهب معهم الى تشيستوشوفا على الدرجات، وإلى ماسوريا للتجذيف، وإلى جبال التاتراس للتزلج على الثلج، وخلال ذلك يجد دائماً وقتاً للنقاش والتأمل.

ويلاحظ أحد زملائه السابقين : " أنه يؤمن بالحوار – مثل سقراط ويسوع – سبباً للتعليم".
لقد كان له أيضاً وقتاً للمزاج وراحة البال. فاتفق ان كسرت امرأة أمريكية ساقها في اثناء تزلجها في زاكوبان، فنقلها الى المستشفى ورافقها فريق من الطلاب يغنون ويعزفون الموسيقي. وقد علمت فيما بعد أن عازف القيثارة في تلك الفرقة كان الاسقف فويتيلا.

واتفق ان التقى مرة امرأة من رعية القديس فلوريان ومعها ابن أخيها بطرس الذي يشاطرها المسكن. واخبرته ان والدي بطرس قتلا في أثناء الحرب، وانها هي التي ربتة بمعاونة جدتيه وعماته. ففكر فويتيلا ان لا بد للصبي من رفقة غير انثوية وفي مساء ذلك اليوم، قرع كاهن شاب باب تلك السيدة – التي تقطن الطبقة العلوية – ليقول وهو يلهث : الاسقف وفريق من الطلاب في شاحنة على المدخل. أنهم ذاهبون في رحلة الى زاكوبان للتزلج ومعها زائدتان، ويسألونها هل كان بطرس يرغب في الذهاب معهم.

وقبل ان تتلفظ عمته بكلمة كان بطرس قد بلغ اسفل الدرج....

إلى جانب حبه للتنزه مع الطلا (وقد اصبح بعد عام 19501 مرشدهم العام) بقي دائم التوق إلى هنيئات الوحدة. فكان يتحين الفرص "للهرب" فيمارس ف أثناء التزلج أو السير في الجبال وحده،

لابساً حذائين عاليي الساق وسروالاً واسعاً " مرححاً " والأنوراك والقبعة الصوفية تي يغرق فيها رأسه حتى الأذنين.

قال أحد عارفيه : " كل مرة كنت التقيه فيما تلفتني في شخصه حكمة القروي أو حكمة الانسان يشعر وسط الطبيعة والوحدة انه في بيته".

جلس يوماً وهو في جبال التاتراس مع أحد الجبليين (غورال) يشاركه الخبز والنقانق ويحدثه بلهجة تلك المنطقة العامية الخشنة.

فسأله الجبلي واكمل ساخراً : طيب! انت اسقف، وانا البابا".

فتبسم فويتيلا بسمة عريضة وغير موضوع الحديث.

كان اهتمام فويتيلا الشاب بأبناء رعيته ينمو ويزداد عمقاً مع توالي السنين.

ثم ان دراساته لماكس شلر والفينومينولوجيين أضفت بعداً فلسفياً على جهوده الحثيثة في التشديد على كرامة الفرد تجاه نظام سياسي يحدد الانسان من شخصانيته.

في بولونيا الشيوعية كانت الحياة العائلية هي الوسيلة الوحيدة التي يشعر معها الانسان بانه محرر من توجيهات الدولة وانه فيها وحدها يستطيع أن ينمو نمواً شخصياً.

ففي كتابه " حب ومسؤولية " الذي أصدره عام 1960 ينظر فويتيلا بعمق الى الانسان كفرد، ويدعو قراءه الى التفكير في نموهم العاطفي الذاتي وفي قدرتهم على خلق علاقات شخصية.

يتضمن الكتاب عرضاً شاملاً لعلم الاخلاق الكاثوليكي وبيدين به فويتيلا في الكثير من أفكاره لفلسفة

ماكس شلر (كان قد نشر في السنة السابقة دراسة جامعية حول نظام خلقي مبني على أفكار شلر

ويتناول البحث موضوع الحب بين الرجل والمرأة، الحب الذي هو بذل ذاتي متبادل لا استثمار

متبادل الحب الذي ليس مرادفاً للنشوة الجنسية. " وحدة الحب يعطي من كان مستخدماً للغير

امكان التحرك والتغيير".

من وجهة نظر فويتيلا المشكلة الكبرى التي نعترض حياة الرجل والمرأة، تكمن، لا في الفوضى الاجتماعية أو السياسية، (رغم القدرة الكبرى لهذه على تكوين حاجز يوقف النمو الشخصي) بل في ما يهدد نظامها الادبي الذاتي ووعيهما الكامل لمسؤوليتهما الشخصي الذي يفرضانه على نفسيهما.

تلك المسؤولية وهذا المسلك كتأتين عن التزامهما الشخصي بالحب. " حب ومسؤولية " في خطة الكاثوليكي المستقيم " كتاب معلم". يحاول تحليل تعليم الكنيسة التقليدي في الأخلاق الجنسية تعليلاً عقلياً وعلمياً. لكنه ليس مؤلفاً عقائدياً.

كتب الكسندر تومسكي من معهد كستون يقول : " تواضع الفيلسوف الذي يتبين صعوبة اكتشاف الجواب الصحيح يجعل من كتابه عملاً دفاعياً (أبولوجيا) بكل ما للكلمة من طيب المعنى".

نشر الكتاب أولاً في جامعة لوبلن الكاثوليكية فلاقى النجاح على الفور.

ونشرته فرقة " زناك " (العلامة) الثقافية عام 1962 في طبعة ثانية فنفذ للحال.

وقد رأى البعض فيه صورة مسبقة للرسالة البابوية العامة " في الحياة البشرية" التي نشرت عام 1968 وأثارت حولها الجدل الكثير.

أما ما أراد أن يشدد عليه فويتيلا في كتابه أكثر من أي شيء آخر فهو كرامة الانسان التي لا يستطيع أحد أن ينكرها عليه، ومسؤوليته الفريدة

كتابة الصغير " أمام حانوت الصانع" الذي نشر في السنة ذاتها تحت اسم اندره جافيان المستعار هو " تأمل" مأساوي العلاقات الانسانية جاء حاد المراقبة ومثيراً للمشاعر. وهو آخر ما ألف ان يعين رئيساً للأساقفة كراكوفيا (مدينته المحبوبة) مرتقياً بذلك إلى ثاني أعلى منصب كنسي في وطنه.

المجمع الفاتيكانى الثانى

قال أحد أصدقاء فويتىلا القدامى : " وقيل ان يصبح كارول فويتىلا اسقفاً لعب دوراً صغيراً فى السياسة من خلال اهتمامه بالشعب والفلسفة. ولكن اهتمامه المتزايد بالشعب جعل من تعاطيه الشؤون السياسية ضرورة عليه الاقتناع بها، أحب ذلك ام لم يحبه".

لقد غيرته الاسقفية، ثم غيره أكثر المجمع الفاتيكانى الذى حمله الى الدور الطليعى فى مواجهة الامور. اخرجته المجمع من المجتمع البولونى الضيق إلى العالم الواسع حيث تفاعلت أفكاره وأفكار اناس خبروا الحياة غير خبرته.

" أنه، على ما يقولون فى كراكوفيا، صنعة المجمع، ويبدو جليلاً أنه نما معه.

أنار المجمع بصيرته فأتاح لعقله البحث بإخلاص كلي، وفتح الرؤيا الآفاق العالمية التى كان يفتقر اليها".

وإذا كان هذا تأثير المجمع فيه فيكون كارول فويتىلا قد تشبع حتماً بروح البابا يوحنا الثالث والعشرين.

ارتقى يوحنا الثالث والعشرون إلى سدة البابوية عام 1958. وكان ذلك الشيخ المسن، المدرك لقصر أيامه، ملماً بما يريد أن يقوم به، وهو المصلح الجذري، فى ما أبقت له الحياة من أيام.

كانت كنيسة البابا بيوس الثانى عشر ترى نفسها آخر معقل للمسيحية يتحدى شراسة هجمات العالم المدنى عليه فأراد يوحنا أن يعيد الكنيسة الى وسط العالم الذى هو عالمها. أرادها ان تشرع نوافذها وان

تنظف ذاتها من الداخل تنظيفاً تاماً، نافضة الغبار المتراكم، قاطعة الاغصان اليابسة، مواجهة ببسالة امكاناتها الذاتية.

” فقد كان من معتقدات يوحنا الأساسية ان على الكنيسة، ما دامت تملك الحقيقة في كل زمان، ان توظف نفسها دائماً في إعادة تفسير الحقيقة على ضوء الانجيل“.

كان يوحنا ذلك المتفائل الكبير الذي يؤمن بأن على الكنيسة ان تبدأ بتنظيم بيتها، وبالتالي ان تفتح ابوابها للعالم تاركة للروح القدس إتمام ما تبقي.

وبما أنه كان طاعناً في السن، فقد أبطى كل تأخير. ففي كانون الثاني من عام 1959، في ختام اسبوع الصلاة لوحدة المسحيين (صلاة المسيح الكبرى: ” ليمونوا واحداً“) اطلع الكرادلة على نيته في الدعوة الى مجمع عام. ولم يكن ينتظر تجاوباً حماسياً من جهتهم وإلا لخاب فأله...

ذعر الكرادلة للخبر لن المجمع، بالنسبة اليهم، يعني الاضطراب والجيشان، وعملوا ومعهم جريدة الاوسرفتوري رومانو الفاتيكانى، على تجاهل الدعوة أملاً باستبعاد فكرتها.

لكن أحداً لا يمكن ان يصد يوحنا عن محاولته إعادة ملامح البساطة والنقاوة التي ظهرت على وجه كنيسة المسيح عند ولادتها. ففي عيد العنصرة 1959 عين لجنة إعدادية مهمتها جمع ما تقدمه الابرشيات في العالم من اقتراحات حول الموضوعات التي يجب ان يتناولها المجمع. وبعد ذلك بسنة. ونتيجة دراسة الفى جواب، عين إحدى عشرة لجنة إعدادية لوضع المسودات العتيدة.

وما ان حل تشرين الثاني من عام 1960 حتى كانت اللجان قد باشرت اعمالها. والاساقفة تسلموا الدعوات للاجتماع في روما في تشرين الاول من عام 1962. وقبل وصولهم بشهر حدث البابا العالم من راديو الفاتيكان عن أهداف المجمع فقال ان المجمع سيهتم بالجنس البشري قاطبة، وبحقه في الحرية والعدالة والعيش الكريم) مبعداً بذلك فكرة الخوف من أنه سيكتفي بأشغال نفسه فيما لا طائل تحته).

وهكذا وضع الكنيسة القلعة على طريق استعادة مكانها في " ميدان العالم.

* * *

في غضون ذلك، كان لبوبونيا عذرها في أن تأخذ بمفهوم الكنيسة....

القلعة. كما كانت في الوقت نفسه بحاجة ماسة الى المجمع الذي سيعمل فيها عمل الخمير في العجين، لاهتمامها آنذاك بوضع برنامج تجدد خاص بها لم يكن، في مرحلته الاولى على الأقل، متسماً بروح المجمع المزمع عقده.

لكن المبادرة البولونية سبقت المجمع الذي لم يكن في مرحلته الاولى على الأقل متسماً بروح المجمع المزمع عقده.

لكن المبادرة البولونية سبقت المجمع الذي لم يكن أحد قد حلم به بعد.

كانت هذه المبادرة بمثابة طريقة بولونية خاصة لجبهه الوضع الداخلي. صدف خلال 1956 أن أعاد الكاردينال فيشنسكي، وهو في السجن قراءة قصة سانكيا فيش " الفيضان" التي تدور حول انتصار البولونيين على الجيوش السويدية في تشيستوشوقا وحول نذر الملك يوحنا كازيمير ان يبق مخلصاً لله والعذراء وان يخلص بلده من الغازي ويحرر شعبه من الطغيان.

وبما ان السنة 1966 تصادف الذكرى الألفية لاعتناق بولونيا الدين المسيحي فقد أرتأى فيشنسكي احتفاء بالذكرى، ان يجدد الشعب بأسره النذر التاريخي واضعاً برنامج تجدد بهذا المعنى.

وكان الاساقفة أول من قام بتجديد هذا النذر (مع تعديله وفقاً لمقتضى الحال) وذلك في تشيستوشوقا في آ 1956، عيد السيدة ملكة بولونيا) حتى قبل الأفراج عن الكاردينال)، وتبعهم بعد سنة الكهنة والشعب.

وأعد برنامج مفصل للتعليم والوعظ ومواد البحث مع موضوع خاص بكل من السنوات التسع السابقة للذكرى مختلفاً عن سائر الموضوعات.

لم تكن الحكومة مخطئة في اعتبار هذا تحدياً لها، فاعلان العذراء المباركة ملكة على بولونيا يصم الحاكمين بالعار ويجعلهم في حكم المغتصبين.

وقد أكد الكاثوليكيين هذا التحدي بمسيرات قاموا بها الى مقامات العذراء رافعين راياتها، منشدين بأعلى اصواتهم: " وحدها العذراء ملكة بولونيا".

وعندما اعلنت الحكومة عن برنامج خمسي (خمس سنوات) للاحتفال بالذكرى الالف، ذكرتها الكنيسة بأن المقصود هو الاحتفال بالالف سنة لاعتناق المسيحية.

فكان الامر، كما لاحظة تريور بيسون بقوله: " من الصعب تصور وطن آخر في العالم يطبق برنامجاً بمثل هذا المحتوى، على هذا المستوى على مدى تسع سنوات أو عشر تقريباً فلا مجال للعجب والحالة هذه اذا تخوف الحكم من أن تأخذ الاحتفالات بالذكرى الألف طابعاً دينياً في الدرجة الاولى، ان تقدم بالتالي للعالم مشهداً عجبياً يعيد فيه بلد شيوعي الف سنة من تاريخه عن طريق تجديد العبادة لعذراء مريم".

ومع ان زمن الاضطهادات الستالينية قد ولى، فالمضايقات " الحقيرة " والمضنكة أصبحت؟ أمراً عادياً. ومع أن " القنص " الدائر بين الكنيسة والحكومة كان يذكر بعالم دون كاميليو الصغير (من من قطع شرائط الصوت فيما الكاردينال يخطب بالجماهير، أو تنظيم مباراة في كرة القدم في اثناء احتفال كنسي مهم) فقد بات واقعاً ان المعركة قد استعرت من جديد وامتدت هذه المرة على مستوى الامة كلها، فأصبحت جهة تتهم جهة (بحق) بأنها تعلمن الأمة وتعرقل الحربة الدينية وجهة تهتم جهة (بتبرير مماثل) بأن المواعظ والمنشورات الدينية تعرقل انتشار ما كانوا يرتاحون الى تسميته " بالاشتراكية

كلاهما كان يعرف انه لا بد من التعايش بطريقة أو بأخرى، وإلا فلا مناص من الهلاك... ومع ذلك فقد كان غومولكا معتقداً - مثل الكاردينال فيشنسكي - أنه هو وحده الممثل الأفضل لمصالح الشعب البولوني.

كان غومولكا هو الأقوى طبعاً، في المجال السياسي. وقد عاد الى اتخاذ تدابير الاعاقة والعرقلة. بدأ مثلاً برفش السماح للكاردينال بمغادرة البلاد) ا سبق له ان زار روما حيث استقبله البابا الجديد يوحنا بذرعين مفتوحتين). واخضع رجال الاكليروس لضرائب باهظة لا قبل لهم بدفعها، كما وضعت العراقيل امام بناء كنائس جديدة للمدن التي تبني حديثاً وفي تموز 1961 أزيلت صفة الشرعية عن التربية الدينية في المدارس بعد ما أصبحت، منذ زوبان الجيد عام 1961 اختيارية) مع التنوع بعدم التدخل بالتعليم المسيحي الذي ينظمه الاكليروس خارج الدوام الرسمي). وعاد الصدام الى الحلبة. فالاكليريكيون " يسحبون " من اكليريكياتهم على الخدمة العسكرية بالرغم من انهم معفون منها رسمياً كطلاب. واصبحت المقالات في الصحف الكاثوليكية والكتب الدينية تخضع لتدخل ورقابة لا هوادة فيهما، وبعد الرقابة لتأخير لا تفسير له. ومما كان يزيد المأساة سوءاً كون المراقبين والعاملين في الطباعة جميعاً من الكاثوليكيين يرغمون على القيام بمثل هذه المهمات. يا للعجب !

مع ان يوحنا الثالث والعشرين كان قد بدأ العمل لتحسين العلاقات بين الفاتيكان والعالم الشيوعي لم يكن مع ذلك متفائلاً في حظ الاساقفة البولونيين بالحصول على تأشيرته تمكنهم من الالتحاق بالمجمع لكن السلطات لانت في الوقت المناسب فتمكن الكاردينال فيشنسكي من الاشتراك في دورة المجمع الاولى يرافقه ستة عشر اسقفاً. معهم أربعة اساقفة من ألمانيا الشرقية، وثلاثة من هنغاريا وثلاثة من تشيكوسلوفاكيا، فريق كامل من يوغوسلافيا. ويعود الفضل في ذلك الى السياسة المنفتحة التي انتهجها

البابا يوحنا، ان عزم على اعتبار جميع الناس اخوة وكان قد عبر بوضوح عن امكان الحوار مع الماركسيين.

فعلت الاستعدادات للمجمع فعلها بالأسقف فويتيلا الذي كان يبدو حين دخوله اليه على استعداد فائق للتغيير. وكان هذا النوع من الاساقفة اقرب الى ما يأمله البابا يوحنا ففي عظة القاها فويتيلا في كاتدرائية واقل قبل سفره الى روما بقليل، وقد أصبح بموت بازياك 1962 رئيس اساقفة الابرشية الفعلي، نقل الى حشد المؤمنين شيئاً من الاثارة والوعي المعاني المجمع المزمع عقده فقال:

” كلنا متأثر في هذه الأيام، وكل على طريقته وما التأثير الذي نختبره نحن في هذه الكاتدرائية على مقربة من قبر القديس ستانيسلاوس الاسقف الشهيد الا علامة من علامات موجة التاثر العارمة التي تحتاج الكنيسة في العالم اليوم.

فإذا كان اعتقادنا السابق ان المجمع ليس سوى مجرد حدث تاريخي ستجري فيه بعض التغييرات الطفيفة في الادارة. فلدينا ما يكفينا الآن لكي نتأكد من أنه أكثر من ذلك بكثير.

ان ما نعرفه هنا الآن في النصف الثاني من القرن العشرين كاف ليقنعنا بأنه سيقوم بتغيير حقيقي في الاتجاه، وبتحول في عمق اعماق الكنيسة هكذا نشعر جميعاً، مع البشرية قاطبة بأن هذا المجمع سيكون ملهماً بروح الحكمة والحب، تلك الحكمة وهذا الحب اللذين هما أكبر امل للجنس البشري اليوم.

يناضل الانسان اليوم اكثر منه في أي وقت مضى لدرء المحاولات الرامية الى تجريدته من انسانيته.

ويكمن امله الوحيد في حب اعظم.”

ويكتب بعد ذلك من المجمع نفسه فيقول:

” نحن في روما الآن، سبعة عشر اسقفاً بولونياً من المحتمل ان يكون الاب الأقدس قد عبر عما نمثله في خطابه الترحيبي بنا اذ تضمنت كلماته اعترافاً خاصاً بمساهمتنا في خدمة تاريخ البشرية وتاريخ الكنيسة.

هذه المساهمة قد تعززت اليوم، ليلة افتتاح المجمع بشكل يفوق كل تقدير وذلك بالتزام ملايين الكاثوليكيين في بلادنا التزاماً شاملاً وعميقاً”.

منذ البداية استلقت الاسقف فويتيلا الانظار، وجذب انتباه الاكليريكيين الاجانب بطلاقته في التعبير باللغات المختلفة، ونشاطه وحيويته.

فقال أحدهم: ” لقد كان ذلك الشاب الذي يحد في الله وحده منبعاً للحرية الانسانية”.

ومما تجدر ملاحظته حول المجمع، تلك الطريقة التي بها اكتشف اساقفة العالم ان لكل منهم كلمته، بعد ان كانوا قد اعتادوا تقبل التوجيهات من روما، وكانوا يتوقعون انهم هنا أيضاً سيكونون عرضة لرقابة ”الكوريا”

ومع ان الكثيرين من اعضاء ” الكوريا” اسأوا فهم جهود الراغبين في التجديد وعارضوها، فلن يكونوا في النهاية هم الرابحون ، لأن مجمع البابا يوحنا اعطى الاساقفة الحرية ليقرروا بأنفسهم نوع الكنيسة التي يريدون. رغم مناورات ” الكوريا” فقد مارسوا تلك الحرية كاملة. وان يكن تعذر على البعض منهم، في الدورة لاولى، الادلاء بآرائهم لعدم اتقانهم اللاتينية(كان لا يسمح التحدث في تلك الدورة الا باللاتينية، الأمر الذي استغلته ”الكوريا” لصالحها) فهذا لم يعق فويتيلا عن الادلاء بآرائه لتصلعه من اللغات القديمة والحديثة على السواء. فشارك في افتتاح النقاش في موضوعي الطقوس ومصادر الوحي فتبين الآباء بالمجمع ما لم يصدقوه قبلاً وهو ان الكوريا مع ذلك ليست هي التي ستسير الامور. لم تحقق دورة المجمع الاولى انجازات باهرة، لكنها مهدت الطريق لمثله ووطدت الثقة في النفوس.

وقبل ان يلتئم المجمع في دورته الثانية، في الخريف، مات يوحنا الثالث والعشرين فخلفه جوفاني باتيستا مونتيني المؤيد الوفي للمجمع فتعه

– بصفته البابا بولس السادس – بإكمال ما بدأه يوحنا.

برزت شخصية فويتيلا حقاً في اثناء الدورة الثانية 1963 وصار يصغي الى كلامه باهتمام بالغ كما يليق بالمفكرين العميقين امثاله – وهم قلة على كل حال.

في الثالث والعشرين من أيلول وفي اثناء التمهيد لمناقشة دستور الكنيسة " نور الامم" حث الكاردينال فويتيلا آباء المجمع على الحرص على النظر الى الكنيسة ككل (أي على انها " شعب الله") قبل التبسط في النظر اليها كسلطة وبتعبير آخر استحثهم على التخفيف من المفهوم الاكليريكي لها والتوقف عند فهمها لذاتها هذا التدخل من قبل اسقف بولوني ادهش كل الذين قرأوا في الصحف اليومية ان الاساقفة البولونيين محافظون متصلبون في محافظهم.

قال بتريك كيغن، أحد المراقبين العلمانيين في المجمع، والعضو البارز في منظمات علمانية دولية مختلفة، ان بعض اصدقائه البولونيين في أوروبا لفتوا انتباهه بصورة خاصة الى فويتيلا من حيث انه " واسع الثقافة، طويل الباع، وانساني كبير".

فلم يفاجأ كيغن بفويتيلا يطبع هذا الموضوع الدقيق بطابعه، بل كتب عنه: " انه أحد مهندسي وثيقة " نور الأمم" الرئيسين، تلك الوثيقة اتى اعادت توجيه الكنيسة جمعاء" واكمل مفسراً: " حدث هذه الوثيقة عن فكرة الكنيسة – الهرم لتتوقف عند مفهوم الكنيسة – الجسد حيقي كل عضو مسؤول ن رسالتها وكل مسؤول بطريقته الخاصة. لم تعد القضية مجرد مساعدة " الأبونا" في خدمة الرعاية المادية التي هي هامة وواجبة بل اعتراف بأن عمل العلماني يبدأ في العالم. ان فويتيلا بصوته عن آرائه الخاصة بموضوع المجمع ودور العلمانيين المستقبلي في الكنيسة فقال:

” في قلب منظمة شعب الله وعي عميق لقيمة الكائن البشري لا لقيمته الجسدية وحسب بل الروحية أيضاً يجب ان نناضل في سبيل الحفاظ على هذا الوعي للكرامة الانسانية حتى لو اقتضى ذلك منا اهرق دمنا كما اهرق المسيح دمه لأجلنا.

العالم مستعد للكفاح. كلمة علماني في البولونية swięccy تعني حرفياً ” قاصد الى العالم” وبالتالي الى هذا العالم الذي عرف هدفه، وفيه يكتشف الانسان قيمه الخاصة، ويقوم بالواجبات المترتبة عليه. وفي هه الواجبات يكمن نمو العالم ومعه نمو الانسان.

ان دور الع⁷لماني المميز في الكنيسة هو ان يبقي على مستوى الاحداث، وان يثبت ان باستطاعة الانسان ان يبلغ، بالرغم من ضعفه، ذروة طاقاته.”

كان الاسقف فويتيلا أكثر عمقاً وعليه لحقائق العالم من اساقفة كثيرين.

فقد شدد على ضرورة الحرية الدينية لكل الهيئات الدينية وفي كل الظروف بدون النظر الى العقبات المتأتية من جرائها. وإذ احتدم النقاش حول هذا الموضوع واعتبر المتطرقون من المحافظين انهم ربحوا الجولة في وقفهم الدفاعية ضد ” الضلال” انقض فويتيلا ليعن ما سيغير مجري النقاش فقال:

” لا تترددوا في الدعوة للحرية الدينية.

دعوة كهذه ستكون بالغة الاهمية بالنسبة للذين يعيشون مثلنا تحت الأنظمة الشيوعية.”

يفهم من كلامه ان الحرية الدينية يجب أن تكون مطلقة والأ يكونوها حالات خاصة.

لقد كان في كلامه متجاوباً مع أقوال البابا يوحنا الثالث والعشرين في رسالته العامة ” على الأرض والسلام” التي كانت بمثابة وصيته الأخيرة عن حقوق الانسان والحريات. وقد أكد فيها: ” إن لكل كائن بشري الحق في عبادة الله حسبما يميله عليه ضميره وفي حقه في الايمان سراً وجهرًا.”

وقد تناول فويتيلا هذا الموضوع مراراً عدة. (في خطاب نشرته صحيفة الاوسرفاتوري رومانو 1976 قال : " يمكننا ان نفهم كون انسان ما يبحث بدون ان يصل الى نتيجة كما ويمكننا ان نفهم ان انساناً يصل في بحثه الى النكران. اما ما يتعذر فهمه فهو ان يقال لأنسان ما : " يجب ألا تؤمن".

لقد فهم الذين يتكرون وجود الله فهماً حقيقياً اذ كان له — أكثر من أغلبية الآباء— خبرة مباشرة بالإلحاد وضم بين اصدقائه العديد من غير المؤمنين.

وكان، مثل البابا يوحنا يؤثر التوقف على ما يجمع لا على ما يفرق، مؤمناً بأن على الكنيسة ان تقبل الانسان كما هو ومن أقواله :

" لا يقوم دور الكنيسة على التباهي بسلطتها أمام غير المؤمنين أننا واخوتنا سائر ابناء البشر ملتزمون بالبحث.....

من نقاط الضعف في هذه المسودة انها تظهر الكنيسة مؤسسة سلطوية".

والمقصود بالمسودة هو المشروع رقم 13 ، وقد أصبحت فيما بعد الوثيقة الاكثر حسماً وعرفت بعنوان " فرح ورجاء" أو دستور الكنيسة في عالم اليوم.

وقد دعي فويتيلا الى الاشتراك في اعمال " اللجنة المشتركة" نظراً لمساهمته الفعالة في النقاش الذي دار حول الحرية الدينية وكان هو الذي اقترح ان يسمى هذا المشروع الدستور الرعوي أي الذي يهتم بالحياة اكثر منه بالنظريات مما سهل ادخال موضوعات في هذه الوثيقة تتناول بالبحث المشاكل المعاصرة كالزواج والسلام والتنمية الاقتصادية والتنظيم الدولي. كما كان هو الذي الح على اباء المجمع بوجود تضمين هذه الوثيقة فصلاً عن الزواج والعيلة. وقد أدت المناقشات في هذا الموضوع الى نظرة جديدة مقادها ان الزواج " وحدة حب" تجد اكتمالها في الابوة والأمومة.

عرف آخر فصل من المشروع 13 باسم " الحبة والقنبلة" لسبب بديهي هو انه يبحث في حبوب منع الحمل والحرب النووية.

كان المونسينور ديريك ورلوك (رئيس اساقفة ليفربول في انكلترا حالياً) يعمل في اللجنة ذاتها الى جانب فويتيليا. وقد دون على مفكرته في كانون الثاني ما يلي :

" في الصباح الباكر شهدت روما تساقط ثلوج لم تشهد مثله في تاريخها اذ في مدى ساعة ونصف الساعة علت الثلوج عن سطح الارض حوالي المتر. كان لهذا اثره الضار في الأشجار التي تكسر الكثير منها تحت ثقل الثلج.

ومع هذا فقد شققت طريق المؤدبة الى داخل كنيسة القديس بطرس عبر الثلوج التي تدر بها الرياح. وياه لبهجتي ! اذ رأيت اساقفة أوروبيين وأمريكيين يغامرون مثلي. الايطاليون افترضوا ان لا اجتماع فلم يغامروا.

وكان هناك مشهد رائع ، هو مشهد رئيس الاساقفة البولوني يخفف جرابيه على الموقد.... اتذكر ذلك جيداً. استطيع الآن ان أراه قادماً مرتدياً، كالمعتاد فمبازه (لأنه نادراً ما كان يلبس الملابس الحبرية) عاصراً طرف هذا القمباز، نازعاً حذاءه وجرابيه ليجففها على ظهر الموقد، جالساً حافي القدمين وكأن شيئاً لم يكن.

كان يضحك، وكانت تلك المرة الاولى التي أراه فيها هكذا مرحاً. ذلك كان وجهه القروى. وبينما كان يخفف اقتربت امرأة اوستراالية، هي روز ماري غولدي ووضعت قفازيها على الأرض فتلقفها أحد الحاضرين ووضعتها على ظهر الموقد بدون ان ينتبه الى انها من البلاستيك وفجأة عبق المكان بالدخان والرائحة الكريهة فراح الجميع يوسعون فويتيليا "المسكين" لوما ناسيين الى جرابيه سبب الرائحة".

لقد وسع آفاق فويتيليا وجوده في روما، فظهر اثر ذلك في شعره. ففي الدورة الاولى من المجمع كتب قصائد حين تعبر عن شعور اسقف يمنح سر التثبيت لشعب قرية في التلال السفحية.

وفي السنة التالية نشرت المجلة "زناك" الشهرية مجموعة قصائد بتوقيع اندره جافيان يصف فيها الشاعر اكتشافاً روحياً بهجياً لكنيسة اساساتها في روما وافقها يمتد فوق العالم. فجعلته لقاءاته مع اساقفة من العالم الثالث يكتب:

" يا اخي العزيز، أشعر انك حقل واسع

حيث الانهار تجف فجأة - والشمس

تحرق الابدان كما المسبك يحرق المعدن الخام

احس ان تفكيرك شبيهه بتفكيري،

وإذا اختلفا اتجاهاً فهما كالميزان:

في كفتيه حق وباطل

هناك فرح في ان تزان الافكار في ذات الكفتين،

تلك الافكار التي تومض في عينيك غير ما تومض في عيني

مع ان جوهرها واحد".

وفي قصيدة "الارض الرخامية" يتأمل ي حجارة ساحة مار بطرس التي تبدو له رمزاً لدور البابا في قلب الكنيسة:

" أقدامنا تلتقي الارض في هذا المكان

كثيرة هي لجدران هنا وكثيرة صفوف الأعمدة،

مع هذا فإننا لسنا في ضياع اذا كنا نجد معنى عزلة،

فإنها الارض تهدينا. أنها تصل رحاب

هذا البناء العظيم ببعض، وتصلها بنا،

نحن الذين نعي في مسيرنا ضعفنا وهزيمتنا

يا بطرس، انت الارض التي تستطيع الآخرون
ان يسيروا عليها (بدون ان يدروا الى أين هم سائرون) . انت تهدي خطواتهم
فتتمكن المساحات من أن تتوحد في أعينهم،
ومنها يولد الفكر.
تريد ان تخدم أقدامهم التي تعبر
كما يخدم الصخر حوافر الخراف.
الصخر أرض هيكل هائل،
والصليب مرعي".

ختم المجمع الفاتيكاني الثاني أعماله في كانون الاول 1965 وعاد الاساقفة الى بلدانهم. لكن عمل
فويتيلا لم ينته، لا بل سيمتد سبع سنوات حتى اكتمال الوثائق.
كان طوال هذه المدة يأتي روما مرتين في السنة على الأقل ويعمل بعزم على بث روعي المجمع في كل
مظهر من مظاهر حياة الكنيسة في بلاده.
بعد ذلك بثلاث عشرة سنة، وفي اليوم التالي لانتخابه بابا، عبر عن اقتناعه بأن المجمع جسد رجاء
حقيقيا خبرة ثابتة بالنسبة الى الجنس البشري كافة فقال:
" تريد ان نمد ايدينا ونفتح قلوبنا لجميع الشعوب. خاصة المسحوقين منهم بالتمييز وبفقدان العدالة
سواء في مجالات الاقتصاد والحياة الاجتماعية والسياسية او في مجالي حرية الضمير والمعتقد. يجب أن
نقدم لهم كل أنواع المساعدة الممكنة كي نلقت انتباه الجميع الى كل أنواع الجور المتفشية في ايماننا وإلى
مداواتها فيصبح بإمكانهم ان يعيشوا حياة تليق بهم.
هذا جزء من رسالة الكنيسة على ما أوضحه المجمع الفاتيكاني الثاني".

ما بعد المجمع

لم يفاجأ أحد من أهل كراكوفيا بتعيين فويتيلا رئيساً على أساقفة مدينتهم في كانون الثاني 1964. جميعهم كانوا يتوقعون ذلك ، وقد سرواً جداً به.

فبموجب هذا التعيين، استرجعت كراكوفيا منصب رئيس الأساقفة بعد ثلاث عشرة سنة من وفاة الكاردينال سايباها، واحتل فيها، للمرة الاولى، هذا المنصب الرفيع شخص يتحدر من طبقة غير ارستقراطية.

وقد تم تكريس الاساقفة الجديد في كاتدرائية وافيل يوم الاحد الواقع فيه الثامن من آذار. فصادف ذلك منتصف الصوم، أي يوم تبدأ الكنيسة بالابتهاج، وهي تتطلع الى قرب حلول الفصح. إما ذاك الاحد فكان يحمل معه اسبابه الخاصة للابتهاج عبر عنها الب نيامشويسكي في كلمته الترحيبية قال:

"نبتهج معك، أو بالأحرى نبتهج بمواهبك العظمى في التعلم والحكمة. اما ما يملأ قلوبنا بهجة حقاً فهو بساطة طيبتك التي تشملنا جميعاً. لهذا نبتهج ولهذا تقدم لك اليوم حبنا. كما اننا نبتهج ايضاً بنقواك، وبروح الصلاة لتي تجملك، وبقربك من الله."

هناك في تلك الكاتدرائية التاريخية يرقد الملوك والكرادلة والشعراء. لذا لا يستطيع أحد ان يغفل عن ذكر التاريخ.

تحدث رئيس الاساقفة الجديد عن القديس ستانسلاوس، وعن الملكة جديغا، ثم انتقل الى الماضي القريب ليذكر بما يدين به لسلفه سايباها العظيم فقال:

” وضع يده على رأسي وسامني اسقفاً. وكان قد حملني قبل ذلك بزمن طويل الى الكهنوت.“
وتابع كلامه :

” إن امور الخلود وأمور الله فائقة ي البساطة وبعيدة معاً. فلا يطلب منا ان نبتدع برامج جديدة بل علينا ان نجد سبلاً جديدة، وقوى جديدة، وحماسة جديدة لنشارك الأب والابن تصميمها الابدي، ولنحققه في بيئتنا الحاضرة. لقد دفع المجمع بكل ذلك بعيداً إلى أمام، ومع هذا فما تزال مقرراته بالنسبة للكثيرين بيننا سوى وثائق في الكتب.

أريد أن أوقف أبرشية كراكوفيا لتفهم معنى المجمع الحقيقي وهذا ما يمكننا من تطبيق تعاليمه في حياتنا اليومية“.

لقد كان في الواقع مشعباً بروح المجمع. وعليه فلم يعد يخامر شك في ان الاستعدادات للاحتفال بالذكرى البولونية الألف يجب ان تسير مرتبطة بمقررات المجمع على صعيد التطبيق.

وبهذا المعنى كتب في نوار لجريدة التيفودنيك مقالة يتحدث فيها عن الحاجة إلى الاستنارة بأعمال المجمع لفهم الألف سنة المسيحية من بولونيا. على كل ليس على الأمة والفرد معاً سوى اختيار الله.

” ليس هناك خلاف بين حرية الكائن البشري واعتماده على الله، بل هناك اختيار والتزام يدرك بهما الكائن البشري معنى وجوده ويعمل على تحقيقه...“

ان المسيح يمس كل واحد منا في أعرق عصب انساني فينا....“

والكنيسة لا تحرس وديعة الايمان والرجاء والمحبة فحسب، بل أيضاً جوهر حرية الكائنات البشرية التي تختار المشاركة في عملها. ويعود الفضل إلى المجمع في تمكيننا من فهم هذه الحقيقة فهماً أوضح.

تحرس الكنيسة حرية كل فرد يختار الله بوعي ويريد ان يملكه ذاته“.

ان القيام بالتغييرات الطقسية التي أوصي بها المجمع (جعل المذبح يواجه الشعب، والانتقال من اللاتينية إلى اللغة المحكية مثلاً) لم يكن أكثر من بداية.

لقد ارتضى فويتيلا هذا النوع من التغيير بسهولة خلافاً للكاردينال فيشنسكي الذي احتقره (عارض فيشنسكي في المجمع اعتماد اللغة الشعبية في الاحتفالات الطقسية ومضي بعيداً حتى لمح إلى أن لاتينية العصر الوسيط هي جزء من التقليد البولوني). اذا كان المجمع يريد النفاذ الى عقول الناس وقلوبهم فلا بد من أن تأتي التغييرات أبعد عمقاً.

كان رئيس الاساقفة مستعداً للبقاء في شقته القديمة ذات الغرفتين. فاحتج معاونوه وحاولوا اقناعه بالانتقال الى الدار الأسقفية. لقد شكوا ولم تكن تلك المرة الاولى ولا الأخيرة من انه " ليس لدى فويتيلا المفهوم الذي يلبق بالشرف الكنسي". اما هو فتجاهل احتجاجاتهم، لكنه أذعن للأمر حين أتى يوماً مسكنه — بعد تعيينه بحوالي شهر — ووجده فارغاً واذا لم يعد له الخيار، توجه إلى الدار الاسقفية. وقيل انه وصل وحده حاملاً على كتفيه زلاقتي التزلج. ولشد ما ارتكبت المرأة المكلفة تنظيف البيت اذ حسبتهما عصاً اسقفية من نوع جديد !...

ليس من المستبعد ان يكون فويتيلا قد مر بتجربة غريبة عند عودته إلى ذلك القصر حيث اضطر في الماضي إلى البقاء في سريره طوال النهار خوفاً من الوقوع بين أيدي الالمان الذين كانوا يطاردونه. قد تكون ذكرى تلك الايام هي التي جعلته غير راغب في السكن فيه.

لكنه، ولحالة هذه لن يسمح لأشباح الماضي بأن تطارده فلم تمض بضعة أيام حتى كان القصر يضج بالنشاط من مختلف الانواع.

كان يعرف ما يريد منذ البدء، وكان المجمع حافزاً له قال :

" اريد ان أشدد على القضية الأساسية وهي أن للكاثوليكين الحق عليهم الواجب في أن يعيدوا صياغة النظام الزمني على ضوء الأنجيل. وعلى أن هذا الحق — الواجب عليه ان يؤثر في حياتنا الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والمنزلية".

وطد فويتيلا العزم على توعية الشعب على أن الكنيسة هي كنيسة عناية.

وأول ما قام به كرئيس اساقفة هو استحداث هيئة خاصة للاهتمام بالمريض والمعاق. كانت مشكلة المرض الزمن حادة في بولونيا حيث هدم عدد كبير من المستشفيات في اثناء الحرب واصبح الأمل في إيجاد أمكنة في المستشفيات ضئيلاً ومع صعوبة الحصول على المسكنات والأدوية والتجهيزات، أصبحت حالة المريض والمعاق ميؤوساً منها.

فاختار، للقيام بهذه الخدمة، كاهناً نجا من مرض خطير لكنه أصبح عاجزاً مزمناً (وهو لا يزال الى اليوم يمارس مهمته). فقال له فويتيلا : " أنك الشخص الأنسب للقيام بهذا العمل. تعرف ماذا يعني ان يكون الانسان مريضاً بهذا ستحب عملك".

تم انشأ مؤسسة عائلية من شأنها معالجة كل مشكلة يمكن أن تواجهها العيلة. وكان هذا الحقل موضوع اهتمامه الدائم اذ كان واعياً لأهمية العيلة وضرورة بقائها محررة من الضغوط الخارجية التي تعمل نفسخها. وما كتابه " حب ومسؤولية " حب دليل على اهتمامه الخاص بقدرسية العلاقات الشخصية ود كانت في أثناء المجمع تطرقات عدة الى موضوعي الزواج والعيلة.

لا ريب انه كان تقليدياً في كل هذه الأمور. فهو ضد الاجهاض (الذي أصبح شرعياً في بولونيا منذ 1957 كتدبير حكومي للحد من التضخم السكني من جهة، ولتنفير الشعب من الكنيسة من جهة ثانية)، وضد منع الحمل الاصطناعي لأنهما يصيبان في العمق ما هو مقدس في اعتباره. ثم انه بسبب احترامه لهذا الصعد الحياتي وهو الوحيد الباقي في نجوه من الضغط السياسي على الأقل بحيث يبقى الرجال والنساء أحراراً، فهم بالتالي مسؤولون. (وهو لم يكن غافلاً عن ذلك، بل كان أولاً وآخراً راعياً). كان على بيينة من جميع أنواع الضغوط التي تفسد الحياة العائلية من الداخل والخارج معاً، لذلك وطد العزم على أن يبدل ما بوسعه لدعم استقرارها.

هذه المسؤولية الخاصة " بالمؤسسة العائلية " عهد بها إلى صديقة له، هي الدكتورة د. المتخصصة في الطب النفساني والتي كانت قد عانت آلاماً كثيرة ومريعة. لقد عوملت " كخنزير غيتي ". (1) ثم نجت من معسكر الاعتقال في رافنسبروك حيث كانت عرضة لتجارب طبية ضارب. وبما ان جيوش التحرير كانت تقترب ، فقد فصلها البوليس السري لتفقيتها مع سائر " الخنازير الغينية " ففرت الحركة السرية في المعسكر تخليصها مهما كلف الأمر. وهكذا اصبحت الدكتورة د. تنتقل من مخبأ إلى آخر، وتنجو من تفتيش البوليس السري ساعة فساعة.

كانت مؤمنة حتى الموت ، قد نذرت انها في حال شفائها واستعادة حريتها، ستخصص في طب الأمراض العقلية، وتساعد بالتالي على شفاء العقول التي حطمتها الحرب. فوقت نذرها ولم يكن ضحايا الحرب وحدهم من انصب عليهم اهتمامها. واليوم يقصدها أهل كراكوفيا أكثر من سواها ويذهبون اليها ليلاً ونهاراً طلباً للمساعدة.

كثيرون هم كالدكتورة د. أصدقاء فويتيلا الذين قاسوا مثل هذه العذابات التي اكسبت بعضهم حكمة خارقة.

كانت الدكتورة د. أنسبهم لتحمل مسؤولية " المؤسسة العائلية " التي كانت تهدف إلى أمرين : الأول ان تكون مركزاً لتطبيب من يقصدها وارشاده الى حل مشاكله، والثاني أن تكون مركزاً اعلامياً يضطلع فيه الكهنة والأطباء والعلمانيون المتزومون بالعمل الاجتماعي على مختلف مظاهر الحياة العائلية ومشاكلها.

وقد حرص الكادينال على زيارة هذا المركز يومياً منذ ان كان رئيس اساقفة ولم يرض عليه قط بوقته بإرشاداته أو حتى بالمساعدة المادية قدر الامكان. وقد أرتته مرة امرأة حامل آثار الضرب واللحم التي أحدثها زوجها في جسمها، فاكتشف بعد التحقيق أنها تسكن مع عيلتها في غرفة لا تزيد مساحتها عن تسعة أمتار مربعة حيث يعيشون في فقر مدقع. فقدم لها المال وتدبر الأمر فنقلها الى شقة أوسع. وإذ هو يعلم ان الفقر غالباً ما يكون وراء هذه التصرفات المخللة بالحياة الاجتماعية فقد أوجد ضمن المؤسسة العائلية فرعاً يعني الشبان التعساء والجانحين.

تعدى نشاط المؤسسة حدود المدينة إلى الأبرشية كلها. ففي الأمسيات وأوقات الفراغ كان الاطباء يقصدون القرى النائية يسدون النصح لحل المشاكل العائلية، ويلقون الأحاديث عن الأساليب الطبيعية لتحديد النسل. كانوا يعارضون استعمال حبوب منع الحمل لأسباب أدبية وصحية على غرار فويتيلا، فهي تعرض من يستعملها لمضاعفات لا يعرف أحد عواقبها.

دخلت إحدى الطبيبات – وهي عضو في اللجنة التي عينها فويتيلا للاستقصاء والبحث في موضوع تحديد النسل، ويبدو انها تركت أثرها الكبير على تفكيره الشخصي – في جدال محتدم مع صديقة انكليزية تحبذ استعمال الحبة صاحت بوجهها : " لست سوى احدى بنات الغرب اللواتي غسل دماغهن ! نحن هنا نعرف أننا نتعرض لعملية غسل دماغ عندما يتم ذلك أما أنتم فلا تعرفون فيغسل دماغكم ولا تدررون !".

على أن أفضل مساعدة يمكن أن يقدمها فويتيلا كانت في الحقل الثقافي، خلافاً لفيشنسكي الذي كان يرتاب بالمفكرين وكان جوابه الشخص عن ضغوط الحكومة تقوى الشعب، ذاك النوع من التقى الديني الذي اصبح مفارقة تاريخية في بلدان أخرى عديدة، وهو يتمثل بتظاهرات شعبية دينية أدت إلى معادلة تقول : " أنت بولوني اذاً أنت كاثوليكي "

لقد عمق الاضطهاد هذا التقى. فعندما تسلم فيشنسكي السلطة كان الاضطهاد هذا التقى . عندما تسلم فيشنسكي السلطة كان الاضطهاد على أشد ما يكون شراسة وكانت الحاجة ماسة الى زعامة قوية تعد العدة للمعركة، وكان العشب قد قبل عملياً بما لديه من تصور لكنيسة اما الحكمة فقد ازدرته لكنها فهمته. فهمت ان لا أمل لهيئة سياسية في التوصل إلى اطاحة سلطة الكنيسة. وراحت تمارس المضايقات وتلعب لعبة الانتظار محجمة عن القيام بأي نشاط ترقباً لفرصة مؤاتية. لقد اعتقدت انه مع الوقت لا بد لهذه الشعلة العاطفية من الخمود، فإن لم يكن التراجع أمام الشيوعية بحد ذاتها، فليكن أمام النزعات العصرية (مودرنسيم)، وإن لم يكن على يد الجيل الحاضر فعلى يد الجيل التالي، وفيما تضع الكنيسة عينها على الشرير الذي تعرفه يتسلل الشرير الذي لا تعرفه من الباب الخلفي ويهدم القلعة.

" كثلثة" منظمة وواعية أشد خطراً على الحكومة من الجماهير الملوحة بالأعلام في تسيستوشوفا. وهكذا سمح الكاردينال والحكومة، عفواً وللأسباب شتى للمنشورات التقوية بالصدور. فيما منعاً معاً مؤلفات الكتاب التقدميين كتيار دي شاردان.

وقف الأساقفة البولونيون عامة موقفاً محايداً من عصبه التقدميين الكاثوليكين، خلافاً لمواقف الكاردينال فيشنسكي، ذلك بأن فويتيلا كان يقدر ما للمقاومة الثقافية من أهمية (ذاك النوع من المقاومة الذي نظمه ضد النازيين عبر المسرح الربودي والجامعة السرية)، وما للعلمانيين من دور في الحفاظ على أجيال الكنيسة الطالعة اذا ما وسعوا اطلاعهم ونظموا. إنه من غير جيل فيشنسك ويصعب عليه أن يتذكر يوماً كانت فيه الكنيسة ذات سلطان لا يقاوم. هو ذاته مفكر، وقد وطد العزم على مساندة زراقات المفكرين من أبناء الكنيسة مساندة كلية. ومع الغاء التعليم الديني في المدارس أصبح اذكاء الروح الدينية في عقول الطلاب أكثر أهمية منه في أي وقت آخر.

ومع ان كتبه كانت بعض الأوقات تحتجز، وتلك التي كان يرسلها اليه اصدقاؤه تختفي في طريقها اليه، فقد بذل جهده ليبقى متوافقاً مع فكر الكنيسة المعاصر، قارئاً كل ما يجده من كتب صدرت حديثاً، وبلغتها الأصلية عادة.

كان يقرأ مثل هذه الكتب ويحصل عليها في اثناء زيارته الى روما. كم حجزت له كتب على المطار حين عودته!....

كان ينظم مرة في الشهر ندوات تدوم يوماً أو يومين يتحدث فيها فرق من العلمانيين الاختصاصيين عن المشاكل التي تواجههم في مهنتهم – أطباء واختصاصيون في العلوم ومحامون، بعضهم غير كاثوليكى أو حتى ماركسي.

وكان قديراً على التحدث مع كل فريق " بلغته" الخاصة يشارك في تلك المناقشات واجداً فيها غني كثيراً لنفسه بينما كان يرى معاونوه ان عليه أن يملأ وقته بأمور أخرى أكثر فائدة....

ولم ينس أهمية تثقيف كهنته بروح كنيسة ما بعد المجمع. لقد أسف جداً لأقفال كلية اللاهوت في جامعة، وبقي يلح على الحكومة لإعادة فتحها. وإذ لم تتجاوب هذه معه عمل ما بوسعه على ايجاد بديل لها. فقد كانت في كراكوفيا ثلاث مدارس اكليريكية، واحدة لسلازيا، وواحدة لشيستوشوفا وواحدة لكراكوفيا ذاتها، فقرر ان يجمعها في كلية واحدة سماها " كلية اللاهوت البابوية" تمنح الشهادات الجامعية.

وكان لهذه الكلية مشكلة وحيدة وهي أن الحكومة لم تعترف بها – الا أنها لم تمنعها أو تضايقها بل تجاهلتها – نجم عن ذلك واقع غريب وهو ان شهاداتها كان معترفاً بها في العالم اجمع ماعدا بولونيا.

في هذه الأثناء كانت الاستعدادات للاحتفال بالذكرى الألف تجري على قدم وساق، وكانت الحماسة بادية في كراكوفيا - مهد تاريخ بولونيا وثقافتها - أكثر منها في أي مكان آخر. أحب فويتيليا كراكوفيا، وكان فخوراً بتاريخها الطويل . وقد كتب في جريدة التيغودنيك انه لا يستطيع دخول كاتدرائية واقيل بدون أن يتأثر شديد التأثير بماضيها وبتكامل التاريخ فيها. إن واقيل بالنسبة اليه رمز " المسيح عربون حياتنا، وسند تقاليدنا، ونورنا ونور الخلق اجمعين يعكس في النفس البشرية معرفة حب الله".

يوم كان فويتيليا لا يزال فتياً في فادوفيس، أبدي اهتماماً غير عادي بالتاريخ المحلي. وقد ظهر هذا الاهتمام في تصنيفه فهرساً للاينية التاريخية في المدينة وجوارها. أما ما يخص كراكوفيا فقد كان هناك الكثير ينتظر من يكتشفه وقد يعجب المرء اذ يعرف ان هناك نقصاً في كتابه تاريخ تلك المدينة التي عرفت " بدرة بولونيا". فدعا المؤرخين من جميع انحاء بولونيا الى عقد ندوة في الدار الاسقفية استغرقت اسبوعاً كاملاً فانضم اليهم ممثلون عن مختلف فروع المعارف الروحية منها والعلمانية.

بدأ هؤلاء في الأيام القليلة الاولى بدراسة كراكوفيا في العصر الوسيط، ثم انتقلوا الى دراستها في العصور الحديثة. وقد أماطت الاستشارات والمناقشات اللثام عن الكثير مما هو جديد ومفيد معاً.

وبعدها بقليل أسس فويتيليا مجلة سنوية اطب عليها اسم " حوليات كراكوفيا" وتضمنت مقالات توضح دور كراكوفيا في مساهمتها في تاريخ السنين البولونية الألف.

لم تنقطع من جانب الدولة. ومع انه في معاطاته مع الشيوعيين كان أخف حدة وأكثر ليونة من الكاردينال فيشنسكي، فقد كان يواجههم دائماً بجرأة. رفض منذ البدء الانحدار الى مستوى المماحكات. قال يوماً على الهاتف لأحد صغار المسؤولين في الحزب الشيوعي بحدة: " إذا كنتم لا تعترفون بوجودنا رسمياً فل أرى كيف يمكننا أن نتحدث معاً. طاب يومك"، وأطبق السماعه.

كان فويتيلا مرغماً على البقاء في ميدان المعركة ليحارب الضرائب المتصاعد فرضها، ويقاوم الحملات المستعرة لصالح تحديد النسل والاجهاض، ويكافح لجل السماح ببناء كنائس جديدة. ولما عيل صبرة مرة من اسلوب المماثلة الذي كانت الحكومة تلجأ اليه، هدد بالاحتفال بزياح القربان السنوي مروراً بالطريق التقليدية التي تربط قلعة وافيل بساحة السوق ، الأمر الذي سيؤدي إلى ايقاف السير ساعات طولاً (في عيد القربان تفرغ المعامل من العمال بدون ان تحاول السلطات معرفة السبب).

وهذه حادثة نوبا – هوتا المؤلمة، يدون ان تكون فريدة، تعطي صورة جلية عن تأزم الوضع.

بنيت مدينة نوبا – هوتا في أوائل الخمسينات بأمر من ستالين على بعد بضعة كيلومترات من كراكوفيا لتكون نموذجاً للجماعة الاشتراكية، وبيتاً للإنسان الأتراك الجديد المحرر من كل المؤثرات الرجعية (قبالة كراكوفيا القديمة الملائى بهم !). بنيت هذه الغاية من الاسمنت، ذات البشاعة الفاتحة، حول معامل الفولاذ الفسيحة (أحد كبار المعامل في أوروبا).

ويبقى الجاذب الرئيسي فيها تمثال برونزي كبير للينين ذو قياس يوحى بالرعب عوض الاعجاب. وقد اعد لعمال نوبا- هوتا كل ما يحتاجون اليه عدا بناء للكنيسة اذ لم يكن من المتوقع ان يطالبوا وهم الذين سيصبحون الاشتراكيين الجدد !...

يا للأسف على التوقعات ! لقد طالب العمال بكنيسة، بعنف واصرار، الأمر الذي أوقع السلطات في ارتباك.

اعطي الاذن بذلك في مطلع تشرين الاول 1957 وحدد الموقع. وللحال اعتبر السكان المكان مقدساً ونصبوا فيه صليباً علامة على أن كنيسة ستشاد هناك.

وفي عام 1960 عاد الجو يتلبد. فقد قررت الحكومة، احتفالاً بالذكرى الألف، تأسيس الف مدرسة، واحدة لكل سنة(تقفل هذه المدارس ليوم الواحدة بعد الاخرى، إذ ان برامج منع الحمل والاجهاض، يضاف اليها الأجور المتدنية والنقص في المساكن ، قد أدى إلى هبوط ذريع في معدل الولادات بلغ أعلى نسبة في أوروبا)، اختارت موقع الكنيسة في نوبا - هوتا ليكون أحدها (وعذرها في ذلك النقص في المال والمعدات ، اعتبار المدرسة اكثر أهمية من الكنيسة).

وعندما أتى العمال لنزع الصليب من مكانه، رشقهم السكان بالحجارة وتشاجروا معهم. فأسرعت قوات الدولة، ومعها الغاز المسيل للدموع والمسدسات، فسالت الدماء. وانتهت الحادثة بأن قررت الحكومة بعد انزالها العقوبات الشديدة بالمهاجمين، ابقاء الصليب مكانه في الوقت الحاضر.

منذ ان كان فويتيلاسقفًا، حتى بعد أن اصبح رئيس اساقفة كراكوفيا ما انفك يجادل ويناقش باستمرار في مشروع كنيسة نوبا- هوتا. ومع انه تجنب كل تحريض على العنف. لم يدع ساكنا الا حركة مستخدماً العرائض والمواعظ المتتالية " مزعجاً" السلطات ومستعملاً الضغوط المختلفة للحصول على الاذن ببدء البناء. لكن السطات ومستعملاً الضغوط المختلفة لحصول على الاذن ببدء البناء. لكن السلطات لم تتزحزح عن موقفها خاصة انها كانت مستعدة لاحياء الذكرى الالف.

ولم يعط الأذن بالبناء الا في عام 1967 وفي موقع غير المقرر سابقاً ولم تكن لأهل نوبا - هوتا كنيسة الا بعد عشر سنوات من هذا التاريخ. أي بعد ربع قرن من بدء المطالبة. ولنا عودة الى هذه القصة.

رافق الاستعدادات للاحتفال بالذكرى الألف عامل جديد من بين عوامل الخلاف بين الكنيسة والدولة. فمع دخول عام 1966 اقترح الاساقفة مصالحة الألمان، وهذا لم يكن ليخطر ببال. وقد ذهبوا إلى أبعد من هذا اذ وجهوا رسالة مفتوحة الى الاساقفة الالمان يعلنون فيها جهتهم الصريح عما مضى ويطلبون

الصفحة أيضاً من الألمان. أتى هذا التصرف المدهش ليتمشى مع روح المجمع الفاتيكاني الثاني لا مع روح العاطفة الشعبية.

فاغتازت الحكومة. وبدأت تنشر الملصقات التي كتب عليها: " لا نسيان ولا غفران". ومن أسباب غيظهم انهم كانوا قد اقنعوا انفسهم بإمكان جمع الشعب على تأييدهم في مواجهة تهديد الألمان بالتأثر التهديد زال معه عامل التأييد. وهناك اسباب أخرى. فالرؤساء الروحانيون يقومون بدور الحزب في مجال السياسة الخارجية، كيف لا وقد تجرأوا على اتخاذ مبادرات جديدة بدون ان يولوا استئذان الحكومة أي اهتمام وقد أصبح مؤكداً ان مصالحه الألمان وإقامة روابط جديدة مع الغرب من شأنها ان لا تخطى بترحيب موسكو لأنها ستمهد الطريق لتدفق الأموال من المانيا الغربية الى الكنيسة البولونية.

ولا بد من الاعتراف بأن معظم البولونيين - جانب الحكومة طبعاً - ارتاعوا من فكرة المصالحة مع الألمان الذين كبدهم الآلام المبرحة. لكن المهم ان الاساقفة قدموا السلام وان الألمان تقبلوه بلهفة.

وفويتيلا في كراكوفيا كان لا يألو جهداً لفهام ابناء ابرشيته (التي تضم فيما تضم اوشويتن) بأن المسيحية ان عنت شيئاً فهو الغفران وانه حان الوقت لمسح العداوات القديمة.

وكتدبير استذكاري لعمل الاساقفة، رفضت الحكومة اعطاء البابا بولس السادس تأشيرته دخول لمشاركة بولونيا احتفالاتها في لا ذكرى الألفية ولكنها أظهرت رغم خصومتها للكنيسة المحلية انه لن ترفض التفاوض مع الفاتيكان

كان يوحنا الثالث والعشرون قد دشن سياسة الحوار مع العالم الشيوعي، وتابعتها بعده بولس السادس بكل سرور (علماً بأن عدداً كبيراً من مستشاريه في كوريا كانوا يعارضونها). وبالفعل أوفد البابا بولس السادس المونسنيور اغوسطينو كازولي الى بولونيا لإجراء محادثات مع الحكومة على مستوى رفيع.

ويذكر انه في اثناء المحادثات استوضح موفد البابا عن امكان تعيين كاردينال ثان (تمشياً مع التقليد) يكون بمثابة القوة الموازية للكاردينال القدير فيشنسكي ويكون أقل تصلباً منه. هل اقترح اسم رئيس اساقفة كراكوفيا لملء هذا المنصب ؟

قد تكون الحقيقة ابسط من هذا ولا تتعدى رغبة البابا بولس السادس في رفع عدد الكرادلة الى المائة والعشرين. وبما أن فويتيلا كان قد برز في اثناء المجمع وبعده، فقد أصبح امر اختياره للكاردينالية بديهياً.

وهكذا، فعندما أعلن في التاسع والعشرين من نوار 1967 عن تعيين سبعة وعشرين كاردينالاً جديداً كان فويتيلا واحداً منهم.

وعندما اتى فويتيلا الى روما لتسلم قبعة الكاردينالية الحمراء تعمد البابا إهمال ذكر التذمر من تدخل الكنيسة في السياسة متحدثاً عن "وضعها المحزن والمضطرب في بلدان تتهم فيها ظلماً بإعاقة التقدم وانتشار المعرفة، وترمى بالتمرد زوراً وتنازع في حقها بالوجود في أمن وسلمة".

عندما عاد فويتيلا إلى كراكوفيا اقام في كاتدرائية وافيل قداس شكر تلتته حفلة استقبال قال في اثناءها لكهنته مازحاً : " هذه آخر مرة ازعجكم فيها.

اذ ليس بالإمكان الترقى الى درجة أعلى". وكان للمرة الاولى في حياته مخطئاً.....

“ رجل الرقص والسبحة الوردية ”

عنجما يبدي الكرادلة، زملاء فويتيلا، رأيهم فيه يقولون: “ إنه كاردينال ما بعد المجمع، وأول كاردينال بولوني يقف على عتبة السنة الألفين ”.

ويضيف أحد أصدقائه الأب غرزبك: “ وهو أيضاً انسان يجهل انه كردينال انه انسان بسيط وكلي التواضع ”.

ومع انه اصبح الآن أميراً الكنيسة، فهو لم يجر أي تعديل على نمط حياته. فلا يزال القمباز الاسود - معرضاً عن القرمزي - وينام في الدار الاسقفية في غرفة بسيطة متواضعة الأثاث. ويقولون في كراكوفيا أنه كلما علا في التربة. ازداد، بالتأكيد، تواضعاً. فهو يتابع إدارة ابرشيته بشكل ديمقراطي كالسابق (الأمر الذي يخجل السلطات الزمنية ويقلقها في آن) ويبقي بابه مفتوحاً لكل طارق.

في الواقع، لقد اتخذ لنفسه برنامجاً يومياً كان يطيقه بدقة. فينهض في الخامسة صباحاً ويقوم ببعض التمارين الرياضية. وفي الخامسة والنصف يذهب الى كنيسته الخاصة للتأمل وإقامة القداس. في السابعة يتناول طعام الفطور وينصرف إلى العمل الشخصي بلا انقطاع حتى الحادية عشرة مصراً على ألا يقطع عليه أحد هذا العمل الذي كان يقوم به في كنيسته الخاصة حيث وضع مكتباص كان يقصده كلما أراد عملاً خاصاً به. ومن الحادية عشرة حتى الواحدة كان يضع نفسه في تصرف الجميع ويستقبلهم بحسب مواقيت وصولهم غير مراعاة لمقاماتهم. فأهلاً وسهلاً بالجميع.

التقي يوماً في الشارع سيدة يعرفها معرفة شخصية فبادرها بالسؤال: " لماذا تتأخرين عن زيارتي؟".

فأجابت: " لأن للكادرينال ما يشغل به وقته وهذا أهم من استقبال العجائز والتحدث اليهن".

فرمى برأسه إلى وراء مقهقها وقال: " إذا سأنتظرك غداً".

لكنه لم يكن يصرف الوقت بلا جدوى. فبعد التحدث مع زائرته حوالي ربع ساعة، كان يقترح عليه أن يصلى معه صلاة السبحة!

وقد هجر دراجته مكرهاً، احتراماً لمقامه الرفيع، وقبل ان يتجول بالسيارة عند الضرورة (أي عندما كان يتعذر عليه التنقل سيراً على القدمين). ولكي لا يجد نفسه مضطراً لإضاعة الوقت، عمد الى استنباط نوع خاص من الاضاعة في السيارة يتيح له قراءة آخر المستجدات أو دراسة الوثائق المهمة.

كان سائقه مأخوذاً به لكنه كان يأسف لقلّة نظافته وقد اشكى يوماً لاحد اصدقاء الكادرينال قائلاً: " أني اخجل لأجله. أنه زري المنظر. انظر إلى قمصانه واحذيته يا للعار!".

كان يفضل، في تنقله، السير على القدمين ليستطيع التوقف والتحدث مع الذين يعرفهم. هذه طريقة كانت تحول دون وصوله إلى الأماكن البعيدة.

وهكذا كان يصل إلى مواعيده متأخراً في غالب الأحيان. الأمر الذي كان يضايق معاونيه كثيراً. كان يشعر من يلتقيه من معارفه " بأن التحدث معه في هذا الوقت هو خير ما كان يريد ان يفعله". فلا عجب اذا كان كل واحد من أهالي كراكوفيا يذكره قائلاً: " صديقي الكادرينال".

كان رقيق العاطفة فذات يوم فقدت سيدة اختها الوحيدة، بعد ان افقدتها الحرب اقاربها الذكور. فاتصل بها هاتفياً بعد ساعات قليلة من وفا اختها قائلاً: " تعالي لرؤيتي غداً صباحاً". فأنت وبقي معها أكثر من ساعة معزياً.

وكان يجيب اجابات شخصية عن جميع الرسائل لتي ترده.

وقال أحدهم: " كان يصيب على الفور لب الاشياء، كانت له مهارة مدهشة في ايجاد الحلول المناسبة".
بات بينز امرأة انكليزية شابة، أنت كراكوفيا لتمضي فيها بعض الوقت مع اصحابها. فالتفت الكاردينال ولا تزال تذكر لقاءها الاول به. كانت اذ ذاك متوترة الأعصاب إثر موت والدها ولأسباب أخرى، ثم ان مشقة السفر زادت من توتر أعصابها فقالت:

" أوصيتني د. بأن أتاخر بالنوم، على أن تأتي هي عند الظهيرة وتصحبني إلى القديس. قالت: " سنذهب إلى قديس " فويك" (عمو) فلم أعر كلامها أقل اهتمام ولما بدأ القديس فهمت انه كان قداساً مختلفاً".

كان ذلك في كنيسة فويتيللا الخاصة و كنت و د . المشتركين الوحيدتين .

كانت بدلة القديس، خلافاً لبدلات سائر الكهنة في ذاك الزمن، في غاية البساطة وكان يتلو الصلوات على مهل، وقد لا أفيه حقه اذا قلت انه كان هو صلاة كلية. كان يلفظ الكلمات بتمعن وايمان حي.
بعد القديس قدمتنني د. للكاردينال على أنني ابنتها الانكليزية. فأخذ يدي بكلتا يديه معانقاً أكثر منه مصافحاً وقال ك" يجب ان تبقي معنا إلى أن تستعيدي قوتك". اذكر كم كنت متأثرة لبالغ اهتمامه البادي في عينه. فهو يمعن في النظر اليك، وكأنه لا يستطيع تضييع الوقت بالظر الى ظاهره، بل يريد

النفاز إلى داخلك. قلبه ملئ بالعاطفة متجاوز لللياقات الرسمية. وقد جعلني أشعر باقتناع ان بقائي في كراكوفيا سيعيد إلى قوتي حقاً.

لم أحاول الجثو أمامه أو تقبيل خاتمه – مع العلم انه لم يكن يلبس خاتماً – ومجرد التفكير فيه لم يكن وادراً ظل أحداً يدي بكلتي يديه بلا أقل ارتباك متابعاً التحدث مع د. بالبولونية“.

لم تنفك الدار الأسقفية عن أن تكون مركزاً لكل نشاط فهي تعج دائماً بالأزواج والأطفال والجانحين والمرضى. وكان فويتيلا يولي المرضى والمعاقين اهتماماً خاصاً، عاملاً لخيرهم الروحي والجسدي معاً. كان يزورهم في منازلهم ويقي القداس فيها (وبقي حتى انتخابه بابا يتوسل الى السلطات للمساح بنقل القداس من أجلهم عبر الاذاعة. ذلك ان الكنيسة كانت محرومة استخدام وسائل الاعلام الرسمية). كان ينظم لهم الرياضات الروحية فيجعلها مناسبات لاصطحابهم في نزعات بالسيارات، كما كان يؤكد لهم استعداداه واستعداد كهنته الدائم لخدمتهم في بيوتهم وفي خارجها. كان يعلم كم هي شاقة حالة المرضى المزمين وكم يعانون من الضيق المادي، فخصص جناحاً في الدار الاسقفية يستقبل فيها من يرغب في تمضية اسبوع أو اسبوعين للراحة.

كان يشدد دائماً على أن مهمة الاساقفة والكهنة (بحجة اولى الكرادلة) لا الحكم بل الخدمة وقيل ان يعمل بما يعظ. ويقضي عشرين ساعة من يومه في الخدمة.

كان عدد اصدقائه الجدد ينمو باطراد مع محافظه على صداقاته القديمة.

ولم يكف اصدقاءه القدامى في الجامعة، ورفاقه في مقلع الحجارة في سولقي عن زيارته ولم تحل الرفيعة دون استمرار علاقته بهم. فكانوا يسمونه ” رجل الشعب“. ويطلقون عليه القول البولوني المأثور: ” رجل الرقص والسبحة“. انه نسيج وحده، فمع كونه رجل الله يجد في الحياة متعة بالغة.

ويستعمل الأب غرزبك تعبيراً آخر عنه فيقول : " إنه مئات تام : رجل الله رجل العقل ورجل القلب الكبير".

يجب ألا نستنتج مما تقدم انه كان ميالاً إلى حياه الترف بل أنه كان يرتاح الى الجميع ومع الجميع ، يأكل مما يقدم له وإذا خير يختار اللبن الديم الممزوج بالحنطة السوداء (نوع من المأكّل وعادات وحفلات وأغان.

تقول السيدة الانكليزية السابق ذكرها: " تناولنا طعام الفطور معاً صباح عيد الفصح من سنة 1968 بعد أن اشتركنا في قداس الساعة التاسعة الي احتفل به في كنيسة لقديسة حنة داخل الجامعة ،

ومن ثم صحبنا الى شقتنا " ليفاقس " معنا البيض. فسلم على الأطفال بأن امسك برأس كل واحد منهم بكلتا يديه وطبع قبلة على جبينه. كان الاطفال مرتاحين اليه جداً اذ راح يحادثهم ويمازحهم بينما كنا نحن نعد الفطور المؤلف من خبز بولوني وجبنة مع سجق وفطر مخلل. لقد أكل من الصنفين الآخرين بشاهية واني آمل ان يتدبر امره في الفاتيكان للحصول على شيء من الفطر البولوني".

لا بد لبلوغ الشقة السابق ذكرها من تسلق ثمان وثمانين درجة ، ومعظم الصاعدين اليها، حتى الرياضيين منهم، يصلونها منقطعي الأنفاس، لاهئين. إما فوتيلا فلا. وأضافت السيدة الانكليزية: " عندما فتحت له الباب وجدته وكأنه لم يصعد درجة واحدة".

وربما لا يكون في الأمر غرابة بالنسبة لشخص يمضي معظم أوقات فراغه في الجبال ويشهد على ذلك كاهن رافقه مرة في تسلق الجبال فيقول : " لم يكن تسلقنا طويلاً ، بل كان المرتفع حاداً ، اذكر أنني مع هذا وصلت مقطوع الأنفاس. اما فوتيلا فكان يتقدم بخطى ثابتة متزنة وجهد. عندما كان يصل المكان

الصعب كان يعرف كيف يثبتته قدمه. فيخطط لكل خطوة بدون ان يبدو عليه ذلك، يتسلق ببطئ ومهارة".

ويبدو ان للتزلج على الثلوج متطلبات اخرى. فقد عرف عنه اختياره للمنحدرات الطويلة الصعبة يتزلج عليها بجلد، وعلى حد تعبير أحد اصدقائه:

" كان أكثر متزلجي التاتراس تهوراً، يهوى رعشة المغامرة ويعشق خطرها".

وقد تعرض مرة لخطر من نوع آخر، اذ ضل خط التزلج المألوف ووجد نفسه في داخل الحدود من نوع آخر اذ ضل خط التزلج المألوف، ووجد نفسه في داخل الحدود التشيكوسلوفاكية. هناك اوقفه رجال الأمن واستجوبوه طوال ست ساعات وافضين التصديق انه كاردينال كراكوفيا حقاً!

لم يتردد يوماً في مساعدة الطلاب الجامعيين وكسب صداقتهم، ولم يترددوا هم في مبادلتة العاطفة بمثله. قال أحدهم: " كان مرة في شقتي بحضور فريق من الطلاب. فلفتني اصغاؤه التام لكل فرد وابلاؤه كبير الاهتمام بما يقول.

كان في بعض الأحيان يتلفظ ببضع كلمات، ثم يعود بعدها إلى الصمت معتبراً نفسه واحداً منا وهكذا كنا بدورنا نعتبره فيكسب حبنا ونكسب حبه".

بدأ الطلاب والمفكرين، في كل انحاء الوطن، يظهرن دلائل التبرم من الاوضاع القائمة. كانوا مغتاضين من اساليب الحد من الحريات وبدت أجواء الجامعات مشحونة بالتوتر.

في عام 1978 قدمت مسرحية "الأجداد" لآدم ميكيافيتش في فرسوفيا وكراكوفيا فأشعلت الفتيل. كان ميكيافيتش قد كتب مسرحيته احتجاجاً على الأعمال الوحشية التي قام بها الروس ضد البولونيين في أوائل التاسع عشر.

وكان الموضوع محظوراً في بولونيا خوفاً من الاساءة الى جارتها القديرة. فكان الاقبال على الحضور شديداً، والحماسة للمسرحية تلتهب تصفيقاً وهتافاً، ولا عجب في ذلك، لأن المسرحية تبلور غيظهم وتثيره حتى اوجه في آن. لكنها أوقفت ولم يكن عرضها ممكناً أكثر من مرات قليلة كانت فيها تشهد الانفجار العاطفي ذاته والتصفيق الحاد عينه.

بعد هذا بأسابيع قليلة خرج الطلاب الجامعيون واساتذتهم الى الشوارع مطالبين بتعطيل الرقابة. وتنادي الطلاب فرصوفا الى لقاء يعبرون فيه عن احتجاجهم، فتصدت لهم ميليشيات الحكومة، وضربت بعضهم فاشتد الغيظ وانتشرت حميته الى سائر الجامعات كالنار في الهشيم.

وحبست الحكومة اناسها خوفاً من ان يهب العمال لمساعدة لطلاب.

لكن هؤلاء لم يحركوا ساكناً اذ اعتبروا ان المعركة ليست معركتهم. فالمفكرين يقاتلون في سبيل الافكار لا في سبيل الخبز. اذ ذاك ا بعد ان علم رجال الحكومة ان العمال غير مبالين عندوا بسرعة ووحشية الى اقالة الاساتذة الجامعيين من مناصبهم واعتقالهم واتخذت التدابير الضرورية لمنع تقدمهم مدى الحياة ولطرد الطلاب وهدم تطلعاتهم المستقبلية. (نشير هنا الى وجوب النظر الى كل ذلك في اطار ربيع براغ أي ذاك التفتح القصير العمر في تشيكوسلوفاكيا على نوع من الحرية لم تكن السلطات البولونية لتسمح به لمواطنيها. وكمن سخر القدر حقاً ان يعم الشغب عام 1968 بلدان اوروبا الغربية كلها احتجاجاً على قيم المجتمع الغربي التي تجاوزها الزمن، بينما كان الطلاب في بولونيا يحتجون على غياب تلك الحريات التي يببالغ في احتقارها نظراًؤهم الطلاب في الغرب).

ومما يؤسف له ان تكون الكنيسة هي ايضاً قد رفضت مد يد المساندة إذ اعتبرت ما جرى شجاراً عائلياً بين الشيوعيين، ولم تع حجم جناح اليسار بين مفكري الحزب الشيوعي، بل رأت فيهم فقط اناساً كانوا الى وقت قريب يكيلون لها الانتقاد جزافاً.

الكاردينال فويتيلا ان متهيئاً للدفاع عنه وهذا ما فعله علناً.

وعندما اكتشفت الحكومة بدافع من حقدها ان بين المتمردين عدداً كبيراً من اليهود وبدأت تقوم بتطهير معاد للساميين، أخذ فويتيلا يحث زملاءه الاساقفة على اعلان مساندتهم لليهود المنكودي الحظ.

لم يكن من طبيعة فويتيلا الوقوف مكتوف اليدين امام أي حظر يهدد أي نوع من أنواع الحرية والحرية الاكاديمية كانت مهددة. ليس من قبل الحكومة وحسب، بل غالباً من قبل الكنيسة البولونية ايضاً.

في تلك الأثناء، بدأت مؤسسة "سلام" الحكومية عزف سيمفونية التشكي من حركة "زناك" الكاثوليكية والتعريض بها. وكانت "زناك" لولب نشاط أندية أهل الفكر الكاثوليكين الذين كان الكاردينال فيشنسكي على حذر منه كما هو معروف.

وعندما كتب جرزي توروفيش مقالة في جريدته "تيفودينك" مشيراً حلول الوقت ليواجه الرؤساء الكنسيون واقع وجود أزمة في الكنيسة، هاجمه الكاردينال فيشنسكي علناً مصرحاً من على أحد منابر فرصفيا ان " لا أزمة الا في عقول بعض المفكرين الكاثوليكين". فتدخل الكاردينال فويتيلا ووضع مذكرة الى جريدة تيفودينك اجتهد فيها لإظهار واجبات الكتاب الكاثوليكين ومسؤولياتهم تجاه الاوضاع المتنوعة التي عليهم ان يجبهوها. ونجح في تهدئة الوضع.

وكان عليه، علاوة على ذلك، ان يقنع البابا بولس السادس بأن حركة "زناك"، ابعده من ان تكون خطراً، هي حيوية لسلامة الكنيسة الكاثوليكية في بولونيا خلافاً لما تضمنته شكوى كان فيشنسكي قد رفعها في سورة غضبه الى الأب الأقدس.

كانت الصحافة الغربية - التي تهوى النعوت القريبة المنال كـ "تقدمي" و"محافظ" وتزدهر بقدر ما تروج من أخبار النزاع - تميل دائماً الى البحث عن مؤشرات للخلاف بين الكاردينالين البولونيين. كما

روجت جرائد عصابة و"سلام" الكاثوليكية" شائعات تهدف الى تعزيز الانطباع بان الكاردينالين حقاً على خلاف.

ان مناورة عصابة " سلام" في صراعها للوصول الى الحكم أمر مفهوم، ولكن الصحافة الغربية ربما كانت مخدوعة. إذ ليس هناك من دليل على اختلاف الآراء بين اعضاء مجلس الاساقفة البولوليين على الاقل حسب رأي الشعب الذي عنده الخبر اليقين. قد يكون هناك بعض الاختلافات الطفيفية بين الكاردينالين لكنهما عرفا بتقاربها الشديد على الصاعدين الشخصي والروحي.

كلا الكاردينالين يتحدر من أسرة متواضعة (كان والد فيشنسكي خادم كنيسة وعارف أرغن)، وكلاهما أول برز في عائلته فإن يكن ثمة فرق بينهما فهو في الخبرة وحسب. تسلم فيشنسكي السلطة يوم بدأ القادرة المتوحدة تتعرض لتهديدات مجتمع علماني هو أيضاً قادر ومتوحد. يومها كانت الحاجة ماسة الى زعامة قوية تدرأ الخطر عنها. وروح المجابهة كادت تكون عنده طبيعية ثانية. أما فويتيلا المائل بطبعه الى التفكير أكثر منه الى التدبير، فقد تسلم السلطة في زمن لزمن سلفه، في زمن كانت فيه كنيسة البابا يوحنا تعيد النظر في دورها تجاه العالم، وكان العالم ذاته قد سئم المجابهة.

كان فيشنسكي يرى ان التأثيرات التحررية التي سهل المجمع تسربها ستمزق الكنيسة، وتبريراً لموقفه المتصلب قدم بولونيا مثلاً حيق الكنائس تعج بالمصلين. والمدارس الاكليريكية لم تعد تتسع لطالبي الدخول اليها. كان فيشنسكي اوتوقراطياص وفويتيلا ديمقراطياً.

و لفويتيلا يعود فضل جمع الاساقفة البولونيين في جسد واحد تسمع فيه جميع الأصوات بصورة فردية. لقد أبدوا وحدتهم للعالم دون بهرجة. وتديلاً على أجماعهم التام كان كل اسقف يوقع خطياً جميع البيانات الصادرة عن مجلسهم. قد فهموا، وهم في خط المواجهة الاول، حيث كانت نستغل كل بادرة تشويش او انقسام، انه من الانسب بل من الضروري رص الصفوف فيما بينهم.

لم تخمد نار اضطرابات 1968 بل بالعكس ازدادت الضغوط في أجواء البلاد. وبدا السيد غومولكا زعيم الحزب الشيوعي بعيداً عن الشعب في ذاك الوقت أكثر منه في أي وقت مضى. وقد أثبت ذلك حين قرر، حوالى ميلاد 1970، رفع أسعار المواد الغذائية بنسبة 25٪ من غير ان يرفع الرواتب والأجور. كان ذلك منه تصرفاً أحق لا يصدق يظهر في ذات الوقت ما بلغه عدم تفهم الزعماء للعمال. فثار هؤلاء ولجأوا إلى العنف الأمر الذي اثار مباشرة اعمال شغب في البلطيق في مرفاي غدانسك وشاشين أطلق في اثنائها رجال البوليس النار من مسدساتهم وصرعوا مئات العمال (في هذ الوقت كان دور المفكرين البقاء في منازلهم). تلك كانت نهاية غومولكا في الأمانة العامة للحزب.

ولما خلفه ادوار غيريك تغاقم الشعب، فاضطر للرضوخ للضغوط وخفض اسعار المواد الغذائية الباهظة. ان العبرة من الاشتباكات وسقوط غومولكا هي ان يتذكر الحكام ان عليهم حساباً سيؤدونه يوماً للشعب. وقد أدرك لسيد غيريك الأمثلة فقال رئيس وزارئه في أول بيان وزاري تلاه أمام مجلس الشعب 1950 ان الحكومة ترغب في تقوية التعاون بين جميع المواطنين وتأمل في ان تلاقي رغبتها هذه تفهماً من الكاثوليكيين اكليروساً وعلمانيين. كان ذلك بمثابة غصن وزيتون لوح به غيرتك.

وعندما وقعت المانيا الغربية اخيراً معاهدة مع بولونيا تعترف فيها بحدود ما بعد الحرب واسرع الفاتيكان على اثرها الى تعيين اساقفة اصيلين على المقاطعات الغربية وصم الابرشيات الجديدة الى الكنيسة البولونية اذ ذاك بدأ الميزان يميل الى ما اسمته الحكومة اعادة العاقات بين الكنيسة والدولة " إلى طبيعتها"، مع العلم ان مدلول الكلمة يختلف لدى الكنيسة عنه لدى الدولة.

وبالإجمال فقد أصبح من المفهوم صمناً انه اذا كانت الكنيسة لا تعمل على معارضة "الاشتراكية"، فالدولة ستعتف بالكنيسة كقوة غاعلة في المجتمع على صعيدي التربية والاخلاق.

وهكذا ذاب الجليد مرة جديدة كالمرّة الاولى. ولكنها هدنة لن تعمر اكثر من سنوات معدودات.

“ هذا المجنون العظيم ”

ان اعادة الأمور الى طبيعتها في المرة السابقة، أي اقامة العلاقات الجديدة بين بولونيا والمانيا، كانت مدعاة لفرح فويتيلا الكبير. ذلك ن المعاهدة الجديدة بين الدولتين مهرت بطابعها المبادرة التي كان الاساقفة قد قاموا بها عام 1966. ومنذ ذلك الحين تكررت اللقاءات الرسمية بين البولونيين والالمان (ففي عام 1977 زار الكاردينال فيشنسكي المانيا و قدس في ناشو معسكر الاعتقال السابق). وعملت منظمة “ سلام المسيح ” (باكس كريستي) - فرع المانيا - وعصبة “ زناك ” البولونية على عقد حلقات دراسية مشتركة كل سنتين، مرة في ألمانيا واخرى في بولونيا كانت تعقد عادة في اوشويتز.

تقع اوشوينز على مسافة قصيرة من كراكوفيا. انها بلا شك ابشع جهنم ارضية ابتكرها انسان اذ كانت لها القدرة على اباداة ستين افاً كل يوم). ومع هذا كان فويتيلا يرى فيها علامة رجاء. والسبب في ذلك ان كاهناً فرنسيسكانياً يدعى مكسيميليان كولبي كان قد بذل حياته فيها ليخلص حياة رجل آخر فطوب في روما في السابع عشر من تشرين الاول 1971 (يصادف هذا التاريخ ذكرى اليوم الاول لحبرية البابا يوحنا بولس الثاني أي 17 تشرين الاول 1978. ولن ينسى البابا هذه المصادقة).

كان تطويب الأب مكسيميليان مناسبة لفرح عظيم ومصالحة عكميقة حضرها معظم الاساقفة الالمان (او ممثلوهم) وحوالي أربعة أو خمسة آلاف علماني الماني. وسبق ان قدم الالمان المساعدات المالية لاعداد احتفالات التطويب الذي بمناسبته تمت مصالحات عدة مؤثرة. فأقيمت قدايس مشتركة بين

البولونيين والالمان. وعم التسليم بأن الجراح القديمة يجب أن تضمند في داخل الكنيسة التي هي رمز الغفران وعربونه.

وبمناسبة الذكرى الاولى لتطويب الأب كولبي، قال الكاردينال فويتيلا في خطبة له في أوشويتز 1972 أمام جمهور كبير متعدد لجنسيات فيه الكثير من الالمان:

" لهذا المكان، اوشويتز، معنى. فهو بمثابة صفارة الانذار لوطننا وللجنس البشري كافة. انه يعبر عن مستوى كبير من احتقار الكائن البشري احتقاراً مرعباً، إلى درجة انه يشهد افناء انسان على يد انسان آخر. في هذا المكان أبدلت وصية المحبة بالكراهية المفروضة، فهل هذا صحيح اليوم اقل منه فيما مضى؟ هل تعني تصفية معسكر اوشويتز نفسه زوال ما وجد هذا المعسكر اجله؟

لكن العناية الالهية اظهرت ذاتها اخيراً حوالي خاتمة زمن المحنة الرهيب الذي يبقى اوشويتز رمزاً نهائياً له حياة مكسيميليان كولبي وموته يظهران قدرة الحب في الانتصار على الكراهية، وقدرة الروح البشرية في التغلب على الموت".(1)

قصة الأب كولبي معروفة لدى جميع البولونيين. انه الانسان الذي اشتهر قبل موته وترك اثره العميق في الكاردينال فويتيلا. لقد اشتهر ككاهن في بولونيا كلها. ديريه في نيا بوكالانوف (2) بناه بنفسه مع رهبانه عام 1927) من أكبر اديار العالم، ويذهب بعضهم الى انه من أكبرها اطلاقاً. وهو مركز لنشاطات كثيرة ومختلفة، يكفي ذاته بصورة تامة ويضم 762 عضواً بينهم اطباء صحة واطباء اسنان ومزارعون وصناعيون وخائطون وبنائون وطباعون وبستانيون واسكافيون وخبازون (بعدما حصل الأب

1. نقلاً عن صحيفة " تيفودنيك " 1972/9/25

2. الكلمة تعني " مدينة الحبل بلا دنس " وتعبر عن مدى تعبده للعداء

مكسيميليان كولبي على اطفائية حول بعض رهبانه الى اطفائيين).

كان فيه مدرسة اكليريكية ومركز للإرساليات ومؤسسة للطباعة ومحطة اذاعة، وكانت امكاناته تبدو بلا حدود. والأب كولبي في كل هذا هو الروح الموجه. وقد شجعه نجاح مجلته الشهرية (التي تصاعد انتشار اعدادها من خمسة آلاف إلى سبعين ألفاً فالي سبعمئة وخمسين ألفاً) على تركيب أحدث آلات الطباعة وتبني أحدث اساليبها. وفي عام 1935 اطلق جريدة كاثوليكية يومية ما لبثت ان اصبحت، طوال وجودها القصير، الصحيفة البولونية الاوسع انتشاراً اذ كانت تطبع مئة وسبعة وثلاثين ألف عدد في بحر الاسبوع، ومئتين وخمسة وعشرين ألفاً ايام الآحاد.

ولم يقف مكسيميليان عند هذا الحد ما دامت الكنيسة تعد نفسها لاستخدام وسائل الاتصال الاجتماعية بل انكب على انشاء محطة اذاعة لها لحن مميز وهو نشيد لورد كانت تعزفه اوركسترا الأخوة الرهبان. اذ ذاك قرر استحداث اطفائية لحماية مختلف معداته النفسية.

ذهب الأب مكسيميليان كولبي الى اليابان وأنشأ فيها نيا بوكولونوفا قانية.

لقد كان مصمماً على اقتناء مطبعة وتأسيس مجلة وهذا ما حققه بعد شهر من وصوله الى هناك مع أربعة من رهبانه بالرغم من جهله التام للغة اليابانية.

(عندما عرف رئيس اساقفة ناغاسكي ان الأب مكسيميليان يحمل شهادتي دكتوراه طلب اليه ان يدرس الفلسفة في المعهد الاكليريكي الابرشي على ان يمنحه بالمقابل الاذن ببدء الطباعة).

ترك الأب مكسيميليان اليابان مبحراً إلى الملابار حيث أنشأ نيا بوكالانوفا ثالثة وفيما كان مسافراً يوماً في روسيا، راح يحلم بإنشاء دير هناك وإصدار مجلة بالروسية. وكان قد درس الروسية واطلع بعمق على الأدب الروسي. وعلى غرار يوحنا الثالث والعشرين والكاردينال فويتيللا كان يبحث عن العناصر الطيبة حتى في الأنظمة التي يعتقد انها شريرة.

استدعى عام 1936 الى بولونيا. وكانت صحته دائماً ضعيفة لإصابته بالسل الا انها تفاقمت سوءاً فمني بالصداع واكتسى جسده بالخراجات.

إنما كل هذه لم تكن سوى وخزات طيفة اذا قيست بالاستشهاد التام الذي كان ينتظره في بولونيا. في الثالث عشر من أيلول 1939 احتل الغزاة الالمان نيا بوكالانوف، واقتادوا جميع سكانه أسرى الى ألمانيا، وكان الأب مكسيميليان من عددهم. لكن هذا الاسر لم يطل اذ افرج عن جميع الاسري في الثامن من كانون الأول (عيد الحبل بلا دنس). فاستعر النشاط. فقد أعد الأب مكسيميليان ملجأ لثلاثة خلاف لاجئ بولوني بينهم ألفاً يهوديوقال لأخوته الرهبان: " علينا ان نبذل اقصى جهدنا لمساعدة اولئك المساكين الذين جروا خارج منازلهم وحرموا امس حاجاتهم. رسالتنا ان نكون بينهم". وقد شارك الاخوة اللاجئيين في كل شيء فأووهم وقدموا القوت لهم وكسوهم وجعلوا كل آلياتهم في خدمتهم.

لقد كان من الطبيعي ان تحوم الشبهات حول كولبي. فقد كتب في أوائل 1941 في آخر عدد من مجلته " فارس الحبل بلا دنس" معرضاً ذاته للاعتقال : " لن يعطى لاحد في العالم ان يغير الحقيقة. فمن المفروض فينا بل علينا ان نبحت عن الحقيقة وفي حال العثور عليها نخدمها. ان الخلاف الحقيقي هو لكامن في الداخل، وهو أبعد أثراً من جيوش الاحتلال ومجازر معسكرات الاعتقال. في نفس كل واحد منا عدوان لا يلتقيان : الطيبة والشر، الخطيئة والحب. فما فائدة الانتصارات في ساحة القتال اذا كنا مهوورين في عمق اعماق ذواتنا؟".

اعتقل في السابع عشر من شباط 1941 وارسل الى كراكوفيا حيث زج في سجن بافيك الذائع الصيت ووضع في الانفراد ليعامل المعاملة الخاصة بالمرضى.

وقد اخبرنا عيان انه في آذار من تلك السنة سأله حارس ينتمي الى البوليس السري - وقد رآه الفريسيكاني منزراً بالسبحة الوردية - هل يمن بالسيح. وعندما أجابه " نعم أو من" عاجله بضربه.

ثم أعاد الحارس لسؤال مراراً عدة وكان يسمع الجواب ذاته ويكيل له الضرب دون شفقة.

بعد هذا بقليل نزع ثوبه الفرنسيكاني وألبس عوضاً عنه لباس المساجين.

في الثامن والعشرين من نوار، ثقل الأب مكسيميليان إلى اوشويتز حيث ألبس لباس المكوم عليه بالموت – ثوباً مقلماً عليه علامه تحمل الرقم 16670- وأحيل على العمل في نقل الحجارة لبناء حائط فرن تحرق فيه جثث الموتى.

وفي آخر يوم من نوار فصل مع كهنة آخرين ليكون في " قسم بابيس" الذي يدبره محكوم سابق يدعى كروت. قال القائد لكروت: " هؤلاء قوم كسالى وطفيليون فشغلهم دائماً".

أرغم كروت الكهنة على قطع جذوع الاشجار الكبيرة وجملها وكان عليهم ان يقوموا بالعمل ذاته كل يوم، وإلى جانبهم الحراس يوسعونهم لكما ليزيدوهم مشقة. ورغم ان الأب مكسيميليان برئة واحدة كان يقبل المشقة واللزمات بهدوء عجيب وهو يعرف تماماً ان كروت يضمركرة للفرنسيسكانيين بنوع خاص ولذا بدأ يثقل عليه الحمل أكثر من غيره. كان زملاؤه يحاولون مساعدته لكنه كان يرفض كي لا يعرضهم للخطر قائلاً :

" كلا ! مرم تمنحني القوة فتصلح الحال".

وجد كروت يوماً في مكان مجاور الواحاً خشبية ثخينة وثقيلة. فاستدعى " الفرنسيكاني" وحمله اياها على ظهره وأمره بالركض . وعندما انهار تحتها ركله على معدته ووجهه وأمر رجاله بجلده خمسين جلدة ففقد وعيه.

اذ ذاك قذفه الى الوحل وتركه فيه كي يموت. لكن رفاقه وفقوا في تهريبه إلى المعسكر – المستشفى. وهناك، بالرغم من ألمه الشديد، كان يسمع الاعترافات سراً ويكلم رفاقه عن حب الله. حين كان يؤتي بالطعام ويسرع كل واحد ليأخذ مكانه للحصول على حصته، كان الأب كولبي يقف جانباً بحيث لا يبقى له شيء في أكثر الاحيان. وكان مرات أخرى يشرك الباقين في حصته الضئيلة من الحساء والخبز. وعندما سئل مرة: " أليس من الجنون ان تتنكر لذاتك على هذا النحو بينما الكل يجاهد للبقاء حياً".

أجاب : لكل انسان هدف في الحياة. وهدف معظم هؤلاء الرجال العودة الى منازلهم حيث زوجاتهم وابناؤهم. اما هدفي فبذل حياتي لخير كل الناس".

كانوا يلتقون خفية لسماح كلام الحب والتشجيع. كانوا مأخوذين خاصة بمثله. ويتذكر الأب زيغمونت روشاك فيقول: " كل مرة كنت أراه فيها، أشعر في داخلي بفيض خارق من طيبته. مع انه كان مثلنا يلبس الثياب الممزقة ويعلق في زناره " طاسة" التنك، كان الناظر اليه ينسى ظاهرة القدر ويؤخذ فقط بمحياه الهادئ وقداسته المشعة".

في يوم من ايام تموز، تمكن أحد السجناء في معسكر اوشويتز من الفرار. فقرت سلطات المعسكر الانتقام بقتل عشرة اشخاص جوعاً وذلك بعزلهم في قبو محصن تحت الارض بلا شبابيك (وشاء السخر البغيض ان يعثر على الفار فيما بعد غارقاً في مرحاض المعسكر. وكان المر بغنى عن تلك التدابير الانتقامية المرعبة). فصف الاسرى ظهراً تحت نار الشمس المحرقة واختبر منهم اعتباراً عشر ضحايا . فسمع صوت أحدهم، فرنسيس غاجونيشك، يصرخ بصوت يائس: " زوجتي! أولادي ! لن أراهم أبداً "

ولدهشة الجميع خرج رجل من الصف وتقدم ليأخذ مكانه. انمه الأسير رقم 16670 مكسيميليان كولبي. واذ لم يكن رجل البوليس السري، فريتش اللحام، يعبأ بهوية الشخص - ما دام المهم تأمين العدد - أوما برأسه موافقاً. لكنه سأل من غير ان يبدي أقل اهتمام: " من انت؟" فاجيب: " انا كاهن كاثوليكي".

طبعاً لم يكن للقصة نهاية سعيدة. فقد روى برونو بورجويس - الذي عمل مساعداً للحاجب ومترجماً في الأقبية المحصنة تحت الارض - ما شاهده بأعينه، وهو لا يزال حياً ، قال :
" من زنزانة أولئك البؤساء، كانت ترتفع الصلوات اليومية - صلاة السبحة الوردية - والتراتيل، فيشاركهم فيها سجناء الزنانات المجاورة.

وعندما كان يغيب الحراس منت اذهب اليهم واشد عزائهم. فكان يتردد صدى الصلوات الحارة والأناشيد المريمية- لمريم " أم البؤساء"- في كل الأروقة. كنت أتصو نفسي في كنيسة. الأب كولبي يدبر الصلاة والجميع يجيبون بصوت واح. كانت صلاتهم حارة الى درجة أنهم كانوا لا يشعرون بمجئ مفتشين من البوليس السري وما كانت أصواتهم لتخفت الا بعد أن ينتهزهم هؤلاء. وعندما كانت تفتح أبواب الزنانات كان يرتفع صراخهم مستعطين كسر الخبز والماء التي لم تكن لتقدم لهم. وإذا تجرأ أحدهم - وهو عادة أشدهم قوة - على الاقتراب من الباب كان نصيبه الركل على معدته فيقع على ظهره ميتاً على أرض الباطون وان م يمت أطلق ل نار عليه...

تحمل الأب كولبي كل هذا بشجاعة. فلم يكن يطلب شيئاً ولم يتذمر البتة، بل كان يعمل على رفع معنويات الاخرين...

منذ ان بدأ هزالهم يشند، صارت صلواتهم تسمع همساً. عند كل تفتيش كانوا يشاهدون ممددين أرضاً، إلا الأب كولبي جاثياً أو وافقاً في الوسط ينظر بابتهاج إلى وجوه البوليس السري.

مضي اسبوعان على هذه الحالة كانوا في اثنائها يموتون واحداً تلو الآخر، ولم يبق منهم سوى اربعة بينهم اب كولبي. استطالت السلطات المدرة اذ كانت بحاجة الى المكان لزج الضحايا لجدد. فاستقدموا رئيس التمريض في المعسكر، المدعو بوك - وه مجرم الماني شهير - ليحقن كل واحد منهم في عرق اليد اليسري بمادة أسيد الكربوليك. قدم الأب كولبي يده لجلاده من تلقائه وهو يصلي. وإذ لم استطع تحمل المشهد غادرت المكان بحجة الانشغال. ولم أعد الا بعد ان غادره الجلادون فوجدت الأب كولبي قاعداً ظهره إلى الحائط، وعيناه مفتوحتان ورأسه متدل ووجهه هادئ ومشع".

دوى صدى بطولة الأب كولبي إلى أبعد من اوشويتز. ففي حياته زرع الحب في صحراء الكراهية. وفي مماته كان، على حد تصريح الأب جرزي بيالاي، " صدمة مليئة بالرجاء، حاملة معها حياة جديدة مليئة بالقوة....

كان موته بمثابة شعاع من نور باهر في الظلام المعسكر الدامس".

بعد الحرب، وفي العالم أجمع، كتبت المقالات الكثيرة عن "قديس الزمن المعاصر" و"قديس التقديم" و"عماق القداسة". ونسبت اليه عجائب الشفاء. وبحسب ما كتب الاساقفة البولونيون: " فحياة هذا الرجل وموته دليل وشاهد على ان الله قادر على أن يهزم أعمق الكراهيات وأبغض الظلم وحتى الموت نفسه".

بدأت الطلبات لتطويبه ملحة وقدمت الدعوى في ذلك عام 1947 وبعد دحض الاعتراضات المألوفة تحدث محامي الادعاء عن " سحر هذا المجنون العظيم".

وقد حضر حفلة التطويب فرنسيس اجونيشك الذي خلصه كوبي.

وكذلك شارك فويتيليا بالاحتفال وعقد على أثره مؤتمراً صحافياً ركز فيه بنوع خاص على جواب الأب كولب لفريتش: " انا كاهن كاثوليكي". قال فويتيليا:

" رافق المساكين المحكوم عليهم بالموت بصفته كاهناً كاثوليكياً. لم يكن يبغى تخليص الرجل العاشر بقدر ما كان يبغى مساعدة التسعة الآخرين على الاستعداد للموت. منذ اللحظة التي أقفل فيها الباب عليهم، حمل مسؤوليتهم ومسؤولية الذين يموتون جوعاً في الزنانات المجاورة والذين كانوا يصرخون صراخاً يرجف السامع رعباً... من المعروف ان أولئك المرذولين شعروا منذ اللحظة الاولى التي وجد فيها لأب كولبي وسطهم بحضور يحميهم، وفجأة، وقبيل انتظار نهايتهم الشنيعة، أصبحت زنانتهم تردد اصداء الترانيم والابتهالات حتى دهش الحراس انفسهم وقالوا: " لم نر مثل هذا قط".

في وقت كان كثير من كهنة العالم يتبرمون من صفتهم الكهنوتية، أعطى مكسيميليان كولبي الجواب لا بالبرهان اللاهوتي بل بحياته وموته. فقد رغب ان يثبت، مثل معلمه، ان " ما من حب اعظم من ان يبذل الانسان نفسه عن احبائه" ان هذا الحب فهو المحك الاخير لتلاميذ المسيح. نحن لا نستطيع ان تكون كلنا ابطالاً لكن أوليس في رفضنا الاختيار دليل منا على الاخفاق؟

مات الأب مكسيميليان كولبي في عهد العنف والاستبدال، في عهد اصبح الناس مجرد اصنام متحركة أحط منزلة من العبيد. لا شك ان الذعر الناجم عن ذكر معسكرات الاعتقال يتقلص تدريجياً، وان الشبية تكاد لا تعرف عنها شيئاً، لكن الذين نجوا منها يعرفون حق المعرفة ان النظام التوتاليتاري يحط من قدر الانسان وبذله، وبهزأ به. فمثل هذه الممارسات تنمي الكراهية. وقد قال لي يوماً أحدهم: " أكرهم لأنهم علموني الكراهية". لكن الشيء العجيب الذي يشهد له الكثيرون هو ان مكسيميليان كولبي لم يعرف الكراهية. كان ينظر الى الجلادين والضحايا نظرة مساواة، محققاً اليهم في صفاء الى درجة أن أحد أشد العسكريين قسوة أدار وجهه عنه قائلاً: " لا تنظر الينا هكذا ". هذا الرجل الذي يحمل الرقم 16670 حقق اصعب الانتصارات، انتصار حب يغفر ويسامح.....

لم يكن ذلك صدفة بل هو من علامات الأزمنة. فهذا الكاهن الذي مات جوعاً عام 1941 في معسكر أوشويتز عن سبعة واربعين عاماً وهو يعلن اليوم طوباوياً في اثناء مجمع جعل من أهدافه تحديد مفهوم الخدمة الكهنوتية قد أعطى هنا الجواب الحي عن مختلف السئلة النظرية التي طرحت وهو انه انسان من لحم ودم التزم حتى النهاية...."

أمام هذا المثال الجبار على الأمانة حتى الموت، كان الكادرينال فويتيلا، الذي تجمعه بالفرنسيسكاني امور كثيرة، ينظر بلا حماسة الى الكهنة الذين كانوا يتركون الخدمة الكهنوتية جماعاً جماعات. كان مكسيميليان المثال على ما يجب ان يكون الكاهن، كاهن القرن العشرين، وكان الانسان الذي جسد بشخصه الحب الذي أراه المسيح للعالم. ولم يكن فويتيلا ليشك في لك لحظة و" هو، على حد شهادة أحد اصدقائه، ذاك الكاهن الذي يريد ان يكون كاهناً وهذا أمر شبه نادر في عصرنا الحاضر. تلمس فيه الثقة فنشعر بدورك بالثقة".

مجامع محلية (سينودسات)

ماذا يعني في أيامنا كون الانسان مسيحياً ؟ وكونه شاهداً للمسيح أمام عالم اليوم؟
بهدين السؤالين جبه المجمع الفاتيكانى الثانى الكنيسة. فصمم كارول فويتيلا على ايجاد الجواب،
وقرر ان يعقد في أبرشيته سينودساً أو مجمعاً استشارياً.

كانت كواكوفيا قد بدأت الأعداد لعقد مجمع عام 1939، فاندلعت الحرب وتوقف كل شيء منذ
ذلك الحين وتبين ان سينودس فويتيلا يختلف عن السينودسات السابقة التي كان بحثها يقتصر على
الأمر الكليريكية فقط، وكان الكهنة يجتمعون ليوافقوا على ما اتخذ من مقررات. اما اليوم فاصبح
المجمع " رعويًا"، يتجه الى الشعب كله، مستخدماً مختلف طاقات الابرشية" ليتسنى لنا العمل معاً،
على ضوء الايمان، فنغني ايمان كل ذي ارادة صالحة، ونعمقه ونوطده". وأضاف: " أيامنا هذه بمثابة
خبرة ايمان تحتضر. واني لاعى جيداً ان فقدان الانسان المعاصر ايمانه يزعزع جذور كيانه أكثر منه في
الأزمان الغابرة. فعندما يتحدث القديس يوحنا عن " المتغلب المنتصر على العالم" فإنما يتحدث عن
ايماننا... ونحن، مسيحي النصف الثانى من القرن العشرين، نتوق الى مثل تلك الغلبة وستعمل لجلها
بكل قوانا".

أراد الكاردينال فويتيلا ان يحدث السينودس تغييراً في حياه شعبه. وقد سبق له ان قال كرس رئيساً
للأساقفة: " لسنا بحاجة الى برامج.... بل إلى سبل جديدة، وقوى جديدة، وعزم جديد". فالذي كان
يسعى اليه اذن هو السبل الجديدة لجعل روح الله يضطرم حياة في النفوس. ولن يكون سينودسه مجمعاً

عابراً بل كان يتوقع ان يبقية مفتوحاً. لكنه حدد لنفسه رسمياً مدة ثماني سنوات تبدأ في نوار 1971 وتنتهي في آخر نوار 1979، هذا التاريخ هو موعد الذكرى المئوية التاسعة لوفاة القديس ستانيسلاوس.

القديس ستانيسلاوس هو شفيع بولونيا. وقد درجت كراكوفيا على ان تخصه بإكرام مميز، وان يكن شفيع بولونيا كلها، لأنه فيها ولد وسيم اسقفاً، وفي كاتدرائيتها يرقد رفاتة. ويروى في سيرة حياته انه في عام 1.79 ندد بمسك الملك بوليسلوف الجسور تنديداً مكشوفاً، فأمر الملك فرسانه بقتله فوراً (وقد تم ذلك فعلاً) فقتلوه.

ثار ثائر البابا غريغوريوس السابع فعمد الى انزال الحرم بالملك ونفيه، وإلى اعلان الشهيد ستانيسلاوس قديساً، واصبح على كل ملك بولوني يخلفه ان يسير الى قبر القديس لابساً المسح، عاري القدمين، وان يطلب الغفران عن جريمة الملك جاثياً على ركبتيه. مهما تكن قيمة القصة من حيث التاريخ، فقوة الرمز فيها لا تزال حية لدى البولونيين . القديس ستانيسلاوس قام بدور حيوي طوال القرنين الثالث عشر والرابع عشر فكان رمز الوحدة البولونية . ومع ان مؤرخي القرن التاسع وما بعده يحاولون التلميح بأنه كان كاهناً مشاغباً تعاطي السياسة ونال جزاء... فهو لا تزال يرمز الى حق الفرد في انتقاد الحاكمين ويعتبر من الابطال الأوائل الذين دافعوا عن حقوق الانسان.

كان الكاردينال فويتيلا على بينة مما يحيط بالقصة من التباس. لكنه كان يقدر ايضاً أهمية ارمز، لذا كان يشارك في اكرام هذا القديس ولا سيما ان ذكرى وفاته تناسب تمام اختتام السنودس. فكتب في جريد التيغودنيك:

” علينا، في القرن العشرين، ان نحمل الشهادة ذاتها التي حملها القديس ستانيسلاوس في القرن الحادي عشر، شهاد ايمان حي نعيشها في حياتنا اليومية“.

ولكي يشرك فويتيليا شعبه في أعمال المجمع الفاتيكاني الثاني، انشأ في الرعايا فرقاً دراسية يضم كل منها، إلى جانب اعضائها ، كاهناً، لا ليتحمل مسؤوليتها، بل ليقدّم فيها وجهات النظر اللاهوتية. كانت هذه الفرق في الاصل كثيرة العدد فتشعبت الى فرق أصغر عدداً وراحت تدرس جميعها مقررات المجمع المسكوني.

سأل منذ البدء أحد الصحافيين الكاثوليكيين الكاردينال عند نشأتها:

“ إلام تأمل ان يبلغ عدد الفرق؟”

فأجابه : “ قد أكون متفائلاً، لكنني آمل ان يبلغ الخمسين.”

كانت الفرق المسجلة سنة 1978 تربو، على الخمسمئة، يعمل ثلثاها على الأقل بنشاط وعمق، وتمثل في الكنيسة قوة علمانية له مكانتها وتقوم مقام المنظمات الكاثوليكية المنوعة رسمياً. وقد انبثق منها لجنة مركزية واحدة للأبرشية كلها، تجتمع مرة في السنة، وتلتحق بها لجان فرعية تمثل لعلمانيين والكهنة والرهبانيات ولجان خاصة من الاختصاصيين في العلوم الاجتماعية والنفسانية والطبية. ان مهمة اللجنة المركزية هي إعداد الوثائق وتوزيعها على اللجان الفرعية للمناقشة والدرس وابداء الرأي، مما أعطى العلمانيين قدرة لا سابقة لها على التأثير على اتخاذ المقررات المتعلقة بالأبرشية. فالوثيقة الاولى، مثلاً، التي طرحت للمناقشة وكان موضوعها “ نشر الانجيل”، كتبها كاهن، فأنت أشبه بالعظة المبهمة التي تصلح نموذجاً لوثائق ما قبل المجمع. درست الفرق هذه الوثيقة. وبعد ان اخضعتها لنقد المنفصل اعادتها الى اللجنة المركزية لتعيد صياغتها على ضوء الاقتراحات الواردة. ولا يتصورون أحد أن استعمال مثل هذه الحرية كان في البدء سهلاً.

فالعلمانيون، إن في بولونيا أو سواها، ما تعودوا قط مجادلة الكليريكيين. لأنها كانت تعني مناقشة روما بالذات، وهي التي تملك فصل الخطاب، بحسب القول المأثور : *Roma Locuta, causa finite* أي || تكلمت روما حسن كل جدل. وقد رسخ هذا الاعتقاد في نفوس الكاثوليكيين، فجعلهم

يعزفون عن مناقشة الأمور الجدية جهراً وبحرية، وارتأوا انه آمن لهم ان يتخلوا عن مثل هذه الأمور للاختصاصيين المحترفين. وهكذا، لم يكن يسمع في الاجتماعات الاولى التي نظمها فوتيلا سوى بعض الأصوات. وكان من البديهي ان سير الاجتماعات على هذا النحو لن يؤدي الى النتيجة المتوخاة. فوضعت قاعدة تقضي بان يقول كل مشترك شيئاً ما شرط ألا يتعدى حدود خمس دقائق. فأنت المناقشات بالثمار المذهلة.

كانت المشاركة عامة حقاً. إذا كان من السهل التصور ان المثقفين وحدهم كانوا قلقين في الكنيسة، فالواقع ينفي هذا التصور لأن المشتركين كانوا ينتمون الى مختلف المستويات الاجتماعية. كانت امرأة، من قرية صغيرة، مجاورة لوشويتز، في عداد احدى الفرق التي كانت تحاول الاجابة عن السؤال التالي: " متى تناقشون وسائل نشر الانجيل؟". وعندما اتى دورها أجابت: " نقوم بهذا ونحن نتف ريش الإوزة لنعد منه لحافاً".

كان السنودس العام يلتئم سنوياً في الكاتدرائية، وفي الوقت ذاته كان تعقد في دير تينياس حلقات عمل واجتماعات انتخابية يدعى اليها ممثلون عن مختلف الخورنيات وعضو أو عضوان من كل فرقة دراسية. وجرت العادة على ان ترفع اسماء المدعوين مسبقاً الى الكاردينال فيوجه اليهم الدعوات كلاً باسمه.

وهنا برزت مشكلة غير متوقعة اذ كان أحد البنود يقضي بضرورة تفوق عدد رجال الاكليروس على العلمانيين. فلما كثر عدد المشتركين العلمانيين في السنوات الأخيرة أصبح من الصعب جداً على أمين سر اللجنة ايجاد العدد الكافي من الكهنة وبالتالي تحقيق التعادل في كفتي الميزان، مما يدل على ان الكاردينال فوتيلا سار بالعلمانيين بعيداً جداً في داخل الكنيسة.

* * * *

غالباً ما كان فويتيلا يعود إلى روما بعد انتهاء المجمع ليشارك في أعمال لجنة العلمانيين (التي ألفت بعد المجمع). وقد عقد المجمع الأول للعلمانيين في كانون الثاني 1967 ، وكان لهم وحدهم حق الانتخاب، وبقي دور الكليريكين من رئيس المجمع إلى أمناء سره استشارياً مما حمل العلماني باتريك كيغن على الجهر بأن فويتيلا يفهم علاقة الكاهن بالعلماني فهماً طبيعياً فقا:

" لقد فهم فويتيلا انه في بعض الأمور يجب ترك مهمة التقرير للعلماني بينما يعطي الكاهن فقط دور الوصي الذي يستطيع ان يقترح لا ان يسيطر".

أصبحت قامة فويتيلا الطويلة الخفيفة الانحناء مألوفة في روما. كان يسير بخطى بطيئة متأنية غير عجلة دوماً، رأسه الى أمام وكأنه دائماً غارق في التأمل.

قال رئيس الأساقفة البريطاني ولوك: " تراه يتمشى.... مزموماً الشفتين، مغمض العينين نصف إغماض، مقطب الجبين، غارقاً طبعاً في التفكير العميق. ثم يلتقي صديقاً له... فيلمع النور فجأة في عينيه وتنبض الحياة في وجهه".

ويتابع رئيس الأساقفة قائلاً: " أنه منطو على ذاته أكثر مما يلوح البعض.

ويخطئ من يظنه نجم الحفلات ولولب التجمهرات. بل عندما يكون مرتاحاً حقاً، يستلقي على ظهره، رأسه الى وراء، ويندفع في ترنيم انشودة شعبية بولونية. وقد تراه في اجتماع عمل، اثناء استراحة قصيرة) يسميها الطليان استراحة الكوكا كولا)، في الزاوية يتحدث مع شخص ما، أو هائماً منحني الرأس، أو حتى قاعداً وحده وفي يده كتاب صلوات أو مجموعة شعرية.

فليس فويتيلا من النوع الذي يحشد الجماهير حوله مع ما لديه من احساس عميق يشده الى التقوى الشعبية والعبادة الجماعية. مقابل هذا الاحساس لديه روحانية من ينشد التوحد.

ويقول باتريك كيغن: " طوال هذه السنوات كان يتعرف جوهر عما لكنيسة في روما. لم يكن ذاك الذي يأتي لتسلم الوثائق المعدة سلفاً. بل كان من الذين يعدون هذه الوثائق بذاتهم. كان يعرف كل عوامل

التوتر، ويعرف الناس بما هم عليه من حدة طباع، كما يعرف صراخ بعضهم بوجه البعض الآخر، الشيء الذي يجهله عادة أصحاب المراكز الرفيعة. اختبر كل هذا بنفسه فكان بمثابة قوة عظيمة له".

لم يكن سينودس عام 1971 - الذي شهد تطويب مكسيميليان كولبي - المجمع الوحيد الذي اشتك فيه الكاردينال فويتيليا. كان الاساقفة البولونيون قد اختاروه لتمثيلهم في روما في سنودسات عامي 1967 و1969 (كذلك من بعد عامي 1974 و1977).

واثناء سينودس عام 1967 قويت آمال في أن يحول البابا بولس السادس الكنيسة إلى مؤسسة ديمقراطية يشرك فيها بطرس في سلطته سائر الرسل. كانت الوثيقة العقائدية " نور الأمم" قد تحدثت عن الجماعة فقوي الأمل بقرب زوال المفهوم الهرمي للسلطة الذي يعتبر فيه البابا كالرأس يصدر الأوامر من أعلى الى أدنى. لكن البابا بولس السادس كان يرى ان الوقت لم يحن بعد لاراك الاساقفة في السلطة، ذلك انه كان قد أصيب بالخبية من جراء تبرم الكثيرين في داخل الكنيسة، اذ راعته انتقادات العلمانيين المشوشة في مؤتمرهم العالمي الثالث الذي كان منعقداً في أثناء السينودس) فمنذ ذلك الحين لم يصر الى عقد مؤتمر علماني آخر).

انتهى السينودس في جو من خيبة الأمل. وبقي الكاردينال فويتيليا ملتزماً بفكرة الجماعة، مقتنعاً بأن على البابوية ان تتنحى عن مفهوم الكنيسة - الهرم تبدأ بإشراك الاساقفة في اتخاذ المقررات.

سينودس 1969 كان " غير عادي" خاصة انه التأم على أثر انتقاد واسع (غالباً ما كان بكليته رافضاً) لرسالة البابا بولس السادس العامة " في الحياة البشرية" التي أثارت جدلاً كثيراً بصورة خاصة حول موضوع تحديد النسل. (في سينودس عام 1967 عبر الاساقفة عن أملهم في الا يصار إلى عرض هذا الموضوع اذ اتضح لديهم ان أي عرض له سيكون تقليدياً) على كل فالأزمة كانت على تفاقم متزايد. وفيما كان البعض يرى في الخلاف علامة نمو للنضج في الكنيسة، كان البعض الآخر يخشى ان يكون مؤشر انهيارها الوشيك.

ان شعبية حبوب منع الحمل، والمعتقد النامي بأن على الكنيسة ان تسمح باستعمالها، حملاً البابا يوحنا الثالث والعشرين عام 1963 على تعيين لجنة سداسية لدرس الموضوع غرضها بالتحديد توجيه مقام البابوية نحو الحل المناسب تجاه وضع يهدد بحظر الانفجار السكاني. وقد اتضح بسرعة انه حان الوقت للكنيسة ان تعيد النظر جذرياً في تفكيرها حول الزواج وتحديد النسل.

في أواخر حزيران 1964 ارتفع عدد اعضاء اللجنة الى الخمسين وذلك على يد خليفة يوحنا الثالث والعشرين البابا بولس السادس) الذي كان قد اتخ جميع المقررات المتعلقة بتحديد النسل والزيجات المختلطة وبتولية الكهنة بدون الرجوع الى آباء المجمع). وكان اعضاء اللجنة الموسعة خبراء في اللاهوت الأدبي والطب والديموغرافيا، الحق القانوني، الكتاب المقدس، وعلم الاجتماع والاقتصاد، علم النفس، فدعوا جميعاً للأدلاء ببياناتهم حول الموضوع. ثلاثة اتجاهات برزت لدى اجتماع اللجنة في آذار 1965: واحد يؤيد تعليم الكنيسة التقليدي في تحريم استعمال كل الوسائل الاصطناعية لمنع الحمل، وآخر يؤيد السماح حبوب منع الحمل وحدها، بينما يدعو الثالث للسماح باستعمال سائر الوسائل.

وفي دورة اللجنة الخامسة التي التأمت في نيسان 1966، عين الكاردينال فويتيليا عضواً جديداً، كان لا يزال بعد رئيس اساقفة. وكان كتابه "حب ومسؤولية" قد ترجم الى الفرنسية عام 1965 وفيه نظرات نافذة حول هذا الموضوع الشائك. في تلك الدورة عارضت الاكثرية منع الكنيسة التقليدي لاستعمال كل الوسائل الاصطناعية لمنع الحمل وايدت الأقلية عدم التغيير.

وعندما اجتمع الستة عشر كاردينالاً واسقفاً للتصويت على المسودة - وكان فويتيليا غائباً بلا مبرر - أسفرت النتيجة عن تسعة اصوات مع الأكثرية وثلاثة ضدها، بينما ظل الثلاثة الباقون متردين. الثلاثة المخالفون كانوا: رئيس اللجنة، الكاردينال اوتافيانى، المعروف بمحافظته الشديدة على التقليد، ولشدة غيظه رفع تقريراً خاصاً به إلى البابا، المطران كولومبو، لاهوتي البابا الشخصي، والأسقف الايرلندي (موريس).

لماذا تغيب فويتيلا عن ذاك الاجتماع الحاسم؟ يرى الأب البيريك ستاكبول، في رسالة له إلى صحيفة التايمس، أنه كان من المفترض ان يصوت فويتيلا الى جانب الأقلية بالنظر إلى موافقه الواضحة حيال موضوع وسائل منع الحمل. لكنه لم يرغب في أن يعد بين المحافظين.

وكتب الأب البيريك بعد هذا في صحيفة البشير الكاثوليكي عن فويتيلا قائلاً: " أنه رجل عصري مرتبط بكنيسة قديمة. يود تأييد رسالة البابا العامة " في الجنس البشري " لكنه يصطدم " بالواقع الحياتي".)
قد يكون من الأصح القول بأنه رجل التقليد الذي توجب عليه العيش في وضع رعائي حديث.
وشخصية فذة مثله لها خياراتها الخاصة).

العالم أجمع يعرف ان البابا بولس السادس تجاهل مشورة الخبراء ورأي معظم الاساقفة عندما اصدر في تموز 1968 رسالته العامة " في الحياة البشرية" فقد أكد فيها تعليم الكنيسة التقليدي حول تحديد النسل وبها شرع الباب لمعارضة المعارضين.

بعد صدور " في الجنس البشري" نشر فويتيلا كتابه " حب ومسؤولية" في طبعة جديدة منقحة يوضح فيها نقاطاً كثيرة من رسالة البابا ويؤكد تعليمها (وقد ترجم الكتاب الى لغات عدة). ولكنه مع تأييده للرسالة ينظر إلى أبعد مما جاء فيها. ففي مقالة نشرتها له الأوسرفاتوري رومانو نراه يولي أهمية لما يعتبره جوهر رسالة البابا التي تلتقي مع الوثيقة المجمعية " فرح وجاء" لتقول ان الزواج " شركة اشخاص" وان الأبوة والأمومة المسؤولين هما المثال الذي تتم به هذه الشركة. وتعتبر وثيقة " فرح وجاء" عن حرصها على حماية الانسان من " خطر تبديل قيمة الانسانية".

كان لغرض من الدعوة لعقد سينودس عام 1969 ضبط الصفوف واعادة توحيدها. ومع ذلك فقد شاع التخوف قبل اللقاء الاول من ان الاساقفة توافقون القتال الشديد... وقد كتب احد المعلقين واصفً الوضع:

”انسئل الاساقفة الى روما وكأنهم يخفون الخناجر تحت البستهم.... لكن الغلبة كانت للوحدة ولو على غير استقرار”.

وقد تلا الكاردينال فويتيلا بيان السينودس الختامي في السابع والعشرين من تشرين الاول عام 1969 في حاضرة الفاتيكان وفيه ما يلي :

” لا شيء في أيامنا، حيث الرياح تعصف بالكنيسة والعالم، اهم من شهادة الوحدة ونشر السلام. هذه الوحدة التي يرغب الشعب المسيحي فيها بحرارة فائقة تتعلق الى حد كبير بالتعاون بين الحبر الاعظم ومجالس الاساقفة من جهة، وبين مجالس الاساقفة بعضهم مع بعض الاخر من جهة ثانية”.

ولما عاد الاساقفة الى الاجتماع عام 1971، كانت الأزمة نوعاً ما قد زالت. وعندما انتخب الكاردينال فويتيلا اميناً عاماً للسينودس.

ويذكر المطران ولوك أحد أعضاء الامانة العامة ان ما كان يقدره الاساقفة في شخص فويتيلا هو عقله المنظم المنضبط. فقد قال عنه انه ” اثناء النقاش كان دوماً آخر المتكلمين. وكان يدون النقاط وبرقمها ثم يزن كل شيء. ثم يرفع اصبعه للتدليل على رغبته في الكلام. ويبدأ بتنفيذ النقاط وينتهي بخلاصة تكون عادة صواباً. لم يكن قط مستعجلاً واحياناً كثيرة كانت اجتماعاتنا تطول متأخرة بسببه. خلاصاته لم تكن مبتكرة وإنما مركزة تركيزاً حسناً. عقله الواسع هو افضل عقل عرفته في حياتي”.

هذه حجارة حية

اصبح الكاردينال فويتيلا الان رحالة، زار كندا والولايات المتحدة الأمريكية واوروبا وبلدان لشرق الاقصى.

وفي عام 1973 زار استراليا، حيث التقطت له صورة يزقم فيها الكنغو، كما غينيا الجديدة، حيث شوهد مع جماعة من رجال القبائل الذين يكتسون الريش. وعرج على الفيليبين كذلك.

سبق له زار مرات عدة كلاً من فرنسا وبلجيكا والمانيا الغربية. وألقى محاضرات في كل روما وميلانو وباريس ولوقان. (كان يحاضر مرة في ميلانو، فسأل الطلاب عن عدد الكرادلة الذين يمارسون رياضة التزلج على الثلج. ولما أذهلهم سؤاله قال : " في بولونيا يمارسها أربعة بالمئة منهم". ولما رأي انهم لم يفهموا ما يعني أكمل قائلاً : " لأن الكاردينال فيشنسكي يعد في بولونيا 60٪)

في السنوات التالية تمكن من زيارة معظم بلدان اميركا اللاتينية كما تمكن من زيارة كندا والولايات المتحدة الأمريكية تكراراً.

وقد ذكر عام 1976 بمناسبة الاحتفال بالذكرى المئوية في فيلادلفيا ان القسوة والاضطهاد يزيدان كنيسة بولونيا تصلباً في ايمانها فقال : " طابع الحكومة الالحادي يدفع الشعب الى التمسك بمعتقداته".

ولما دعي إلى هارفرد ليحاضر في الفلسفة في معهدها الصيفي فاجأ الحضور بقوة أفكاره، فوصفه مدير المعهد على أثر محاضرتة بأنه " أحد أكثر الناس قدرة على التأثير وانه الشخصية المشعة على الاطلاق".

كان السفر بلد له .

ويرى ان " الاستهلاكية " في العالم الرأسمالي عاجزة عن اسعاد الانسان، شأنها شأن الاشتراكية المستنبدة في وطنه. وقد تكلم في محاضرة له في روما عام 1975 عن "... تجريد الانسان النامي أبداً من انسانيته " فقال :

"ولست أعني بذلك الخطر المتأني من اعتباره مجرد اداة انتاج فحسب، ويتبين لنا ما هو أدهى من ذلك عندما يعتبر الانسان نفسه عنصراً سلبياً في المفهوم الانتاجي وعرضة للتحريك ككل متاع. اذا كان التقدم المعاصر.... يريد ان يبدو انسانياً حقاً، فما عليه الا ان يقدم للإنسان، علاوة على وسائل الحصول على حاجاته اليومية، الامكانيات الضرورية ليحقق انسانيته أكثر فأكثر، فإن لم يحقق التقدم ذلك، دفع بالإنسان الى الشعور المتزايد بالعزلة".

وجاء في تأملات الصوم التي ألقاها على البابا بولس السادس وأعضاء الكوريا الرومانية 1976 (نشرت فيما بعد بكتاب عنوانه " آية أنكرت " قوله :

" في الأنظمة الليبرالية ذاتها، حيث الناس مصابون بمرض البحبوحة والحربة المفرطة، تبدو الحياة البشرية محزنة مع ما يرافقها من تجاوزات وخيبات أمل مختلفة الأنواع. أفلا تؤكد صحة ذلك ظاهرة ادمان المخدرات والارهاب المنظم وخطف الأبرياء؟"

تأملات كتاب " آية أنكرت " تدور كلها حول " لقاء المسيح في العالم المعاصر". يرى فويتيللا في كلمات سمعان الشيخ، حين قدم يسوع إلى هيكل أورشليم، تلخيصاً لمشكلة العال. قال سمعان ان هذا الطفل سيصبح آية ينكرونها.... إنساناً منبوذاً. واليوم يعلن يسوع نفسه رجاء الجنس البشري وهدايته وآية ينكرها أناس كثيرون :

" الفقر الشديد الذي تخبط فيه أمم بكاملها، وبصورة خاصة أمم العالم الثالث، الجوع والاستغلال الاقتصادي والاستعمار(القائم في غير بلدان العالم الثالث أيضاً) كل هذه مظاهر لإنكار المسيح من قبل

الأقوياء أنظمة حكم كانوا أو تراثيات ثقافة. هذا النوع من انكار المسيح يسير جنباً لـ جنب مع القبول الخارجي بالدين والمسيحية والكنيسة الكاثوليكية وحتى بالمسيح نفسه حين يعترف به كعنصر ثقافة الأمة وخلفتها ونظامها التربوي.

أجل، هناك انكار لحقيقة شخص المسيح ورسالته وانجيله، حتى في الأنظمة التي تقبل به رسمياً. أننا نحاول ان نجعله يتناسب مع انظمتنا الاستهلاكية. فهذا النوع من الازدواجية، حتى عند الذين يدعون أنهم اتباع يسو، هو علامة من علامات ازمتنا الحاضرة”.

ويرى الكاردينال فويتيليا في كل هذا نوعاً من الأفكار غير المباشر ويعتبر ان ثمة أنواعاً أخرى أكثر ظهوراً ووضوحاً:

” ففي بعض البلدان، اقلقت جميع الكنائس وحكم بالموت على الكهنة الذين يخدمونها ويمنحون سر العماد فيها. ولكن معظم الاضطهادات التي جرت في النصف الثاني من القرن العشرين هي غيرها في الماضي، لأننا نعيش في عالم ينادي فيه الجميع بحرية الضمير والحريّة الدينية، وفي زمن يواجه فيه الدين مقاومة خفية (ويتهم بأنه ” افيون الشعوب ”) فيعري من الشهداء. وهكذا فالمخطط اليوم اضطهاد يصر على تثبيت الوهم القائل بوجود حرية دينية تامة وبزوال الاضطهاد.

ويحاول هذا المخطط نفسه تجريد الانسان من القوة المستمدة من المسيح قبل تحقيق الجنة على ارض. لا بل يستخف بهذه القوة ويعترها ضعفاً غير لائق به. ولكن هل هذا يليق به او لا يناسبه حقاً؟ ان الانسان القوي يستمد قوته من ايمانه بالمسيح ولا يسمح لنفسه بالعيش ضمن جماعة مغفلة بمثل هذه السهولة !”.

أيقنت الحكومات المتتالية في بولونيا انه لا يمكن اكرام الانسان القوي المؤمن على الحياة الجماعية المغفلة.

ففي البدء حاول السيد غيريك التقرب من الكنيسة، فقدم عدداً من التنازلات الطفيفة. وتبجح السيد سكارزيسكي، المولج بشؤون الكنيسة، بأنه عام 1971 منح " ما يفوق عشرين ترخيصاً" لبناء كنائس جديدة.

لكن هذا التبجح يفقد قيمته حين تعلم ان الكنيسة كانت قد طلبت ثلاثة آلاف ترخيص ! ولو سلمنا جدلاً بأن الطلبات لم تتجاوز الستمئة بحسب ما يدعى الحكومة، فمعدل عشرين ترخيصاً في السنة لن يسمح بالتقدم الكبير نحو حل لمشكلة. وتجدر الاشارة هنا إلى وجوب عدم الأخذ بما لمح اليه أحد المراقبين وهو ان البولونيين مدمنون ببناء الكنائس!

الحقيقة ان الكنائس تعني الشيء الكثير بالنسبة للبولونيين. فقد اعتادوا اقامة القداديس في جميع مناسباتهم الكبيرة. ثم ان العيش في المدن (حيث تضاعف عدد السكان بعد الحرب) خلق حاجة الى كنائس جديدة، أو على الأقل الى السماح بإقامة القداديس في المدارس، الأمر الذي لم تتجاوب معه الحكومة.

اضحت الكنائس الموجودة تغص بالمصلين رغم اقامة ما بين الثانية والخمسة عشر قداساً في معظمها كل أحد، وع هذا بقيت تغص بالمصلين حتى الشوارع وفي إحدى " المستوطنات الاشتراكية الحديثة" حيث لا كنيسة لا رغبة في وجود كنائس، كانت القداديس تقام في إحدى شقق البنايات (ثمانية كل أحد مع حضور بمعدل 350 مشتركاً في كل قداس) أو في حديقة منزلية خاصة (اثنا عشر قداساً كل أحد مع حضور بمعدل 500 مشترك في كل قداس).

على كل، بقي موضوع بناء الكنائس سبباً لنقاش دائم حاد بين الكنيسة والحكومة كانت الحكومة تدعى النقص في مواد البناء. ولكنها على كل حال كانت تعطي الأفضلية في البناء لغير الكنائس. وتكاثرت الأحداث.

ففي قرية زبوزا فييلكا، القريبة من فرصوفيا، أخذ السكان أمر الكنيسة على عاتقهم فشيّدوا، هم أنفسهم، بناء شغلوه مؤقتاً ككنيسة. فأسرعت الحكومة في ارسال مئة وخمسين من رجال الأمن لتفكيك المبنى ونقل القربان الى كنيسة مجاورة. واسرع الكاردينال فيشنسكي بدوره، فشجب هذا العمل "الأحمق" واصفاً اياه بأنه "نتهاك للقديسات لا سابقة له". مهدداً بإثارة الشعب للتعبير عن سخطه الشديد. وكثر اللغط حول الموضوع، فاضطرب الحكومة الى التراجع والسماح ببناء كنيسة في المكان نفسه، على ان ينقل خوري الرعية الى مكان آخر!

أحداث كهذه كانت شيئاً مألوفاً. وكانت الماطلات والحواجز البيروقراطية، حتى بعد اعطاء الترخيص، هي السائدة. فقد أقتضي عشر سنوات لانتزاع الأذن ببناء كنيسة في نوقا - هوتا.

بوشر العمل في بناء هذه الكنيسة عام 1967، ومع عام 1972 كانت لا تزال نصف مبنية. وكان الناس يبنونها بأيديهم وبمساعدة منظمات عالمية بما فيها منظمة "علامة المصالحة" في ألمانا الغربية. أرسل البابا بولس السادس حجر الأساس من روما وقد نقشت عليه العبارة التالية: "خذوا هذا الحجر إلى بولونيا ليكون حجر الزاوية لكنيسة تشيد في نوقا - هوتا على اسم ملكة بولونيا".

بدأ الأهالي بإقامة الاحتفالات فيها وهي لا تزال محاطة بالسقالات وارضها مغطاة بالحجارة الصغيرة. كانوا يحضرون فيها القديس أيام الآحاد وفي بحر الاسبوع على السواء واقفين في الخارج تحت المطر الغزير وفي الهواء القارس أو الحر اللاهب. وكان يأتيها الكاردينال فويتيلا مرة في السنة ليقدّم الذبيحة لأويس المجاورة.

وهكذا وبسبب المضايقات البيروقراطية المتتابة، لم تفتح الكنيسة رسمياً الا بعد ان مضى خمس سنوات على ذلك التاريخ.

عام 1973 بدأت نيات السيد غيريك الطيبة تتقلص. فقد ظهر تقريران رسميان يشددان على ضرورة توحيد النظام التربوي ليعد النشء الصاعد للعيش في بلد اشتراكي. كانت الاشتراكية في الواقع تفرض

فرضاً عبر النظام التربوي. وكان البرنامج المدرسي اليومي معداً بشكل لا يترك فيه الطلاب وقت لتقبل التعليم الديني الاختياري ولا لملازمة اهلهم كفاية.

وعلاوة على ذلك، خفض عدد المدارس، وحل التعليم التقني محل العلوم الانسانية. فردت السلطة الكنسية ان نياب كهذه تحرم الفرد حقه في حرية الضمير والحرية الدينية اللتين يضمنهما الدستور البولوني. ثم ان شرائع الدولة لا تستطيع مناقضة شريعة الله والا اعتبرت غير ملزمة".

وضاعفت الحكومة ضغوطها فوقع الاساقفة عام 1975 بياناً يشجبون فيه تصرفاتها ان بلغ الأمر ببعض المؤسسات التعليمية حد الطلب من المرشحين للدخول فيها اعلان الحادهم خطياً!

في هذه الاثناء صار واقع الحياة المؤلم يدفع العمال الى الاستسلام لليأس.

فالازدهار الاقتصادي المبني على العملة الصعبة قد ولي، ولاح طيف أزمة اقتصادية مقبلة وناجمة عن تفاقم النقص في مواد كثيرة، وعن التطبيق على الناس بأساليب متعددة.

وفي عظة ألقاها فويتيلا على العمال في نوقا -هوتا، أكد وجود مظالم أخرى فقال: " لا تسمح لكم الحكومة بالترقية من أجل معتقداتكم، كما انها لا تسمح لكم بالعبادة في داخل بناء ما".

كان الشعور المعادي للحكومة يشتد يوماً بعد يوم، كما كان الوضع مشحوناً بالقلق حين القى الكاردينال فويتيلا تلك الخطية الشهيرة المؤثرة من على منبر كاتدرائية وافيل في عيد لغتاس 1976، قال:

" من الصعب قبول الالحاد كبرنامج سياسي وذلك من جهتي نظر الكرامة الانسانية والانسانية الصرفة. لأنه، إذا كان يفهم ان شخصاً يطلب ولا يجد، وإذا كان يفهم ان شخصاً يمكنه ان ينكر

إيمانه، فلا يفهم ان يجد شخص نفسه وقد حرم عليه الايمان ! اذا أردتم ان تملأوا وظيفة شاغرة أو تبلغوا مركزاً ما، فعليكم ألا تؤمنوا ! ان اعتبار الالحاد اساساً للحياة الوطنية هو سوء فهم محزن من

وجهة نظر التقدم البشري الحقيقي لأنه من الضروري احترام ما في الانسان. هذا هو الشرط الأساسي لكل حياة اجتماعية ولكل مساواة بين مواطني الدولة الواحدة....

لقد ضاق صدرنا بكل هذا ولم يعد بإمكاننا الصمت. فالمشكلة، أصلاً، هي مشكلة خلق اجتماعي. ونحن، اساقفة وكهنة علمانيين لا يمكننا ان نقف حيالها غير مباليين. لا يمكن ان يكون ثمة فرق حوهرى بين ما نحن عليه وما نشعر اننا عليه من جهة وكيفية تصنيفنا ومعاملتنا من جهة أخرى. وعليه فمن غير المقبول ان تفرض أقلية تؤلف فئة اجتماعية معينة ايديولوجيتها على أكثرية ترفضها. كلنا بولونيون، المؤمنون منا وغير المؤمنين. ولا يمكن ان يتفرد غير المؤمنين بتقرير مصير بولونيا ضد ارادة البولونيين. فبولونيا ليست ابنه الساعة ولا وليدة صدفة... انها تاريخ الف سنة، أنها قلعة وافيل، انه هذه الكاتدرائية وهي مدافن شهدائنا. بولونيا قائمة على انتصارات لا تحصى وآلام لا تقاس.

هذا ما آمله لكل انسان ، ولكل مؤمن، ولكل باحث عن طريقة فكمّل بحثه بلا خوف وبدون ان يعترضه آخر قائلاً : ممنوع...

آمل ان يسمح للعائلات بتربية اولادها على الايمان المسيحى. نحن لا نرغب في التدخل بشؤون عائلات الملحدّين فالأمر متروك لهم ولضمايرهم....

آمل أن تتأكد ملايين عيالنا المسحية من انها عندما ترسل اولادها الى المدارس ألا تفرض هذه عليهم وجهة النظر المادية أو الايديولوجية الملحّدة.

يجب فهم مبدأ حرية الضمير وحرية لدين فهماً تاماً. وهذه الحقيقة اقرها الجميع ، من المجمع الفاتيكاني الثاني، حتى شرعة حقوق الانسان التي اثبتها هيئة الأمم، مروراً بمؤتمر هلسنكي ذاته الذي اعترف بأنها حق الكائن البشرى غير القابل للانتهاك. يبقى الا ينتهك هذا الحق فعلاً ! إن تنظم الحياة الوطنية والاجتماعية بشكل يصون هذا الحق فلا يخلق في المجتمع امتيازات تتمتع بها طبقة عليا، هي قبضة من غير المؤمنين، على حساب طبقة سفلى ودرجة ثانية هي مجمل الاخرين أي المؤمنين. هكذا بولونيون. وكلنا نرغب في بماء بلدنا لأننا نحبه. انه بلدنا ونحن ابناؤه. ومن غير الجائز

بعد الان معاملة هذه الجموع الغفيرة من المؤمنين معاملة مواطنين من الدرجة الثانية ولا ذنب لهم في ذلك سوى انهم مؤمنون !”.

في حزيران من السنة ذاتها، علم ان زيادات باهظة ستفرض على اسعار المواد الغذائية فعاد جو العنف. وعمد العمال الى الشغب في معامل رادوم وبلوك واورسوس فكاد السيد غيريك يلقي من جرائها مصير السيد غومولكا.

أضربت النار في رادوم في المركز الرئيسي للحزب، فاتخذت اجراءات قاسية بحق آلاف العمال المتظاهرين واتهموا بالتخريب، وتصرف رجال البوليس بوحشية قصوى اذ نظموا المحاضر الجائرة وأصدروا مذكرات التوقيف اعتباطاً متجاوزين القوانين المرعية.

أما الكادرينال فويتيللا، الذي كان على اتصال دائم وحميم بالعمال، فشدت بلهجة قاسية على ضرورة الاصلاح الاجتماعي. وشجع العمال على المطالبة بأجور أكثر عدالة وناشد الحكومة عدم زيارة الأسعار، ووضع حد للاعتقالات والاستنطاقات. وشجع الناس من الناحية العملية على تقديم المساعدات المادية لعائلات العمال المظلومين.

وفي أيلول صرح السيد غيريك أمام عمال مياليش- وكان شيئاً لم يكن بأن لا خلاف بين الكنيسة والدولة ” إن هناك حقولاً عدة للتعاون المثمر بينهما في تحقيق أغراض وطنية مهمة”. وسمى هذه الحقول بأسمائها فإذا هي حماية العيلة (علماً بأن نسبة ارتفاع الطلاق وتدني نسبة الولادات قد هال الحكومة) ومحاربة المسكرات و” اللامبالاة الاجتماعية” المتمثلة بالتغيبية.

إذ ذاك وضع الاساقفة النقاط على الحروف. فمع تكرار طلبهم الى الحكومة عدم الاقتصاص من العمال وإعادتهم إلى أعمالهم، وافقوا السيد غيريك على ان البلد في مأزق وانه يجب توحيد الجهود لتجاوزه: ” فالعمل الصالح واجب أدبي، والقدرة على نكران الذات فضيلة مسيحية. يبقى ان العمل الصالح ونكران

الذات يرتبط وجودهما بمدى الثقة بالسلطات وهذان أمران ممكنان فقط اذا ما أدت السلطات عناية حقيقية بجميع المواطنين واهتماماً في تأمين رفاعية الجميع".

وأكمل الأساقفة تسجيل المظالم التي تلت مذكرين الحكومة بأن الأكثرية الساحقة من البولونيين أعضاء فعالون في الكنيسة الكاثوليكية، " إن المال الي تنفقه في حربها ضد الدين هو ذاته المال المجموع من الضرائب المفروضة عليهم".

وتذمروا من أن قوانين البناء تهدف الى مراقبة التقدم الديني ومن أن سياسة التمييز لغير صالح الكاثوليكيين تمنعهم من الوصول الى المراكز الرفيعة وتحرمهم حقهم بالتزقي.

ادانوا تسخير وسائل الاعلام للدعاوة المكشوفة للألحاد، كما أدانوا تشويه معاني الكتاب المقدس والسخر من الممارسات الدينية في المدارس، وازدياد المطبوعات الاباحية. (أضف انه كان من الصعب جداً على ابناء العائلات الكاثوليكية ان يسجلوا في الجامعات، واصبح من الصعب عليهم بالتالي تخطي الدرجات الاولى في السلم الاجتماعي).

شكل الاساقفة من الدولة سعيها الى ابعاد الشعب عن الدين. (كان يقال للطلاب في الجامعات والمدارس ان النظرية الدينية لا تتفق مع الاكتشافات العلمية. كانوا يمنعون وهم في المخيمات اثناء العطلة الصيفية من الذهاب الى القداس ومن تعليق الايقونات والصلبان في أعناقهم. كان طلاب الجامعات يتعرضون للتهديد والانتقام ان هم التقوا بمرشديهم الروحيين).

وتمضي رسالة الاساقفة لتضيف " ان احد المسؤولين في الدولة اقترح تحديد مواعيد العطل المدرسية بشكل لا يتناسب اطلاقاً مع الروزنامة الليتورجيا".

وتلاشى تقييم السيد غيريك لعلاقات الكنيسة والدولة ووصفه لها بأنها " عادية " !

وكان قد سبق لفويتيلان ان صرح بأن الالحاد شيء معقد ، ونصح بعدم التسرع بالحكم عليه. ومع هذا ففي سينودس عام 1977 تناول بألم الهجمات الالحادية على الكنيسة فقال : " تناصر الدولة جميع

المنظمات التي تشجع الالحاد بجميع مظاهره... انه الالحاد مبرمج... انه نقيض التعليم المسيحي لا عداد عالم معلمن".

كان من المسلم به لدى الجميع ان رسائل الأساقفة تلك المدوية بصراحتها هي بقلم الكاردينال فويتيلا الذي اصبح المدافع الحازم عن الحقوق الانسانية والحريات، كما أصبح أكثر خطراً على النظام من فيشنسكي المتقدم في السن.

وهو، خلافا لفيشنسكي، يستطيع ان يحارب الماركسية على مستوى النظرية.

لقد بقي فيشنسكي على مسرح الأحداث طويلاً حتى انه لا يمكن لاحد أن يتصور بولونيا بدونه وحتى ان السلطات البولونية ذاتها اسمته " المناضل البولوني". لكن في لعبة الشطرنج السياسية كان بالإمكان ترقب تحركات فيشنسكي، أما تحركات فويتيلا فلا. كان فيشنسكي أكثر مرونة من فويتيلا الذي كان أدهى منه في العداوة. يشق طريقة بالبرهان والاقناع، يلين أحياناً ولا يضعف. فكان الرجل الذي يحسب له دائماً الف حساب.

زاد قلق الحكومة مع تقدم فيشنسكي نحو سن التقاعد ومع بدء انحراف صحته. كان عليها ان تواجه بصورة شبه مؤكدة ما لا تستسيغه اطلاقاً وهو خلافة فويتيلا له على رئاسة الكنيسة البولونية. وقد تسرب خبر مفاده انها طلبت سراً الى الفاتيكان ابقاء فيشنسكي في منصبه عند بلوغه سن التقاعد....فتبقى الرئاسة بعيدة عن فويتيلا. لقد أحاط فويتيلا طبعاً بكل ما يحاك ويشاع فاسرع الى التصريح بأنه غير راغب في خلافة فيشنسكي!

في الثالث والعشرين من تشرين الاول 1977، استقبل البابا بولس السادس الكاردينال الشيخ وأعاد تثبيته في منصبه، وفهم في الوقت ذاته ان عليه ان يحاول التكيف مع سياسة البابا لتحسين العلاقات مع الشيوعيين، ومن الناحية العملية ان يبدأ الحوار مع السيد غيريك.

وبالفعل ، بعد ذلك بخمسة أيام، عقد اجتماع "تاريخي" في فارصوفيا بين رئاسة الكنيسة البولونية وامين عام اول في الحزب بشر بالخير للمستقبل، وأذى سريعاً إلى نتيجة ايجابية مذهلة، فلم يمض شهر على عودة فيشنسكي من روما حتى كان البابا يستقبل السيد غيريك في مقابلة خاصة استغرقت ساعة وعشرين دقيقة صرح غيريك على أثرها: " بان البابا رجل عظيم يشهد له بذلك معاصروه. وأني لوائق من ان التاريخ سيثبت تقديري هذا". ثم عبر عن أمله يتفادي كل خلاف في المستقبل بين الكنيسة والدولة في بولونيا. وأجاب البابا : " كان نشاط الكنيسة لخدمة مصالح الأمة البولونية دائماً ايجابياً وذلك حتى في خارج قطاعها الديني المميز. وان الكنيسة تظهر اليوم، أكثر منها في أي وقت مضى، الرغبة في المساهمة مساهمة ايجابية في خدمة المجتمع البولوني".

ربيع آخر؟ ام دفعة ارجوحة؟

ففي بولونيا يجب عدم التكهن حول مصير العلاقات بين الكنيسة والدولة !

وعليه جاء في تقرير رسمي عن الكنيسة: " قد تختلف المفهومات السياسية اما الاهداف فتبقي واحدة". وكان قد جاء على لسان أحد المسؤولين الحزبيين الكبار قبل بضعة أشهر: " إذا كنا لا نستطيع هدم الكنيسة، فلتوقف على الاقل شرها".

تناقضات كهذه في بولونيا تبقي دائماً متوقعة....

قد يكون من أهم أحداث تلك السنة تكريس كنيسة نوبا - هوتا الجديدة الرائعة، ذلك بعد عشر سنوات من الترخيص بينهاها، وعشرين سنة من لوعده بمنح الترخيص.

يا للسخر الخيالي! فالكنيسة تقع على ملتقي جادتي كارل ماركس والروليتاري العظيم (تجدر الاشارة الى ان شوارع المدن القديمة كانت تحمل اسماء غير هذه من مثل "الصليب المقدس" "الروح القدس" و " جميع القديسين"). وتشبه بهندستها سفينة القديس بطرس، ويرتفع الصليب فوقها ارتفاعاً شاهقاً (لم يكن بالامكان رفعة أكثر بسبب تحقيق الطائرات تحليقاً منخفضاً).

وتفيد البلاطة التذكارية قرب المدخل، أنها بنيت لأحياء الذكرى الألف لاعتناق بولونيا الدين المسيحي، بناها الشعب بمساعدة " بعض الدول من نوات الارادة الصالحة " على البلاطة رمز الدم والماء الذين خرجا من جنب المسيح على الصليب حين طعن بالحرية.

بعض اقسام هذه الكنيسة لا تزال إلى الان 1978 غير مكتملة.

غير ان الزائر لا يستطيع ان ينسى تمثال المصلوب البرونزي الهائل بكبره، المأساوي بإيحاءه، الذي يهيمن على معظم البناء ناحية المدخل. انه ينم عن عذاب كبير وقاسٍ بحيث يخيل للناظر انه لا يمكن ان يكون قد صب الا في بولونيا!

وفي سراديبها تماثيل الأم الحزينة تحضن ابنها في مواقف متنوعة من الكرب والتضرع، ويمثل كل موقف منها معسكراً من معسكرات الاعتقال.

وهناك ايضاً تماثيل مكسيميليان كولبي، في ملابسه المقلمة، الرمز الحديث للحب الذي لا يعرف حدوداً. يقام اليوم نوماً - هوتا كل أحد خمسة عشر قداساً ويؤمل في أن تستخدم الكنيسة فيما بعد مركزاً للمعاقين المزمنين وللمتضررين، تعبيراً عن بعض الحب الذي يجسده بناؤها.

هذه الكنيسة هي من عدة نواح رمز الروح البولونية. وعندما كرسها الكاردينال فويتبلا، قال للخمسين ألفاً الباكين فرحاً: " بنيت مدينة نوما - هوتا لتكون مدينة ملحدة. لكن ارادة الله والعمال هي التي انتصرت. فلنحفظ هذه الأمثلة في قلوبنا".

ثم اضاف بلهجة جد مؤثرة:

" هذه ليست بناءً حجرياً وحسب بل هي حجارة حية".

اصدقائي، صلوا لأجلي.....

كتب ريشارد دودن في "البشير الكاثوليكي":

" فلما تجد كاردينالاً في بلد ما يدافع عن الطلاب الملحدون المنشقين في أبرشيته كما هي الحال في بولونيا".

ود أكد طالب ماركسي هذا الواقع فقال:

" إنني وثائق بأن المؤمن والملحد يقران على السواء ان الكنيسة في بلدنا هي المؤسسة الوحيدة التي يمكنها الدفاع عن حقوق الانسان، وهي تناضل في سبيل خلق علاقات انسانية سليمة بين مختلف السكان. وفي رأيي لا يمكن فصل هذا الواقع عن مواقف الكاردينال فويتيلا الذي اصبح رمز المكافحين للحفاظ على الكرامة الانسانية".

بعد إحداث الشعب التي تميز بها عام 1976 والتضحيات التي رافقتها قبل البوليس، شكلت لجنة الدفاع عن العمال" مهمتها المطالبة بإعادة المسرحيين منهم الى أعمالهم والافراج غير المشروط عن الذين اعتقلوا وحوكموا بذريعة اشتراكهم في إحداث نوار والمطالبة اخيراً بتعيين لجنة برلمانية تجري تحقيقاً عادلاً في مشكلات اخيراً بتعيين لجنة برلمانية تجري تحقيقاً عادلاً في مشكلات الوضع المتفاقمة المؤلمة.

لم يعد هناك انشقاق بين صفوف الطلاب والعمال مجتمعين. وقد ايد الطلاب في كل انحاء البلاد مطالب العمال ووقع الف وستمئة منهم عريضة مساندة رفعوها إلى المجلس النيابي.

وكان من كبار مؤيدي " لجنة الدفاع عن العمال" طالب في سنته الدراسية الأخيرة في جامعة جاجيالونيان يدعى ستانيسلاوس بيجاس فعثر في السابع من نوار على جثته ملقاه قرب مدخل بناية

كبيرة وقد شج منها الرأس. ادعت السلطات انه سقط من أعلى الدرج متأثراً بالكحول، ا تشريح الجثة اثبت انه شرب حوالى اللتر من الفودكا؟

اقل ما يقال في الموضوع ان مصرع هذا الطالب أحيط بالسرية، وإن جثته وجدت بعيدة عن أقرب درج. وما يلفت النظر انه كان قد تعرض حديثاً لحملة شوهت سمعته، ومن مظاهرها ان خمسة من رفقائه تسلموا في الخامس والعشرين من نيسان خمس رسائل مغفلة تتهمه بأنه من مخبري البوليس، وتحرضهم على التخلص منها بأية طريقة كانت. كما كان معلوماً في وسط عارفه انه لم يعتد شرب المسكر بل انه لم يذق طعمه!

شارك الفا طالب في حضور مأتمه الذي أقيم في كنيسة القديسة حنه الجامعية، وساروا في موكب منظم الى حيث وجدت الجثة. ووقعت " لجنة التعاضد الطالبية " بياناً طالبت فيه بإجراء التحقيق حول موت صديقهم الذي " صرع في ظروف غامضة... "

" كانت للفقيد وجهات نظر مستقلة غير موالية للحكومة. وفي المرحلة الأخيرة من حياته كثف تعاونه مع " ملس الدفاع عن العمال ". فسبب موته شعوراً عميقاً بالصدمة، ليس بين جامعي كراكوفيا فحسب، بل في كل انحاء البلاد."

وأعلن البيان مقاطعة " اسبوع المرح " السنوي. فايد الكاردينال فويتيلا هذه المقاطعة واكد علناً حرص مواطني كراكوفيا على الطلاب وحمائتهم لهم.

هذا لم يمنع رجال الأمن من التضييق على الطلاب والمواطنين معاً، ومن اعتقال الكثيرين من الذين أموا مكان مصرع بيجاس. ولم يمنعهم حتى من تدنيس المكان ذاته!

لكن تأييد فويتيلا للطلب أكسبه مديح أحدهم كمن للمحدين المنشقين فقال:

” عندما سارت في نوار 1977 التظاهرات في كراكوفيا احتجاجاً على مصرع (كذا) صديقنا وسجن على أثرها أعضاء ” مجلس الدفاع عن العمال“، كان بالإمكان كبيراً في ان تلقى جميعنا المصير ذاته فنجد أنفسنا في السجن.

فاهم ما في المر هو موقف الكادرينال فويتيلا الذي عبر عن رأيه بجرأة مؤكداً للطلاب حرص المدينة على سلامتهم. انه ممثل كنيسة سلبت سلطتها منذ زمن بعيد. انها كنيسة مناضلة ومجاهدة. أنها رمز للعالم اجمع وعلامته“.

كان في نفوس العديد من الطلاب جوع روحي عظيم. وكان فويتيلا يعي وجود هذا الجوع. ففي تأملات الصوم التي ألقاها في الفاتيكان في السنة السابقة ، جاء كثيراً على ذكر الأحاديث والرياضات الروحية التي كانت تلقي وتعطي في جميع أنحاء بولونيا، وكيف كان الكثير منها يتم بتنظيم مباشر من الطلاب أنفسهم، حين أعدت أبرشية كراكوفيا العدة لاستقبال الفي طالب ثانوي كيف فاقت طلبات الراغبين في الاشتراك ضعفي هذا العدد. وكان الأمر ذاته يتكرر في اثناء الصيف. قال فويتيلا:

” كثيراً ما تحدثت مع هؤلاء الطلاب واصغيت الى خبراتهم بانتباه كلي.....

تلك الرياضيات الروحية كانت بالنسبة لهم الطريق الذي يوصلهم أولاً وأخراً إلى الله، والسبيل الى اكتشافه واكتشاف أنفسهم وذلك بتأكدهم ان لحياتهم هدفاً. يأتي هؤلاء الطلاب غالباً وقد خرجوا من ظلام رهيب تحتم عليهم العيش فيه بسبب النظام التربوي الرسمي الداعي الى العلمنة وإلى مناهضة الدين. يخرجون من الظلمات ليسيروا بكل ثقة في حضرة الله، وليتعاملوا ان يثقوا بإدراكهم لمعنى عالمهم وغايته النهائيين” (1).

1 من كتاب ” آية ينكرونها“.

لم تكن الكنيسة وحدها تشكو من التربية المادية المؤذية التي كانت تخضع لها الشبيبة البولونية بل انضمت اليها فئات يسارية كثيرة استفاقت من وهمها، وأصبحت غير راضية عن النظام التربوي المتبع في المدارس والجامعات.

كانت مواد الفلسفة والتاريخ والأدب تدرس من وجهة نظر ماركسية صرفة مع الحرص الشديد على عدم المس بالاتحاد السوفياتي. وقد تساءل أحد خريجي الجامعة: " لماذا لا تأتي كتب التاريخ مثلاً على ذكر الاحتلال الروسي لبلادنا خلال القرن التاسع عشر؟ لماذا تتعمد اهمال ذكر معاهدة ريبانتروب - مولوتوف 2 عام 1939...."

بمثل هذا كاتب الثقافة البولونية عرضة للتشويه والافتقار.

ولهذا السبب نشط البولونيون في أحياء الجامعة المتنقلة التي وصفها أحد حكايمهم بقوله: " أنها تعلم ما لا ترغب الحكومة فيه".

فلهذا الغرض، ولوضع حد لمحاولات محو الطابع الثقافي لبولونيا، ورغبة في اعطاء الجواب البولوني الصحيح، أسسوا جمعية أسموها " جمعية الدراسات الأكاديمية"، وهو الاسم الرسمي لما يعرفه الجميع بالجامعة المتنقلة.

لكن هذه المرة، غيرها في المرات السابقة اذ رفض المفكرون التخفي أو العمل سراً. ذلك أن عملهم ، وان يكن لا يرضي الحكومة فهو لا يناقض الشرعية ! لذلك أعلنوا بكل شجاعة وفخر عن وجود جمعيتهم وكشفوا عن اسماء المحاضرين .

كما وطدت الجمعية العزم على محاربة تجزئة الحقائق والفجوات التي يتعمدها النظام التربوي الرسمي فنظموا سلاسل من المحاضرات في مجالات الأدب والتاريخ والفلسفة والعلوم الاجتماعية.

2 بين ألمانيا وروسيا لاقتسام بولونيا ولتأمين عدم التدخل على مدى عشر سنوات. لكنها لم تدم أكثر من بضعة أشهر (المترجم).

كانت هذه المحاضرات تلقى عادة في البيوت أو القاعات العامة في القرى، ويحضرها مرة عشرة أو ثلاثون. مرة مئة وخمسون وأكثر.

(في الثاني والعشرين من تشرين الاول عام 1978، تجمع في كاتدرائية فراكلو ما يزيد عن الألف ومنتني طالب للاستماع الى البروفسور برتوشيفسكي في محاضرة بعنوان " الفرد في النظام التوتاليتاري". كانت وسائل الاعلام عن هذه المحاضرات تتنوع اما شفويًا واما بالإذاعات الأجنبية واما بالنسخ المصورة تنقل علناً في حرم الجامعة من يد إلى يد.

وتجدر الإشارة إلى ان موضوعاتها لم تكن لتثير الحماسة فمنها: " المجتمع والتربية"، " الايديولوجية الاجتماعية" والسياسية من الثورة الفرنسية الى الحرب العالمية الثانية"، " الأدب من ناحية تعبيره عن الوعي الاجتماعي "... فما كان ينشده الحضور لم يكن التسلية بل المعرفة الصافية وكانوا يعرفون انهم بحضورهم يعرضون أنفسهم للخطر.

هذه الطريقة الجديدة لنشر الحقيقة لم تعجب رجال الأمن الذين غالباً ما لجأوا إلى توقيف الاساتذة والطلاب معاً لمدة ثمانية وأربعين ساعة ! (إجمالاً كان المنظمون يحتاطون للأمر فيضربون نص المحاضرات على الآلات الكاتبة) وكان اصحاب البيوت حيث تلقى المحاضرات معرضين بدورهم " لانفضاص" البوليس عليهم، غير ان معظم الاعتقالات الاحتياطية كانت تتم في محطات سكك الحديد.

البوليس عليهم، غير ان معظم الاعتقالات الاحتياطية كانت تتم في محطات سكك الحديد. كان هذا دليلاً على نمو التفاهم بين الكنيسة والماركسيين المنشقين الذين لم يتردد الاساقفة في مساندتهم.(جاء في مجلة " التابليت" على لسان أحد مراسليها في بولونيا: " يجري النقاش هنا اليوم حول امكان اقامة حوار إمكان اقامة حوار بين الكنيسة واليسار المعارض... لكن الحوار على مستوى فلسفي لم يبدأ بعد، وجواب بعض رجالات الكنيسة لا يزال حذراً....

والحوار المتواصل العميق يبقى احدى رغبات المستقبل التي يعلق عليها الجانبان أهمية كبيرة". 3
وتعبيراً عن استنكار " كل الاعمال التي من شأنها ضد الروح البشرية عن ابداع قيم ثقافية حرة، فقد تعهد الاساقفة بمساندة تلك المبادرات التي تهدف الى ابراز ثقافة حرة، فقد تعهد الاساقفة بمساندة تلك المبادرات التي تهدف الى ابراز ثقافة الأمة من حيث أعمالها الفكرية وتاريخها بشكل سليم، لأن للأمة الحق في معرفة حقيقتها الذاتية".

كان الجميع يعرفون من يقصد الأساقفة " بتلك المبادرات " وفي كراكوفيا صرح الكاردينال فويتيلا ان رسالة الكنيسة لا تقف عند حد اللاهوت الأدبي بل تتجاوزه لتمكن الرجال والنساء من النمو ككائنات بشرية، ومن أن يصبحوا مسؤولين في مجتمع حر. " إذا كان المجتمع يمنعهم من تحقيق طاقاتهم فعلى الكنيسة ان ذلك التدخل".

وايد فويتيلا موقف الطلاب حيث قال : " لكل انسان الحق في التعبير عن وجهات نظره، ولا نفع من محاولة حصر الشبيبة في قالب واحد".

صعب على الكنيسة في البدء ايجاد السبل الملائمة للمساهمة في تحقيق برنامج " الجامعة المتجولة" ولم يكن هناك مجال لا دخلها ضمن ساعات التعليم المسيحي التي كانت تعطي خارج الدوام الرسمي، ولا لا دخلها ضمن المواعظ العامة. وبعد تفكير طويل....سمح فويتيلا بإلقاء المحاضرات في خمس من كنائس كراكوفيا. فلم لا يكون ذلك؟

تلك كانت إحدى مآثر الكاردينال الأخيرة في كراكوفيا. وتجدد الملاحظة ان ثلاثة من اصدقائه الحميمين رفض السماح لهم بحضور حفلة تنصيبه بابا في روما وهم الاساتذة:

- جاسيك فوزينا كوفسكي، صاح دار نشر،

Polish Academy, The Tablet 25.11.78 3

- تادوش مازوفياكي ، صاحب مجلة كاثوليكية فلسفية شهرية ،

- بوهدان سيفينسكي ، صاحب جريدة زناك وكاتب شهير.

قد أُضربوا عن الطعام في كنيسة القديس مرتينوس في فارصوفيا بين العشرين والسابع والعشرين من نوار 1977 ، احتجاجاً على معاملة الدولة للعمال معاملة قاسية. ثلاثتهم كانوا من محاضري الجامعة المتنقلة! ومع بدء السنة الجامعية الثانية التي افتتحت في تشرين الثاني 1978 لم يفاجأ أحد بتوقف بعض المحاضرات بسبب اعتقال بعض الحاضرين!

جاء في عدد جريدة "البشير الكاثوليكي" الصادر بتاريخ الرابع والعشرين من تشرين الثاني ما يلي :

" في الاسبوع الفائت استجوب كاهن بولوني وهدد من قبل مسؤولين رسميين ، وذلك أثر لقائه محاضرة عن التقليد البولوني على حوالي مئة وخمسين طالباً يتسبون الى ما يسمى بالجامعة المتنقلة".

وقع الحادث ولم تمض بضعة اسابيع على اعتداء البوليس بالضرب على نقابي كاثوليكي. فحكم على المسكين فيما بعد بالسجن الشهرين. ولم يثبت عليه ذنب ، وإلا لاستوجب الاعتقال ثماني سنوات".

لا بد ان تكون الجامعة المتنقلة قد خسرت بغياب فويتيلا - وقد تركهم الآن - نصيراً كبيراً. وكذلك خسارة سكان كراكوفيا.

قال احد أهل الفكر من اعضاء الأندية الكاثوليكية : " إنه حقاً لرج عظيم ، هو بين معارفي الوحيد الذي اقبل بسلطته على بلا سؤال لم يفكر يوماً بنفسه بل كان يخدم الناس ، يصغي اليهم ويعمل على اسعادهم. هو خير انسان بولوني".

وتروى طالبة واقعة ذكرى مؤثرة فتقول : اكر اني قلت بمناسبة احدى حفلات كسر الخبز : آمل الا يخيب أمل الأساقفة البولونيين بالشبيبة فأجابني بما أثر بي جداً قال : " بل آمل الا يخيب أمل شبيبة بولونيا بأساقفتهم !"

أما أملهم في فويتيلا فلن يخيب !

في السادس من آب 1978 مات بولس السادس.

فذهب الكاردينال فويتيلا الى دير الفرنسيسكانيين في كلفاريا لاقامة الذبيحة الالهية لراحة نفسه. كان الكاردينال يحب كلفاريا لقربها من كراكوفيا ولقربها أكثر من فادوفيش مسقط رأسه. كان يحب كنيسة الباروكية الضخمة، وقبتها (بشكل بصلتين) المطلتين على الوادي.

إليها كان يجلب الزائرين فيصلون صلاة درب الصليب، قاطعين سيراً على الأقدام مجازها الذي يمتد الى ستة كيلومترات، متوقفين في سيرهم عند كل من الاثنين والاربعين معبداً الموزعة على الجانبين.

في مثل تلك الزيارات كان فويتيلا ينتعل جزمة من المطاط، يشارك أحد الزائرين شمسيته عند هطول المطر، ماسكاً السبحة بيد والمزلجة بيد عندما تكون الأرض مكسوة بالثلج والجليد. لقد بقيت كلفاريا يا طوال سنوات ملجأ في السلم والضيم . وكان عند وصوله يخلع قمبازه هناك ويقوم برحلة الى ماركوفيا سيراً على القدمين قاطعاً مسافة ثلاثين كيلومتراً ذهاباً واياباً في مدى ثماني ساعات فيشعر بعدها بالنشاط الكبير.

لكن هذه المرة لم يقم برحلته المعتادة بل بقي في الكنيسة، ولاحظ رهبان الدير عليه الاجهاد والقلق.

بعد كلفاريا ذهب الى روما ليشارك في انتخاب بابا جديد. ولم تمض ثماني ساعات حتى كان الكرادلة انتخبوا أحدهم، ألبينو لوشيانى وهو ابن ستة وستين عاماً، ليصبح البابا يوحنا - بولس الاول. كان اختياره مفاجئاً لكن شعبياً. فبابتسامته كسب البابا الجديد اعجاب العالم وعاطفته. اذ ذاك شعر كل من الكرادلة بأنه إدراك حقاً دور البابوية. عائداً بالذكرى الى يوحنا البابا " الطيب".

يبدو ان البابا يوحنا بولس قد انتخب لعفويته في التعاطي مع الشعب ولفتح النوافذ التي بقيت مغلقة زمناً طويلاً. لم يكن كمعظم أسلافه من دبلوماسيي الفاتيكان بل كان راعياً، لطيفاً، محباً، مرحاً، ذا روحانية عميقة وتواضع اصيل نبذ في حفلة التتويج استعمال التاج البابوي المثلث وكل ما كان يرافق عادة هذه الحفلة من مظاهر الأبهة، وتقلد منصبه في الثالث من أيلول باحتفال متواضع (على المستوى الفاتيكاني طبعاً)

ولما عاج فويتيلا من روما كان أثر التوتر قد زال عن ملامحه وعادت اليها مظاهر الارتياح والابتهاج.

(بعد ستة اسابيع، عندما انتخب هو نفسه بابا، قال احد أصدقائه وهو من الجامعين الأكفاء: " كان معظمنا مقتنعاً اقتناعاً أصيلاً، لا أملاً رومنطيقياً بأنه سيصبح بابا يوماً ما. فعندما مات البابا وهم فويتيلا بالذهاب الى روما استجمعنا كل قوانا لنستطيع وداعه، اعتقاداً منا بأنها الساعة المؤتية له. انا شخصياً عجبت لما علمت بانتخاب شخص آخر غير فويتيلا....").

عاد الكاردينال فويتيلا، وقد بدا مرتاحاً، الى كلفاريا ليقدم ذبيحة شكر. ودعا جمهوراً كبيراً من ابرشيته ليلتحقوا به فيصلوا معاص هناك على نية البابا الجديد.

يوم الأحد الواقع فيه السابع عشر من أيلول تليت في جميع كنائس بولونيا " رسالة رعوية" قبل أنها من وحي فويتيلا وروحه، وهي نداء موجه الى الحكومة كي تسمح للكنيسة باستخدام وسائل الاعلام

العامة اذ كانت الصحافة الوسيلة الاعلامية الوحيدة لديها، وسيلة مقيدة ومراقبة. هذه مقتطفات من الرسالة:

” إن وسائل الاعلام العامة على اختلافها ملك العائلة البشرية جمعاء. لكل الحق في استعمالها.... والكنيسة اذ تطالب بحقها في استعمالها إنما تريد بواسطتها تعميم القيم الدينية والروحية وبالتالي تقوية الوحدة بين جميع الناس.

ومما يؤسف له ان كنيسة بولونيا، رغم اعانتها للدولة في نشر الثقافة الوطنية.

لا يحق لها اليوم ان تمتلك وسائل الاعلام العامة، خاصة الراديو والتلفزيون فضلاً عن الصحافة، كما لا يحق لها استعمالها.

لقد احتكرت الدولة جميع هذه الوسائل وسخرتها لخدمة ايدولوجية تهدف فيما تهدف اليه الى تنشئة كائنات بشرية من دون الله....

فالأمر لا تجري مجراها الطبيعي. ووسائل الاعلام تستغل لفرض وجهة نظر واحدة، ومسلك واحد، ولتفرض السلطة على الشعب...

ان تتجاهل الحكومة رأينا، الذي هو رأي المستهلكين، فمعناه انها تعاملنا كأشياء، تحركها على هواها، وهي التي اغتصبت سلطة المواطنين الذين حرّموا حقهم في تعميم اعلان وجهات نظرهم“.

ربما اشارت الرسالة الى مشاركة الكنيسة المتزايدة في الجامعة المتنقلة حين تتابع القول:

” إننا جميعاً نعرف ان روح الحرية تخلق جواً ملائماً لنمو الانسان نمواً طبيعياً كاملاً. فانعدام الحرية يعيق الانسان في نموه فيتوقف كل تقدم.

وها هي الحكومة تمنع الكلام من لا يشاطرها ايديولوجيتها الاجتماعية والسياسية. والرقابة التي تفرضها سلاح الأنظمة التوتاليتارية الدائم.

وهي، باستخدامها سلاح الرقابة، تهدف ليس فقط الى التأثير على الحياة الفكرية في المجتمع وتوجيه الرأي العام بل الى شل حياة الشعب بكاملة شلاً ثقافياً ودينياً. الحياة الاجتماعية تتطلب صراحة وحرية الرأي. والرقابة تعشي عيون شعبنا... وتشوه اعلامهم، والأسوأ من ذلك انها تعفيهم من مسؤوليتهم تجاه أمتهم".

ونشير الرسالة الى النقص الكبير في المجالات الكاثوليكية في وكن المؤمنين (حيث يمارس 75٪ من المواطنين الحياة الكاثوليكية) وإلى أن مجموع نسخ المجالات الاسبوعية الكاثوليكية لا يتعدى المئة والتسعين ألفاً بينما يصل المطلوب منها إلى الملايين... إذ ذاك طلب الأساقفة طلباً خاصاً وهو ان يسمح بنقل قداس كل أحد بالإذاعة خدمة للمرضى المتألمين على الأقل.

وتختم الرسالة بالقول: " من حقنا ان ننتظر ان سمع في بلادنا صوت ملايين المواطنين المؤمنين".

وقع الكاردينال فويتيلا الرسالة وكان بذلك يضع آخر توقيع له ككاردينال كراكوفيا. ومن سخر الواقع ان رفع الحظر عن اذاعة وقائع الاحتفالات الدينية كان أول اجراء بمناسبة تنصيب فويتيلا نفسه بابا فنقل الراديو والتلفزيون الاحتفال مباشرة من روما!

في الثامن والعشرين من ايلول احتفال فويتيلا بالذكرى السنوية العشرين لأسقفيته. فأقام في كاتدرائية وافيل على المذبح ذاته الذي اقام عليه قداساً البابا يوحنا الثالث والعشرون 1912 يوم كان لا يزال كاهناً شاباً.

ولهذا المذبح في بولونيا معنى خاص فعور يعرف بمذبح الملكة جديغا الذي اشتهر ان المسيح كلمها منه.

مات البابا يوحنا – بولس الاول في اليوم لثالث والثلاثين لبابويته. فليلة موته لم يكن يبدو عليه أقل أثر للإرهاق بل زار الكنيسة حيث صلى على عادته صلوات الليل. وقبل ان يذهب الى غرفته أخبر بمقتل فتى شيوعي على يد بعض اليمينيين المتطرفين فتنهد قائلاً: " آه ! يقتلون بعضهم البعض ! ويقتلون الصغار!" تلك كانت كلماته الأخيرة، إذ انه لما تأخر في الصباح ع موعد قداسه قصد أحد معاونيه فوجده في سريره جثة هامدة ولا يزال الضوء مشعاً وكتاب " الاقتداء بالمسيح " مفتوحاً بين يديه.

وعندما استدعي طبيبه الخاص أعلن ان وته ناتج عن سكتة (في الدماغ) حادة.

للمرة الأخيرة ذهب الكاردينال فويتيلا الى كلفاريا حيث اقام الذبيحة على مذبح مكسيميليان كولبي وصلى بحرارة على نية الكرادلة ليكون اختيارهم حكيماً.

قال بعجل وهو يغادر الى روما بدون ان يعرف انه لن يرجع ابداً بصفته كاردينال كراكوفيا: " إخوتي، صلوا لأجلي".

“ هناك برد على الجبل ”

منذ حوالي الف سنة حج مياسكو الأول، أول ملك على بولونيا، الى روما “ ليقدم بلاده ” إلى عرش القديس بطرس. وعندما كان فويتيلا في طريقه إلى روما لحضور مأتم البابا يوحنا – بولس الأول والاشترك في مجمع الكرادلة الذي سينتخبه خلفاً له، لم يكن يعلم ان التاريخ سيعيد نفسه !

في مطار فيوميشينو كان يمزح مع حشد من الصحفيين اسرعوا لالتقاط صورة له فقال ضاحكاً : “ لا تضيعوا وقتكم سدى، فأنا لا أتصور أنهم سينتخبونني بابا، أتتصورون ذلك أنتم ؟”.

وكان فويتيلا لسنة خلت قد سئل على التلفزيون الايطالي هل كان يرى ثمة إمكان انتخاب بابا بولوني في المستقبل (ربما كانت أفكار السائل تشرذ إلى الكاردينال فيشنسكي) فأجاب هازأً رأسه : “ كلا، لم يحن الوقت لمثل هذا بعد”.

ولالإيطاليين قول يرددونه في مثل هذه المناسبة هو : “ عندما يموت البابا يخلفه بابا آخر”، وهكذا كنت ترى مئة واحد عشر كاردينالاً يصلون تباعاً لانتخاب خلف لمن انتخبوه منذ اسابيع معدودة. كانوا متضايقين من موت البابا المفاجئ ، وقلقين ربما لأنهم حملوه حملاً مرهقاً.... وكانوا واعين هذه المرة الحاجة إلى شخص يتمتع بصحة قوية الى جانب الصفات الخرى التي تؤهله للبابوية. فأصبحت فكرة اختيار شخص غير طاعن في السن أمراً وارداً.....

وخلافاً للاعتقاد الشعبي السائد فعملية انتخاب البابا لا تشبه في شيء عملية الانتخاب السياسي. أهم ما في الموضوع هنا يتم قبل دخول الكرادلة المجمع اذ يكونون قد التقوا وتناقشوا وتعلموا الكثير بعضهم من البعض الاخر، مدركين نان كلاً منهم الآن تحت مجهر الفحص والتدقيق.

في هذه المرة لم تكن ثمة معطيات أكيدة حول الانتخاب سوى ان من ينتخبونه سيكون ايطالياً كسلفه. غير ان هذا أيضاً لم يكن أكيداً بصورة مطلقة اذ كان البابا الراحل نفسه قد فكر قبل انتخابه بأنه حان الوقت لاختيار بابا من العالم الثالث، وحبذا اختيار الكاردينال الأرجنتيني، لورشيد، المعروف بدفاعه الجريء عن العدالة الاجتماعية.

في أثناء انتخاب آب يريز عدد من الكرادلة في مقدمة الحلبة، واصبح لكل منهم حظ وافر في الفوز. لكن الأيام الثلاثة والثلاثين المنصرمة بدلت كل شيء ! فالمرشحون الذين اعتبروا اذ ذاك مؤهلين للبابوية أمثال بيرونيو وباجبو وبيننيادولي ولورشيد وغيرهم... أصبحوا الآن من عالم الماضي وخارج الحلبة.

ذاك ان حكم البابا يوحنا - بولس الأول ادخل على مقام البابوية اسلوباً جديداً (لم يتعد الموضوع الاسلوب لأن الوقت لم يكن كافياً للمنجزات) وهو انه نفخ في العظام اليابسة حرارة وحياة، وفتح الباب أمام بساطة انجيلية جديدة. فبين انه من الضروري، في عالم اعتاد اساليب الاتصال السريع، أن يكون البابا الجديد حازفاً في الاتصال.

لقد كانت بسمه هذا الشيخ الآتي من البندقية الصافية الطبيعية مصدراً لقوة فاعلة. انه هو الذي " وضع حداً لوجه البابوية الحزين، وحبريته السريعة جعلت كل شيء ممكناً.(I)

من البديهي جداً انه لا ينتخب أحد بابا لأجل بسمته، ومن البديهي أيضاً أن البسمه لا " تصنع البابا"

I ريشارد دودن في " البشير الكاثوليكي " بتاريخ 1978/10/27

لكن الأمثلة كانت واضحة وهو ان على البابا الجديد ان يكون قادراً على اجتذاب الناس (يمكن القول ان عليه ان يتمتع بالكاريسما (2) وان يكون قوي البنية.

رشحت الصحف الكاثوليكية الايطالية كاردينال جنوي، سيرى، مضية عيه لقب " رئيس رؤساء المحافظين". وكان سيرى قد صرح بأن خمسين سنة لا تكفي الكنيسة لتشفى من مجمع البابا يوحنا ! ثم ان اعتبره مؤهلاً للبابوية يعود إلى عام 1958 ، أي حين انتخاب البابا يوحنا. وهو اليوم مرشح جميع الذين يريدون ان يعودوا بالكنيسة إلى وراء متناسين كل ما أتى به المجمع الفاتيكاني الثاني !

أما الايطاليون الأقل رجعية فكانوا يرشحون الكاردينال جيوفاني بينللي الذي شغل منصب الأمين العام المساعد لدولة الفاتيكان في عهد بولس الفاتيكان ، بذلك خلق له العديد من الأعداء داخل الكوريا.

عند اقتراب موعد الانتخاب اصبح هذان الاسمان موضوع تكهنات صحف العالم الى جانب اسماء أخرى من بينها بازيل هيوم كاردينال لندن.

ثم ان الكاردينال سيرى قضى على نفسه من حيث لا يدري ! اذ خانتة الحكمة في حديث صحافي اجرته معه " جريدة الشعب" في تورينو وفيه سئل عن وجهات نظره حول " الجماعة" فأجاب بجدة: " الجماعة؟ ليس لدي أقل فكرة عنها "

كان من المقرر ان يظهر المقال في الصحيفة في الخامس عشر من تشرين الأول اذ يكون الكرادلة قد احتلوا بأمان مقاعدهم في داخل الكنيسة السيستينية لكنه ظهر - لسوء حظ الكاردينال سيرى - يوم السبت في الرابع عشر من تشرين (قبل أن اجرى الحديث صديق للكاردينال بينللي) فأقعد سيرى كل حظ

2 هبة خاصة تؤهله لمنصبه (المترجم)

بالنجاح.

لكن الضربة القاضية أنته من كونيج، كاردينال النمسا، عندما سئل هل كان الكاردينال سييري سيعيد إلى حفلة تنصيبه في حال انتخابه مظاهر العظمة والأبهة فأجاب: " كلا، بل سيقوم في ساحة القديس بطرس احتفالاً بسيطاً متواضعاً... وبعده يجري مع أصدقائه حفلة تنويج فخمة يعقب في اثنائها البخور في كل مكان!"

قد اكون مثل هذه السياسات غير الملائمة في صفوف الايطاليين هي التي أثرت كثيراً في أبعادهم عن الحلبة. وكما يقول الأب مورفي، الاختصاصي الشهير في شؤون الفاتيكان: " لقد ثبت في النهاية ان العداوة الشديدة فيما بينهم هي التي أمنت انتخاب بابا غير ايطالي".

حين باشر الكرادلة مشاوراتهم تحت لوحات ميكالنجلو الرائعة كانوا واعين وعياً تاماً ثقل العبء الملقى على عاتقهم من جراء مسؤولياتهم ، لذا كان التشاؤم مخيماً على جوههم.

وقبل دخولهم الكنيسة بساعات قليلة تفوه أورسي، كاردينال نابولين بكلام يمكن اعتبار خير معبر عن الشعور الذي كان سائداً بينهم قال: " أباً كان البابا المنتخب فسيئاً كثيراً وفي عهده ستنم المعركة الحاكمة بين حركتي المادية والانسانية المسحية".

من غير أن يفكر الكاردينال فويتيلا بأنه سيصبح بابا... ز فإن آخر ما فعله قبل دخوله المجمع الانتخابي، كان اتصاله بأحد أصدقائه في روما طالباً ان يحجز له مقعداً في أول طائرة عائدة الى كراكوفيا حال انتهاء عملية الانتخاب.

وقد أدخل معه إلى المجمع كتيباً يتحدث عن النظرية الماركسية سئل: " إلا ترى في حملك هذا الكتيب هرطقة؟!".

فأجاب : " آه! اعتقد ان لا خطر على ايمني منه !".

لا أحد يعرف سياق عملية الاقتراع لسبب بسيط هو أنه محظر على الكرادلة – تحت طائلة الجرم- كشف النقاب عما يجري في اثناء المجمع. ومع هذا كان بإمكان المراقبين تكوين فكرة في نطاق الاحتمال حول ما جرى. فقد وصفت مجلة "الابناء الكاثوليكية الدولية" (3)، وهي مصدر موثوق به، اليوميين التاليين فكتبت ما يلي :

" الأحد 15 تشرين الاول

في الجولة الأولى حصل الكرادلة بينللي وسيري وفيليشي على معظم الأصوات، كل حوالي ثلاثين صوتاً وتوزع الأصوات الباقية ايطاليون آخرون، وقلة من "الغرباء" بينهم فويتيلا الذي قبل انه سبق ونال بعض الأصوات في مجمع آب.

في لجولة الثانية تحولت اصوات فيليشي الى بينللي الذي حصل على ما يقارب ثلثي الأصوات، وهو العدد المطلوب لتحقيق الأكثرية وكان في الجولة الثالثة قد حافظ على مرتبته في الطليعة. لكنه خسر، في الجولة الرابعة، وذلك طبعاً بسبب تكتل مؤيدي سيري غير الراغبين بانتخاب بينللي فانقل بعض أصواتهم الى مرشحين آخرين ككولومبو(ميلانو) واورسي (نابولي) والى عدد متزايد من غير الايطاليين بينهم فويتيلا.

وعند المغيب، ارتفع الدخان الأسود للمرة الثانية في ذاك النهار مخيباً آمال الجماهير المحتشدة في ساحة القديس بطرس، وعرف الكرادلة انهم عبروا نقطة اللارجوع فبدأوا التطلع الى بابا غير ايطالي. واذ تتابعت المناقشات والأحاديث ذاك المساء برز الكاردينال كوينغ المرشح الأوفر حظاً بالفوز.

3 العدد رقم 532 تشرين الثاني 1978 informations catholiques internatinales

الاثنين 16 تشرين الاول:

جرت في الصباح جولتان لم تعرف نتائجهما. وفي اثناء الغداء أفهم كوينغ الكردالة انه شخصاً لن يقبل بانتخابه، واقترح ان تجبر أصوات مؤيديه إلى صديقه رئيس اساقفة كراكوفيا المعروف بالتزامه بإصلاحات المجمع الفاتيكاني الثاني. فايد الكردالة الامان اقتراحه ومعهم جوباني، كاردينال برشلونه.

وانضم اليهم أحد مؤيدي سيرى وهو كرول، كاردينال فيلادلفيا من أصل بولوني. (أوردت مصادر أخرى انه في اثناء ذلك الغداء رفع أحد الكردالة كأس بكل تحبيب لتهنئة فويتيلا فبودل بنظرة أقل ما يقال فيها أنها غير مشجعة).

وكانت الجولة الأخيرة (السابعة أو الثامنة) هي الحاسمة سئل على أثرها الكاردينال فويتيلا اذا كان يقبل البابوية.

هنا، بحسب ما روته بعض الصحف، توقف طويلاً، فخاف الكردالة ان يرفض. لكن سين، كاردينال مانيلا، روى الحديث فقال: عندما سئل فويتيلا " هل تقبل؟" أخذ دستور انتخاب الباباوات الذي أقره البابا بولس السادس وقرأ بصوت عالٍ:

"نسأل من ينتخب الا يرفض المنصب خوفاً من عبئه الثقيل، بل ان يستسلم بتواضع لمشيئة الله، لأنه تعالي عندما يضع على كاهله الأعباء يأخذه بيده خشية الا يكون كفواً لحملها، وإذ يفرض عليه هذه الفريضة الجسيمة فإنه يعينه على تتميمها فيكلله بالركامة ويعضده بقوته فلا يسقط تحت وطأة منصبه".

ثم وضع الوثيقة جانباً. ويتوقف لحظة ثم أكمل:

” إنني آتٍ من كنيسة عرفت العذاب الكبير لأجل إيمانها، وأنا جزء من هذا العذاب. والآن تطلبون إلى أن اقبل عذاباً أعظم وذلك بصفتي راعي تلك الكنيسة الاول“.

وتوقف. فقطع الكرادلة أنفاسهم معتقدين انه يرفض لكنه أردف قائلاً: ” اقبل. ولأجل احترامي وحيبي وتقديري ليوحنا – بولس ولبولس السادس الذي كان ملهمي وقوتي، فسأحمل اسم يوحنا – بولس “.

هنا، تقدم فيشنسكي، المحارب القديم الذي لا يقهر، عانقه. وبقي البولونيان متعانقين طوال ” ثلاث دقائق كاملة” والدموع تنساب على الوجنات مداراً. كان الجو مؤثراً جداً حتى ان أحد الكرادلة هوى أرضاً من شدة التأثر.

وانفجر التصفيق في الكنيسة السيستينية.

معظم ما تبقى دخل التاريخ، ما خلا حادثة صغيرة، غنية بمعناها، جرت وقائعها بين البابا الجديد والمنسنيور نوح، أحد اعضاء الكوريا المسؤول عن تنظيم الاحتفالات.

قال المنسنيور : ستخرج يا صاحب القداسة الى الشرفة الآن، وستمنح المؤمنين البركة.

قال البابا : ” وسأخطب الشعب”

فأجابه نوح : ” لكن هذا يا صاحب القداسة يخالف العرف المتبع”

فأجاب البابا : ” سأخطب الشعب.

وفي ساعة متأخرة من ذاك المساء، وجه الكاردينال فيشنسكي رسالة عاطفية مؤثرة عبر اذاعة الفاتيكان فقال:

” أعانك يا أخي، رفيق كدحي وكفاحي في سبيل كنيسة بلادنا. افرحي يا بولونيا لأنه طلب اليك ان تهبي خير ابنائك، ذاك الابن الذي نما يا بولونيا لانه طلب اليك ان تهبي خير ابنائك، ذاك الابن الذي نما ونضج وسط محن أمتنا وعذباتها“.

هكذا انتخبت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية خليفة بطرس الرابع والستين بعد المتئين. وهو أصغر الباباوات سنًا منذ بيوس التاسع الذي انتخب عام 1846 في سنيه الخامسة والأربعين. وهو أول بابا يخرج من وراء ما يسمى بالستار لحديدي، وقد عاش كامل خبرته الكهنوتية في ظل النظام الشيوعي .

وتجدر الإشارة إلى ان آخر بابا غير ايطالي كان الهولندي التاسع الحظ هادريان السادس الذي تميز بأن دام عهده سنة واحدة وبأنه قاد الكرسي الرسولي إلى الوقوع تحت الاحتكار الايطالي! ...

بدا هذا الخيار، بعد انجازه، مفاجئاً وسليماً معاً. بدا مفاجئاً للجميع بمن فيهم الكرادلة انفسهم، وقد اسر الكاردينال مارتي (باريس) الى صديق له قائلاً: ”إننا نسير من مفاجاه إلى أخرى، فشكراً للروح القدس“.

وقال كاردينال البرازيل والبسمة ملء فمه: ” إنني في غاية الابتهاج. إنني مبتهج كما لو كان البابا الجديد أتياً من العالم الثالث“.

كان من المتوقع ان يصاب بعض الايطاليين بخيبة امل مرة، وقد أكد ذلك ما جاء على لسان أحد كبار الكوريا في مجلة نيوزويك 4 الأمريكية :

4 العدد الصادر بتاريخ 1978/10/30

” إذا كان المجمع السابق قد أرجع الكوريا درجة إلى وراء، فالمجمع الحالي عمم هذا التقهقر، وجعله شاملاً لجميع السلطات الإيطالية ”.

وعندما سئل الكاردينال سيرى عن رأيه في خطاب البابا من على شرفة القديس بطرس أجاب بلهجة فظة وهو يدخل سيارته : ” لا أعلم لا أستطيع ان اتذكر ما قاله !”.

في الصباح التالي، رسم البابا يوحنا - بولس الثاني - متكلاً اللاتينية - الخطوط العريضة لشرعة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية آلياً على نفسه اتباع مقررات المجمع الفاتيكاني الثاني وتبني تحدي ” شرعة المجمع العظمى التي هي وثيقة ” نور الأمم ” المتعلقة بالعقيدة. وأوضح ان مقررات المجمع ليست حبراً على ورق بل نقاطاً يجب ان توسع وتعمق. ومع تشديده على أولوية بطرس فق ذكر ” الجماعة ” في خطبته خمس مرات. (يفترض ان يكون الكاردينال سيرى فهم عند انتهاء الخطبة معنى هذه الجماعة).

والذين كان يهمهم معرفة وجهة نظره ازاء الحركة المسكونية تنفسوا الصعداء عندما انتهى الى القول:

” هنا لا يسعنا ان ننسى الاخوة في الكنائس والطوائف المسيحية الأخرى.

فالقضية المسكونية هي في الواقع من السمو والدقة بحيث لا يمكننا الا ان نتطرق إلى ذكرها. فكم من مرة تأملنا معاً في وصيته المسيح الذي طلب إلى الآب نعمة الوحدة لتلاميذه (يوحنا 21/17-23). ومن ينسى الحاح القديس بولس في صدد كلامه عن المشاركة الروحية وبه يحثنا على أن يكون لنا اقتداء بالمسيح محبة واحدة ونفس واحدة وفكر واحد (فيلبي 2/2 و5-8).

لذا يبدو انه لم يعد ممكناً ان تبقى مأساة الانقسام بين المسيحيين سبباً في الارتباك وحتى في الخزي. فعليه، أننا ننوي متابعة الطريق الذي سبق وتم شقه على نحو جيد وذلك من أجل السير قدماً بالمراحل

الكفيلة بتخطي العقبات على أمل ان نستطيع بفضل الجهود المشتركة ان نتوصل في النهاية إلى المشاركة الكاملة".

شدد البابا يوحنا - بولس على رغبته في السلام والعدالة الدولية، ولكنه شدد أيضاً على ان " ليس في نيته التدخل في السياسة". ومع ذلك فقط تحدث عن سلام لبنان وحريته وعن جميع الشعوب المغلوبة على أمرها فقال:

" ليسمح لنا كذلك ان نولي من القلب عناية خاصة بتلك المسألة الشديدة الخطورة والتي وضعها مجمع الكرادلة في الموضوع البارز خلال شعور الكرسي الرسولي الا وهي المعضلة المتعلقة بأرض لبنان العزيزة وبشعبه الذي تكن له جميعنا الرغبة الحارة في السلام في الحرية.

وفي الوقت ذاته نود ان نمد يدنا وتفتح قلوبنا في هذه اللحظة بالذات لى جميع الشعوب والى جميع المظلومين بفقدان العدالة وبالتمييز الفئوي سواء على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، ام على صعيد الحرية العادلة، حرية الفكر و الدين. فعلينا ان نصبو بكل الوسائل الى هذا الهدف الا وهو ان تصبح جميع اشكال المظالم الآخذة بالظهور في عصرنا موضعاً لأنعام نظر جماعي وان يعطي العلاج الناجع ليستطيع جميع الناس ان يعيشوا الحياة اللائقة بالإنسان".

والبابا الجديد على بيئة من ان الطرق إمامه ليست قويمه ولا واضحة المعالم ولذلك ليس من السهل عليه قطع الوعود ، قال:

أيها الأخوة والابناء والاعزاء،

" إن أحداث الكنيسة والعالم القريبة العهد هي بالنسبة لنا جميعاً انذار مفيد نسأل بموجبه أنفسنا: كيف يجب ان تكون فترة حبرتنا ؟ كيف نواجه المصير الذي أعده الرب للكنيسة خلال السنوات

القادمة ؟ كيف تحدد معالم الطريق التي سوف تسلكها البشرية في هذه الحقبة من الزمن التي تقربنا من العام الألفين؟ أنها أسئلة حاد والجواب الوحيد عنها يبقى عند الله؟

واتضح انه سيكون منفتحاً على ما بخبئه المستقبل، وانه يعرف حقيقة ما ينتظره من واجب وذلك عندما ذكر الكرادلة بأن ملابسهم القرمزية ترمز إلى الايمان الذي يؤدي الى "أراقة الدم".

لا ريب ان البابا يوحنا - بولس يثير الاحلام المزعجة منذ انتخابه عند موظفي كوريا عبيد البروتوكول ! فهو لا يرغب في البروتوكولات ولا ينوي ن يصبح مثل اسلافه " سجين الفاتيكان" ومن كان بارعاً مثله في التعامل مع الحزب الشيوعي المحلي فلن يروعه تعامله مع بيروقراطيي كوريا !

وعليه، فبعد ظهر الثلاثاء، وكان قد انتهى خطابه " إلى المدينة والعالم"، ذهب لزيارة صديقه القديم وزميله المطران اندره ديسكور وهو طريح الفراش في أحد مستوصفات روما. فهال الخبر اعضاء الكوريا. فحاولوا عبثاً اقناعه بالعدول عن الزيارة! وبعد أن تمت الزيارة راح يتحدث الى الجمهور الذي اسرع لرؤيته فغاب عن باله ان يمنحهم البركة فلفته الى ذلك اسقف يرافقه فباركهم ثم قال بحرارة : "أنتم ولا شك ان البابا ايضا بحاجة اى ان يتعلم مهنته".

بعد مضي اسبوعين كرر الزيارة ذاتها مرتدياً قمبازه الاسود يرافقه امين سره وحارسان.

تصرفه على هذا النحو حيال التقليد المتحجر دفع أحد النقاد في روما الى التعليق بقوله ان الأب الأقدس سيتجول قريباً في روما على دراجة نارية.

وعندما بلغ هذا الانتقاد أحد أصدقائه البابا في كراكوفيا بانفعال: " كلام تافه ! انه من بين الآليان لا يحسن الا استعمال الدراجة!". وكثرت الاقويل المستطرفة.... فمن قائل : لقد أوقف المأكولات المعدة في الفاتيكان وعين في لمطبخ راهبة بولونية تقلي له الجامبون والنقانق لطعام الفطور، ومن قائل زالت

القيلولة أو " يقوم بالتمارين الرياضية في الخامسة من كل صباح على السطح الذي سقفه البابا بولس السادس"، أو " جعل ملعب كرة المضرب (التنس) في الفاتيكان صالحاً للاستعمال " (هذا الملعب كان بولس السادس قد حوله إلى قاعدة للهليكوبتر)، أو " استبدل النبيذ الايطالي بالبيرة" (همس أحد اصدقاء البابا البولونيين قائلاً: " لو كان الايطاليون يعرفون ذوقه في النبيذ لكانوا تربثوا كثيراً قبل الأقدام على انتخابه")

اما الهزة الحقيقية في ذلك الاسبوع الاول فقد حدثت لدى استقباله ممثلي الصحف والتلفزيون في " قاعة البركات".

لقد اشتهر عن الفاتيكان حذره، إن لم نقل ابتعاده نوعاً ما عن التعامل مع الصحافة وقد عبر عن ذلك أحد الناشرين الكاثوليكيين حين قال: " تحسب الصحافة . وقد عبر عن ذلك أحد الناشرين الكاثوليكيين حين قال: " تحسب الناطقين باسم الكرملين هذرة أمام الناطقين باسم مكتب الصحافة الفاتيكانية".⁵

لكن بحركة تغير كل شيء

فبعد الاستماع الى أحد اعضاء الكوريا في تقديم مليء بالشكليات المداهنة، ألقى يوحنا - بولس خطابه بالفرنسية. بينما كان يذكرهم بمسؤولياتهم المهنية، ذكر مكتب الصحافة بالفاتيكان فقال:

" لذا فإنني أتمنى من أجل هذا بالذات ان يستطيع العاملون في الحقل الاعلامي الديني ان يلقوا دائماً لدى الهيئات الكنيسة المختصة ما يحتاجون اليه من مساعدة . فعلى هذه الهيئات ان تلبى طلباتهم محترمة عقائدهم وينادون به. وان تزودهم بأكثر المستندات موضوعية ووفاء بالمرام.

⁵ ريتشارد دودن في " البشير الكاثوليكي "

لكن عليها كذلك ان تعرض عليهم الرؤية المسيحية للأشياء التي تضع الوقائع ضمن مدلولاتها الحقيقية بالنسبة للكنيسة والانسانية".

وكم هال معاونيه حال انتهاء خطابه استعماله لفظة "أنا" عوضاً عن "نحن" ثم راح يتقدم شيئاً فشيئاً في القاعة، مخاطباً هذا أو ذاك مماًزحاً الصحافيين، محادثاً الراهبات ببساطة مجيباً عن الأسئلة التي كانت تطرح عليه من كل جانب.

اما المراسلون الأجانب الذين لا يزالون يتذكرون عهد كان البابا بيوس الثاني عشر يملي عليهم كلماته وهم منحنون حتى الركب.... فظنوا انهم يحملون! وعلى هذا النحو دام اجتيازه القاعة سبعاً وأربعين دقيقة.

وإذ اغتنم الصحفيون الفرصة وسألوه هل كان سيدعو يوماً ما إلى عقد مؤتمر صحافي اجاب : " أجل، عندما يتركوني"

كان ذلك على حد وصف مجلة التابلت " أول مؤتمر صحافي بابوي في التاريخ"

والذين عناهم بقوله " عندما يتركوني " لم يرتاحوا كثيراً للجواب

وعندما انتهى الى لطف الثاني من القاعة، ذكر بأن عليه منح البركة، فضم يديه عالياً ايذاناً بمنحها.

إذا كان استقبال ممثلي الصحف والتلفزيون كشف عن ميل البابا إلى الحديث العفوي الحر وتفصيله اياه على كل نوع من أنواع الخطابة، فقد كشف استقبال آخر عشقه لحرية المعتقد.

كان ذلك بعد ظهر الأحد الذي جرت فيه حفلة التنصيب الطويلة الشاقة، عندما استقبل في كتبه الخاص الرؤساء الروحيين من غير الكاثوليكيين وكانوا حوالى الخمسين أو الستين بينهم ممثلون عن

الكنائس الأرثوذكسية والشرقية ووفد انجليكاني كبير من بريطانيا. وقد رحب البابا بكل واحد على حدة مقبلاً وجنتيه مشدداً من جديد بأن لا عودة الى وراء فيما يتعلق بالحركة المسكونية وقال : " هذه ليست قضية اختيارية بالنسبة الينا بل هي ارادة المسيح وموضوع صلاته".

وبحركة عفوية شبة مسرحية طلب اليهم ان يتماسكوا بالأيدي للصلاة بشكل دائرين وقال : "لنأخذ ايدي بعضنا البعض" تلك الحركة المسرحية قطعت أنفاس الحاضرين.

وقد علق أحد الصحفيين على هذا المشهد بقوله : " كدنا ننتظر ان تنشق جدران المكتب !".

وقال الدكتور رونالد كوغان : " أنه رجل حار العاطفة. ورجل حب

يسرع إلى لقاءك ولا ينتظر أن تأتي انت اليه. وهو ايضاً رجل شجاعة وبأس.

واعتقد انه رجل فرح. وان بدأ وجهه حزيناَ عادة أكثر منه فرحاً فعندما يبتسم تخال الشمس تشع من بسمته. انه حار، ذو باس وفرح، يبدو لي أن من اجتمعت فيه هه الصفات الثلاث ملك السمات المسيحية الأصلية".

بقي عليه في ذاك النهار ان يستقبل البعثات الرسمية من بينها لبعثة التي كان يرأسها رئيس الدولة البولونية. في خطابه لهم دعا الى لوحدة والتعاون، وهذه الدعوة فهمها البولونيون بلا شك حق الفهم ومما قاله :

"... لا يمكن ان يكون تقدم بشري صحيح ما لم يجر البحث بصدق وتجرد عن الوحدة والتعاون بين جميع الشعوب"

وبعد انصرفهم استقبل السيدين جابلونسكي وكاكو في مقابلة خاصة.

ما من أحد يعرف ما دار من حديث بينهم انما هناك نقطة أكيدة قد بحثت وهي انه في نوار المقبل
ستشهد كاتدرائية كراكوفيا احتفالات الذكرى المئوية التاسعة لوفاة القديس ستانيسلاوس، من غير
المعقول ان لا يدعى البابا إلى حضورها —أ يكون لك معقولاً؟ هذا الموضوع يتعب حقاً الحكومة البولونية
اذ على البابا ان ينصاع لقرارها عن رضى منه أو من غير رضى.

بعد ذلك بأسبوع توجه على متن طائرة هليكوبتر تابعة لطيران القوات الجوية الايطالية إلى دير
منتوريللا المشيد على رأس تل، شرقي روما. بدا وكأنه يستعيد حريته التي فقدها طوال الاسبوع السابق.
يوم كان كاردينالاً كان يجب الذهاب اليه، متسلقاً الاثني عشر كيلومتراً الأخيرة، مستسيغاً حرية
التلال، ومستعرباً صحة الرهبان البولونيين الساكنين هناك. كانت زيارته على نمط واحد: يبيت
الليلة وعند الصباح يبدأ التجول بين التلال... وفي زيارته الأخيرة قبيل انتخابه بابا صلي لكي يمنحه
الرب "حكمة الاختيار".

اما في زيارته الحديثة هذه، فقد أمضى تسعين دقيقة مصلياً امام تمثال خشبي للعداء يعود إلى القرن
الحادي عشر وبعد ذلك انتقل للقاء جماهير الحجاج الذين خفوا للترحيب به فبارك مرضاهم، عانق
اطفالهم وصافح باليد جميع الذين كانوا حوله. ثم راح يداعب الاطفال فيرفعهم عالياً فوق رأسه ثم
يعانقهم طويلاً. وكان الجميع يهتفون له: "عاش البابا فويتيلا" لا "عاش البابا" ثم عاد إلى الفاتيكان
قبل حلول الظلام.

كتب تادوز ريشيافيش في التيغودنيك: "لقد ألقوا على عانقه حملاً ثقيلاً مربعاً. هناك برد على الجبل.
نتمنى له من أعماق قلوبنا القوة كي يتحمل البرد وهو لن يكون عرضة له فحسب بل للوحدة ايضاً. فكن
دائماً بجانبه يا الله".

بابا للعالم

سأل صحافي ايطالي أحد أصدقائه البابا القدامى: " هل سيكون مثل البابا لوشياني؟"

فأته الجواب: " كلا! بل سيكون مثل البابا فويتيلا وحسب".

وهذا صحيح، فإن لفويتيلا اسلوبه الخاص الذي يمكن وصفه منذ الآن بالانفتاح والصدقة والقرب من الناس وتخطي المراسم.

لكن بانتخاب هذا البابا البولوني تطرح اسئلة عديدة أولها يتعلق حتماً ببولونيته.

لقد حرص الكرادلة على التشديد منذ البدء على أن اختيارهم لم يكن سياسياً، وعلى أن مجيء فويتيلا من وراء الستار الحديدي مجرد صدفة، وعلى أنهم اختاروه لأنه أفضلهم، وكل ما يقال عدا ذلك فمن الأقوال المجانية

وحسم الكاردينال هيوم الموضوع فقال: " كان فويتيلا هو الذي سينتخب، ايطالياً كان أو فرنسياً أو حتى انكليزياً".

على كل حال ففوائد هذا الاختيار ستفوق اضراره إذ انه من الوجهة لنظر الضيقة سيقوي كنيسة بولونيا، بحيث تصبح السلطات الشيوعية سهلة الانقياد. وسيرى فيه جميع مسيحي بلدان أوروبا الشرقية (بمن فيهم الارثوذكسيون) علامة على اهتمام الكنيسة بهم فيزدادون ثقة بمستقبلهم.

ولكن كيف ستظهر هذه الفوائد ؟ كيف سيكون تصرف حكومات تلك البلدان الشيوعية ؟ ما هي التدابير التي ستتخذها هذه الحكومات اذا ما تضجر المسيحيون من أوضاعهم وحاولوا اظهار قوتهم؟ هل سيتفاوض البابا يوحنا – بولس مع حكومات لوتيانيا وأوكرانيا ورومانيا ولتفيا وتشيكوسلوفاكيا والمجر؟ ام انه سيحيد عن السياسة، كما ذكر في أول خطبة له، ويكتفي بتأدية المشورة النصوح والتأييد المعنوي تلك البلدان؟

ما من أحد ينتظر ان يرتاح الروس الى حضور بابا بولوني على المسرح الدولي. وبهذا المعنى صرح أحد المسؤولين السوفيات قائلاً: " قد أقول اننا نرى في هذه الانتخاب عاملاً من عوامل عدم الاستقرار "

وعند الأزمات والمحن، لمن ستكون الكلمة الفصل؟ للروس؟ ام ليوحنا – بولس ؟

ما من أحد ينتظر ان يرتاح الروس الى حضور بابا بولوني على المسرح الدولي. وبهذا المعنى صرح أحد المسؤولين السوفيات قائلاً: " وقد أقول اننا نرى في هذا الانتخاب عاملاً من عوامل عدم الاستقرار "

وعند الأزمات والمحن، لمن ستكون الكلمة الفصل؟ ام ليوحنا – بولس؟

هل سيقوم البابا بتحسين العلاقات مع الاتحاد السوفياتي مع المعرفة اليقين بأن هذا سيكون على حساب البلدان الصغيرة المغلوبة على أمرها ؟

وفي عالم سقطت فيه كل الموازين والمقاييس ماذا سيحصل في روسيا حين يموت بريجنيف ويخلفه حكم جديد؟

وهناك اعتراض آخر مفاده ان البابا الجديد مع معرفته بالوضع البولوني معرفة تامة سينظر الى العالم اجمع بالمنظار البولوني، وان كنيسته وان تعرضت للأحداث المأساوية، فقد تعرضت لأحداث استثنائية ليس من الضروري ان تكون البلدان الأخرى قد تعرضت لمثلها.

لا شك في هذا الاعتراض بعض الصواب لكن الحقيقة هي أولاً في أن البابا لم ينطو على نفسه في بولونيا، بل سافر كثيراً إلى ايطاليا وألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية وكندا وأستراليا وزيلندا الجديدة والفيليبين. وان عمله كعضو في أربع لجان فاتيكانية دائمة، وفي مجمع العلمانيين وامانة السر العامة للمجمع، كل هذا دفعة الى الاحتكاك بأفكار العالم أجمع وشعوب الارض قاطبة.

ثانياً، في أن كنيسته هي الوحيدة في العالم من حيث غزارة الدعوات الكهنوتية بين شبانها وهؤلاء ينتظرون دورهم لدخول المدارس الاكليريكية، وبالتالي من حيث غزارة السيامات الكهنوتية. ويكفي للتدليل على ذلك ان نذكر ان البولونيين ارسلوا الفائزة 1977 أربعة وخمسين كاهناً مرسلاً ليلتحقوا بآلاف المرسلين الذين سبقوهم الى بلدان مختلفة.

ثالثاً، ان التجربة البولونية قيمة ثمينة بحد ذاتها، فهي التي جهزت فويتيلاً تجهيزاً أصيلاً للحوار الكاثوليكي - الماركسي الذي فرض نفسه، وعصمته من الاخطاء في التعامل مع الماركسيين وأعدته للتعاون معهم انطلاقاً من الفهم العميق لمبادئهم. وبفضل معرفته التامة للأيدولوجية الماركسية، سواء على الصعيد العملي أو على الصعيد النظري، فهو يعي تماماً أن المخارج معقدة جداً وذلك نقيض ما يراه كثيرون في الغرب. فقد رفض ان يدخل الحرب الباردة معهم.... لأنه ذكي، ولأنه وجودي أكثر منه براغماتي، لأنه مستعد دائماً ان ينظر، مثل البابا يوحنا إلى ما هو جيد في كل الأنظمة.

عايش الابداء النازية المحرقة ، وتحقق بذاته من أن جناح اليمين التوتاليتاري والجناح اليساري مخيفان على السواء. ويعرف توازي الؤضاع بين بولونيا واميركا اللاتينية ويستطيع بالتالي القفز ذهنياً للإحاطة بسائر مشاكل العالم. وهو لا يؤمن بأن اوروبا هي محور العالم هي محور العالم واثنى عامل فيه.

قال أحد الاساقفة : " تداخلت الآراء وانصهرت تلقائياً فغاب عن الفكر انه مجرد زعيم روحي آت من البلدان الشيوعية ، أو انه جندي انتزع من خط المواجهة ليعين قائداً عاماً".

وعقبت الإيكونيميست على الأسقف فقالت : " بل أصبح ينظر اليه على انه بابا لأفريقيا وأميركا اللاتينية وآسيا وحتى للصين " 1

وكما عبر كريستوفر بوكر : " يبدو البابا يوحنا - بولس وكأنه اعاد الكنيسة الكاثوليكية الى مكانها في قلب المأساة النفسية التي يتخبط فيها العالم البشري بأسره. وهذا كما كان أحد ليتصوره في ذهنه لأسابيع خلت " 2

يكفي الكنيسة هبة ان يضع البابا يوحنا - بولس ايمانه في خدمتها ، ذاك الايمان الصلب الذي صمد بوجه النازيين الضاربة ثم أمام هجمات الشيوعيين التي لم تكن أقل منها ضراوة. ويكفيها ان يضع في خدمتها معنوياته القوية التي يتمتع بها وحده بانتصاره على الموت ، وقوته الروحية التي يتمتع به وحده بانتصاره على الأعداء.

وهو يتعشق الحربة وانسانية الانسان معاً ويرى ان المادية تهددهما معاً ، ولا فرق بين مادية وأخرى عند الأمم المصنعة على هذا الصعيد.

1 بتاريخ 78/10/21

2 بتاريخ 78/10/28 في ال spectator

يحزنه مذهب المتعة³ والعنف والتفاهة والبربرية في المجتمع الغربي.

وهو يعي تماماً كم هو شاق الحفاظ على الايمان وسط هذه الضغوط المتعددة.

ثم ماذا عن الشيوعية الأوروبية التي هي من نتاج مجاهل الغرب الصناعية ؟

هل كان الكرادلة ، بمن فيهم الايطاليون غافلين عنها حين انتخبوا هذا البابا؟

وبصفته اسقف روما هل يستطيع البابا يوحنا – بولس ان يجنب هذه المدينة الاخطار التي تهددها في

الأزمة التي تجتازها ؟ جميع الدلائل تشير الى انه سيتصرف بتعقل وروية لا عن هوى. وكما جاء في

مقال افتتاحي في التايمس:

” لم تتصرف كنيسة بولونيا تصرف ردة فعل، بل قادت شعبها لينظر الى روسيا بعين الاحتراس، وإلى

المانيا بعين المصالحة“. وفي طيات هذين الطرفين تختبئ ولا شك، بعض بذور الرجاء....

وفي أية حال. فإنه لخير الكنيسة ولروما ان لا يبقى رئيسها واسقفها ايطالياً. وباباوات هذا القرن –

باستثناء مثل البابا يوحنا الثالث والعشرون – غرقوا في هواجس السياسة الايطالية، الأمر الذي اضعف

سلطتهم.

بولس السادس نفسه، الذي اعطى العالم في خارج ايطاليا كبير اهتمامه لم ينج من أثر هذا السقم

الايطالي عليه. فالتصريحات التي أدلى بها، والرسالات العامة التي وجهها كانت تبدو وكأنها صادرة

عن ايطالي موجهة الى ايطاليين وكان على الكنيسة الجامعة ان تتكيف مع هذا القيد الضيق.

³ Hedonism وهو مذهب يقول بأن اللذة او السعادة هي الخير الأوحد او الرئيس في الحياة (المترجم)

أما يوحنا بولس فلن تشغله السياسة الإيطالية الى هذا الحد. وقد تكون النتيجة المباشرة لذلك انتقال بعض اصوات الديمقراطيين المسيحيين الى الشيوعيين وبالمقابل سيصبح السياسيون الإيطاليون ليس أقل غنى بل أكثر حرية.

سمع كاهن في ساحة القديس بطرس، بعد انتهاء عملية انتخاب البابا، يقول: "عدنا من جديد الى شؤون الدين". وفي هذا القول تعبير عفوي عن الشعور العام.

وقال آخر: "عادت الكنيسة فجأة الى كاثوليكيته". وهو يعني بذلك الكنيسة الجامعة المنفتحة على الخارج كنيسة الفقراء الكنيسة التي تعرف كيف تتألم.

ان تبدل الأجواء هذا ناتج، بلا شك، عن شخصية فويتبلا نفسه وعن واقعه فالألم هو الذي قسمات وجهه. وقد أوردت النيوزويك كلام أحد دبلوماسي الفاتيكان الإيطاليين: "كرادلتنا الإيطاليون أفضل جداً لكن أحداً منهم لم ير شجناً من الداخل". وتوقفت المجلة ذاتها عند جوهر الحقيقة فأكملت قائلة:

"قد تكون هبة فويتبلا العظمي للكنيسة - في افريقيا وآسيا كما في أوروبا الشرقية وأمريكا اللاتينية - في انه اعاد الى كرسي بطرس صورة العبد المتألم. وستبقي هذه الصورة التي تقلصت عن ملامح وجه مجتمعات أوروبا الغربية واميركا الشمالية، وحدها الجديدة بكشف حقيقة يسوع المسيح".

وأخيراً ماذا عن الكنيسة الكاثوليكية نفسها؟

هل سيتمكن البابا من تخفيف حدة التوتر القائم بين الراغبين في تحقيق اللامركزية بعيداً عن روما، من جهة، وأولئك الراغبين، خلافاً لذلك، في تحصينها من جهة أخرى؟ بين المتطلعين إلى تأييد التنوع في

الوحدة أي الى كنائس وطنية مستقلة بذاتها تقف عن كئيب على حاجات ابنائها وتفتخر بأنها تنتسب إلى الكنيسة الجامعة، والمنتظرين تبلغ القرارات من أعلى إلى اسفل أي مباشرة من روما؟

هل سيفلح البابا الجديد في حفظ التوازن بين المحافظين والتقدميين، وبالتالي يمنع المتصلبين من الفريقين من تجاوز حدودهم؟ (هنا يمكن التنويه بتسامحه. فيوم كان يطلب اليه معاقبة أحد الطلاب الاكليريكيين أو الكهنة لذنوب اقترفه، كان يرفض الازعان مجيباً: " فلننتظر وقتاً أطول").

هل سيوفق الى تحقيق ما وعد به من تعزيز العمل بموجب مقررات المجمع المسكوني، وبخاصة بالوثيقة المتعلقة بالعقيدة " نور الأمم" التي اعادت تحديد طبيعة الكنيسة ككل وتحديد غايتها؟ هل سيوفق إلى ذلك بدون ان ينفر أولئك الذين لا يزالون يرون في الكنيسة قلعة محاصرة عليها، كي تحافظ على " وديعة الايمان" ان تصد هجمات العالم الخارجي؟

هل سينجح في اصلاح الكوريا التي هي بمثابة " مصلحة الدفاع المدني" في الفاتيكان والتي تتميز بتحجرها ومشقتها في التحرك؟ لقد أعطى في عذا المجال دليل عدم موافقته على ما يعد له في شأن ادارة الكنيسة موافقة روتينية بتثبيته رؤساء الدوائر في الفاتيكان في مراكزهم بعد أن استجوب كلاً منهم فردياً ومطولاً واعلن ان هذا التثبيت موقت.

التزامه بمبدأ الجماعةية – أي مشاركة الاساقفة البابا في السلطة – يبدو وطيذاً . لكن موعد البدء بتنفيذه لا يزال بعيداً والكنيسة لا تزال ملكية يتولى البابا رئاستها !

لأسباب رعوية وجيهاة، أو لتعطشهم الى السلطة، يريد الاساقفة ان تكون لهم كلمتهم في حياة الكنيسة، وان يكون دورهم تقديرياً أكثر منه استشارياً ويرفضون ان يكونوا بيروقراطيين من الصف الثاني فينفذوا ما تنظمه الكوريا.

لقد شاركهم البابا بولس خيبتهم مع الكوريا في السابق، فهل سيكون قادراً على مداواة هذا الداء؟
انه يتمسك بتعليم الكنيسة التقليدي في قضايا الزواج والاجهاض وتحديد النسل. ولكن كتاباته الأخيرة
وتعليقاته تظهره منفتحاً وقابلاً للتغيير، مع العلم ان طريقة فهمه لهذه الموضوعات رعونية أكثر منها
متعلقة بالعقيدة منذ حوالي ثلاث سنوات بدأ يوفر المساعدة لكل فتاه تقع في ورطة. ومنذ ذلك الحين
أنشئت لجان في كل رعايا ابرشيته للاهتمام بالأمهات اللواتي قضي عليهن بأن يعيش في العزلة).
يبدو، إلى الآن، انه لا يؤيد كهنوت النساء. ولم يسبق له أن طرح الموضوع في بولونيا، لكنه قد يظهر
فيه ليونة لم يأملها أحد.

لكنه لن يتساهل مع الكهنة الذين يطالبون بإجراء بعض التغييرات التي هي في نظره رخيصة، ولن
يرضى عن أولئك الذين تخلوا عن خدماتهم الكهنوتية، فمفهوم التضحية في سبيل العقيدة متأصل في
داخله، ومثال مكسيميليان كولبي لا يغيب عن عينيه.

منذ ارتقائه السدة البابوية، ينتظر غير الكاثوليكين رأيه في موضوع " المشاركة في الأقداس"... هنا
ايضاً لا تزال قائمة. لكنه وعد بالمشي قدماً نحو الوحدة، وتعهد بالعمل لأجلها ولن يتراجع عن وعده.
هكذا نرى ان المشاكل التي تواجهه كثيرة ومعقدة ويخشي ان يكون ما نتج عن انتخابه من توقعات
ضخمة وبعيدة المدى عائقاً جسماً في طريقه.

قد ينتظر منه ان يحقق الانجازات الكثيرة وفي اسرع وقت ممكن ! وقد تتحقق الآمال، فينتقل اصحابها
بسرعة من الوهم المتعب الى اليقين المريح.

كتبت التايمس في مقال افتتاحي : " دفعوا بالكنيسة في رحلة لا يعرف أحد نهايتها "

ويجدر بنا ان نعرف ان هذا الجالس على مقعد السائق ليدير مقود السيارة ليس مصاباً بمرض البطة ولا بهوس السرعة. بل انه سيدرس معالم الطريق التي سيسلكها، سيطلب المشورة الضرورية لذلك وسيقود سيارته بمهارة وحذق ممزوجين بالاحتراس وهو في كل ذلك حريص على رفاهية ركابه عارفاً دونهم وجهه سيره.

* * *

لقبه " بابا ابنا الجبل " وهذا يحكي عنه الكثير . منحته الجبال هوى الحرية، الحرية على أنواعها ، الحرية المنضبطة بذاتها، وأنمت فيه شجاعة ثابتة كافية لتخطي الحواجز، وزينته بالصفاء والاتزان....

قال استاذ اللاهوت في هارفرد، البروتستنتي جورج وليمس، صديقه منذ حالي عشر سنوات: " أود أن أقول فيه : انه مثال الرجل الذي يرتاح مع نفسه ارتياحاً تاماً ". 4

وقال فيلسوف بولوني بفخر يشوبه الحزن في طريق عودته من روما حيث شارك في حفلة تنصيب البابا من " أصدقاء الأب الأقدس":

" أنه أخيراً حيث يجب ان يكون. وهو الآن ما هو حقاً، أكثر منه في كل وقت مضى".

4 نيوزويك بتاريخ 1978/10/30